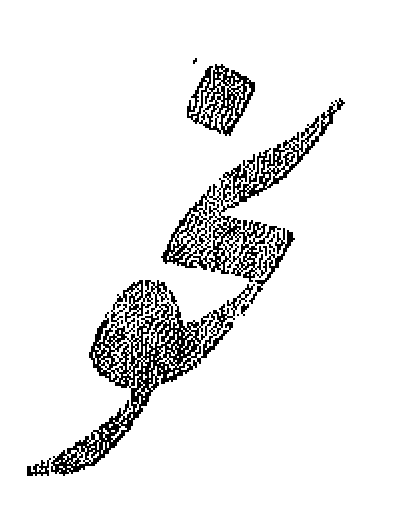


أدب روائي عالمي جديد

عوليس بجيمس جويس

محمد لطفي جمعة

مراجعة

رابح لطفي جمعة

١٩٩٨



٣٨ شارع عبد الخالق ثروت - القاهرة ت: ٣٩٢٦٤٠١

نحو
أدب روائي عالمي جديد
عوليس
لجيمس جويس

محمد لطفي جمعة

مراجعة

رابح لطفي جمعة

١٩٩٧ - ١٩٩٨



٣٨ شارع عبد الخالق ثروت - القاهرة ت: ٣٩٢٦٤٠١

تقديم

رابح لطفى جمعة

يعد جيمس جويس (١٨٨٢ - ١٩٤١) واحدا من أكبر الروائيين فى العالم بعامة وفى ايرلندا بخاصة وقد قال عنه الشاعر ت . س . إليوت سنة ١٩٢٢ إنه الشاعر الكبير والأديب المبدع لحقبة جديدة للوعى الإنسانى .

وبالرغم من أن جويس ألف روايات عديدة ونظم أشعاراً كثيرة نذكر منها موسيقى الغرفة (١٩٠٧) وسكان مدينة دبلن (١٩١٤) ومسرحية المنفيون (١٩١٤) وصورة الفنان شابا (١٩١٦) وقصائد (١٩٢٧ ، ١٩٣٢) وصحوة فينيجان (١٩٣٩) والبطل ستيفن (١٩٤٤) - إلا أن رائعته يوليسيز Ulysses أو « عولس » (١٩٢٢ باريس - ١٩٣٧ لندن) تعد أروع ما كتب أديب باللغة الإنجليزية ، كما يعد ظهور هذه الملحمة أحد المعالم البارزة والنادرة فى ساحة الأدب العالمى الجديد ولايزال جميع الأدباء والنقاد يتفقون بشأنها فهو يواجهنا فى هذه الرواية بالحقائق الخالدة للطبيعة البشرية .

ومنذ أن بدأ جويس فى نشر مقتطفات من هذه الملحمة فى مجلة الايجو إيست ومجلة ليتل ريفيو حتى لفت الأنظار إليه وبدأ الاهتمام يتزايد به وأصبح مركز اهتمام الصحافة الأدبية والنقاد فى أوربا كلها وفى الولايات المتحدة الأمريكية بالرغم من العراقيل التى وضعتها الرقابة الانجليزية والأمريكية أمام الكتاب .

وقد نهج جويس فى كتابة هذه الرواية نهجاً قلب به كل التقنيات والأصول المتعارف عليها سابقاً فى كتابة الرواية وأتاح للكتاب والأدباء إمكانات لا حدود لها يستغلونها منذ ظهور هذه الملحمة .

وقد قوبلت « يوليسيز » بحملة من الغضب والاستنكار باسم المحافظة على الأخلاق والآداب بعد أن تقدمت جمعية نيويورك لمنع الرذيلة بشكوى ضد الكاتب الايرلندى الشهير جعلته شخصية من أشهر الشخصيات الأدبية فى أيامه ، وبدأت السلطات تطارد الكتاب وتصادره وتحرقه وتعدمه الى أن أصدر القاضى الأمريكى وولزى حكما بأن هذا الكتاب ليس من كتب الأدب المكشوف كما يتوهم البعض ، الأمر الذى دفع بدار نشر فى نيويورك إلى إصدار طبعة معتمدة من هذا الكتاب سنة ١٩٣٤ .

كان جويس ذا نزعة وطنية غلابة ومن عشاق الحرية الأشداء ومن أنصار تطعيم اللغة الأيرلندية باللغات الأخرى والبحث عن طريق الخلاص القومى لأيرلندا والخلاص الذاتى أيضا لنفسه ، فكافح بقلمه وفنّه وعبقريته ضد الممارسات التعسفية للاستعمار الانجليزى فى وطنه ايرلندا وفى مصر أيضا ، وكان من عشاق تشارلس ستيوارت بارنل بطل ايرلندا وزعيمها الوطنى الشهير فكتب عنه فى ملحمته كما كتب عدة مقالات صريحة فى الصحافة المحلية بإحدى مدن ايرلندا القريبة من العاصمة دبلن ، عرض فيها للقضية الايرلندية وكفاح أيرلندا ضد انجلترا ، ورأى فى الحياة الايرلندية أشياء وأمورا لم يستطع أن يقرها أو يتصالح معها فقرر أن يترك ايرلندا فرارا بنفسه وفنه وعبقريته حتى يستطيع الكتابة عنها .

لقد وضع جويس فى ذهنه مثال إبسن وما حققه للنرويج ورأى أن رسالته تكمن فى أن يطفى الطابع الأوربى على الأدب الايرلندى بحيث يجعل أيرلندا تعى وعياً أكثر بالعالم الكبير المحيط بها وفى الوقت نفسه يجعل العالم الكبير فى الخارج يعى ايرلندا بشكل لم يسبقه اليه كاتب أيرلندى من قبل ، كتب فرانك بودجين

صديق جويس يقول : « إن أحد جوانب رواية يوليسيز والذى يبهجنى دائماً هو طابعها الشعبى ، إن فيها شبهاً من تلك الأغانى الشعبية القديمة التى تحكى عن أحداث مأساوية ، فدبلن جويس مدينة صلبة صامدة ذات نكهة خاصة كتب عنها جويس وعن تاريخها ومعالمها وشوارعها ومرافئها ومعتقداتها وماينتشر فيها من إشاعات بنفس الأسلوب الذى نجد به لندن عند شارلز ديكنز وبطرسبرج عند دستوفسكى » .

ومن بين ابتكارات جويس فى كتابه يوليسيز نجد أن أشهرها وأدعاها للإعجاب والدهشة استخدامه على نحو منتظم ومطرد لأداة فنية لم يكن لها سابقة إلا قليلا عند بعض الكتاب الروائيين ، تلك هى «تيار الوعى» و «الحوار الداخلى» ، فلم يحدث من قبل على الإطلاق أن عرضت بأمانة عمليات العقل بهذا التدفق والانهمار ، فجاءت رواية « يوليسيز » فى وقت كان الأدباء والفنانون يتحللون من المثل والتقنيات التى سادت الثقافة الغربية منذ عصر النهضة ليذللوا الوسائل الفنية الجديدة ، فكان جويس هو القائد لهذه المرحلة الجديدة فى الأدب كما هى الحال بالنسبة لبيكاسو فى الفن.

وبالإضافة الى تيار الوعى والحوار الداخلى ، فإن الغزارة اللغوية فى رواية «عولس » وشاعرية ألفاظها تشكل جزءاً من حيوية الكتاب حتى قيل بحق إنه لايوجد كاتب انجليزى آخر فى القرن العشرين غير جويس يمكنه أن يوسع من الإمكانات الشاعرية للنثر.

أما يوليسيز أو عولس رائعة جيمس جويس فهى كما يقول عنها الدكتور طه محمود طه الذى ترجمها الى العربية :

« هذه ليست قصة أو رواية أو ملحمة أو مسرحية أو قصيدة أو أغنية ، هذا عالم بأكمله ، تراث أمة ، تاريخ شعب ، مجموعة سير لرجال ونساء ، سجل عقارى لمبان وشركات ومنازل ومكتبات وجامعات ، ذخيرة ضخمة من الأغانى الشعبية والألحان ، ساحة تزخر بصراعات المدارس الأدبية ومناورات السياسيين ومحاورات رجال الدين ومتاهات الفلاسفة . تبدأ فى الأزمنة الساحقة ولا تنتهى إلى شىء أو ربما تقودنا إلى القرن ٢١ . تدور بنا على مدى ١٨ ساعة ونتوه فى دروبها أحياناً. جمع فيها جويس عصارة عصره من مذكراته على مدى عشرات السنين وما وعته ذاكرته منذ نعومة أظافره ... فيها كل مايريد القارىء ، المرح والفكاهة

والحزن والكآبة ، والفقر والمعاناة ، الهوائل والكوارث والزلازل ، فيها مكان لكل شيء وكل شخص وزمان لكل حدث ... فيها كل مايدور من حديث مسموع ومهموس في حانات دبلن وضواحيها ، مايدور في خلد شخصياتها من أفكار ، فيها الأدب والجغرافيا والتاريخ والفلسفة والاجتماع والعلم والمسرح والتمثيل والإعلان والإعلام واللغة والرسم والنحت والأكل والشرب والأطعمة والبهارات بأنواعها، فيها شوارع دبلن بأسمائها والمباني بأرقامها وسكانها وعوائدها والمستشفيات بمرضاها والأحياء والأموات وفقراء ايرلنده وأعيانها وأغنياء أوربا وانجلترا والمنفيون والمواطنون والأميون والمتعلمون والكبار والصغار ، الرجال والنساء والبارات والحانات والفنادق ، فيها تتكلم الحيوانات ... وتدب الحياة في المواد الجامدة ، فيها سباق المراهنات في سباق الخيل ولغة الأزهار وطوابع البريد، فيها البحار والأنهار والسماء والأرض ، فيها القبور والأرواح ... ومالا يخطر في حسبان ، فيها كل الوظائف ، أساتذة الجامعة والصحفيون والأدباء ، والمومسات والعاهرات وبيوت العبادة وبيوت الرذيلة ، فيها الفانتازيا والواقع والحلم والحقيقة ، فيها الجميل والقبيح والمشوه ، رقعة هائلة تغطي مدينة دبلن

بأكملها، بأرباضها، بشوارعها وأزقتها وحواريها ، بأرقام المنازل وصناديق البريد ، نطوف فى أرجائها ونقطعها من شرقها لغربها ومن شمالها لجنوبها، أحيانا فى ترام وأحيانا سيراً على الأقدام وأحياناً فى الخيال ... الأسماء فيها أسماء شخصيات حقيقية ولدت وعاشت وأنجبت وخلفت كنزاً لايفنى من الذكريات والحكايات والقصص والنوادر ، ثم شاخت واختفت لتظل ذكراها عالقة بالأذهان ، على مدى أكثر من ألف صفحة يمر شريط سينمائى طويل يعبر بالصوت والصورة والكلمة واللحن وشذرات من جمل موسيقية عن هذا الاحتفال العظيم بهذه الحياة ، الجميلة القبيحة »[١] .

هذا ماكتبه الدكتور طه محمود طه فى مقدمة ترجمة «يوليسين» الى العربية وهو يعطينا فكرة تقريبية عما احتوته هذه الرواية واشتملت عليه .

وبمناسبة مرور مائة عام على مولد جويس (فبراير سنة ١٨٨٢) جرت فى فبراير سنة ١٩٨٢ احتفالات فى جميع أنحاء

---

(١) عولس تاليف جيمس جويس ، ترجمة الدكتور طه محمود طه ، المقدمة صفحة ٥ – ٧ ، المركز العربى للبحث والنشر ، سنة ١٩٨٢ .

العالم ، أيرلندا وانجلترا وامريكا وكندا وفرنسا وكوبنهاجن وايطاليا والمانيا واليونان وهولندا واليابان وسويسرا والبرتغال ومصر ولبنان، كما صدرت عشرات الكتب والدراسات والبحوث عن هذا الكاتب الايرلندى المتفرد وعن رائعته عولس بصفة خاصة ٠

أما هذا الكتاب الذى بين يدى القارىء الكريم فهو مقدمة ضافية كان المؤلف محمد لطفى جمعه قد أعدها لترجمته « عولس » الى اللغة العربية على أنه لم يكمل هذه الترجمة ووقف بها عند صفحة ٢٠٩ من الكتاب الأصلى طبعة « شكسبير وشركاه بلندن سنة ١٩٣٠ » بسبب المرض الذى ألحّ عليه وانتهى بوفاته سنة ١٩٥٣[1] .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن لطفى جمعه ألقى سنة ١٩٤٧ محاضرة قيمة عن أدب هذا الكاتب الايرلندى بجمعية قدامى خريجى جامعات فرنسا وسويسرا وبلجيكا وقام الأخ زكريا لطفى جمعه بنشر هذه المحاضرة بجريدة الزمان إبان أن كان يعمل بها ٠

ولعل ترجمة الدكتور طه محمود طه الكاملة لعوليس والتى ظهرت سنة ١٩٨٢ بعد وفاة لطفى جمعه بحوالى ثلاثين عاماً أن

---

(١) تقع هذه الطبعة فى ٧٣٥ صفحة ٠

تكون قد حققت تلك الأمنية العزيزة التى طالما تمناها لطفى جمعه بنقل هذا الكتاب الى العربية ، فقد كان من أشد المعجبين بأدب جويس وبخاصة رائعته « عولس » إعجاباً لا يخطئه قارىء هذا الكتاب فى أكثر من موضع منه ، فقد كتب يقول « حرام على من يعيش فى هذا الزمان ويعرف اللغة الانجليزية معرفة حسنة أن يحرم نفسه من قراءة هذا الكتاب ، بل إن هذا الكتاب خليق بأن يتعلم الرجل فى سبيل قراءته تلك اللغة إن كان يجهلها ؛ فإنه كفيل بحسن جزائه على كل ما أنفق من جهد ومال وأيام فى سبيل الوصول اليه » .

وقد حاول لطفى جمعه فى هذا الكتاب أن يقدم للقارىء العربى أدب هذا الكاتب الأيرلندى الشهير وأن يلقى بعض الأضواء على رائعته « يوليسيز » وخاصة لغته وأسلوبه الجديد واستخدامه «تيار الوعى» و « الحوار الداخلى » بصورة لم يكن لها سابقة إلا قليلاً عند بعض كتاب الرواية وجعل لطفى جمعه عنوان هذه الدراسة « عولس لجيمس جويس نحو أدب روائى عالمى جديد » وهو نفس العنوان الذى اخترناه لهذا الكتاب الذى بين يدى القارىء .

لقد كان أدب جيمس جويس محل اهتمام ومحور دراسات

لكثير من الأدباء العرب وفى مقدمتهم الدكتور طه محمود طه الذى سلخ فى ترجمة « عوليس » أربعة عشر سنة (١٩٦٤ - ١٩٧٨) وكان قبل ذلك قد نشر فصلا منها فى مجلة الكتاب سنة ١٩٦٤ وفصلا آخر بمجلة « المجلة » سنة ١٩٦٥ ، ثم أصدر سنة ١٩٧٥ موسوعة جيمس جويس وقدم فيها للقارىء العربى جرعات صغيرة عن أعمال هذا الكتاب الأيرلندى مترجمة الى العربية مع شروح وافية .

كذلك من الأدباء الذين ترجموا بعض أعمال جويس الأستاذ سامى خشبه الذى ترجم مسرحية « المنفيون » ونشرها ضمن سلسلة « من المسرح العالمى » التى تصدرها دار الشئون الثقافية العامة بالعراق .

وبعد ...

فإننى أترك القارىء الكريم مع صفحات كتاب محمد لطفى جمعه « عولس لجيمس جويس ، نحو أدب روائى عالمى جديد » ليقف على أدب هذا الكاتب وعلى تلك الأداة الفنية الحديثة فى كتابة الرواية وأعنى بها تيار الوعى والحوار الداخلى، تلك الأداة التى بدأ

بعض الأدباء والروائيين العرب باستعمالها في بعض كتاباتهم الروائية وفي مقدمتهم الاستاذ نجيب محفوظ الحائز على جائزة نوبل العالمية في الأدب ٠

والله الموفق وهو الهادى إلى سواء السبيل ،،،

القاهرة في ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٩٧

رابح لطفى جمعه
٢١ ش أمين الخولى
مصر الجديدة

عولس

لجيمس جويس

نحو أدب روائي عالمي جديد

محمد لطفي جمعه

القاهرة

سنة ١٩٤٧

مقدمـــة

زعم بعض النقاد أن جيمس جويس أراد بكتابه الرمز لحاله وحالة بلاده ايرلاندا فى أذيال القرن التاسع عشر وفجر القرن العشرين ، وموقفه من أهل زمنه ومعاصريه ، وموقف وطنه من دولة بريطانيا الحاكمة المستولية المتحكمة فى أهله وقومه .

وقد أخطأ النقاد فى فهم الكتاب وصاحبه ، واصطلح الأعداء والحساد على مقاومته ومحاربته ومطاردته ، واضطهاده والكيد له ، واجتمعت على المؤلف وعلى الكتاب ، ضغائن الأقوياء من أهل الدولة وأذناب الحكومة وذوى الجاه وحماة الدين ولاسيما المتنطعين منهم وغلاة الكثلكة وأنصار الباطل وأعوان المظاهر وطلاب العيش بتمليق السلطات السائدة فى كل أمة .

وكذلك اجتمعت على المؤلف وعلى الكتاب أحقاد الضعفاء من أهل الحرفة الذين لم ينالوا شأوه ولم يبلغوا درجته ولم تحدثهم أنفسهم بالوصول الى ذروته ، فصاروا أعداء له وخصوماً لكتابه وأدبه وفنه وأسلوبه .

وكان فى هؤلاء الأعداء من الأقوياء والضعفاء سباع ضارية وكلاب عاوية وعقارب لساعة وأفاع نهاشة .

وكان جيمس جويس بطبعه وفطرته إنساناً حراً كريماً رحيماً عفيفاً شريف النفس طاهر الطوية ، رأى الظلم الذى ضرب بجرانه على وطنه فحرم أهله العدل والرحمة والرخاء والحرية والتعليم فكثرت الخطوب والمحن وانتشرت الفتنة . واختلط جويس من حداثة سنه بطبقات الأمة من الخاصة والعامة وفى المدن والمدارس والدواوين والمحافل والمجالس ومجامع الأدباء وأندية الكتاب والجمعيات السرية والأحزاب السياسية ونظر فى أمور الدهماء وأبناء السبيل وتصفح أحوال العامة فى المغانى والملاهى والحانات وحلبة السباق ودور المراهنة وحفلات الانتخابات وفى المستشفيات والملاجىء ، ووقف على أسرارهم وعيوبهم ولهم أسرار وعيوب لايقف عليها أقرب الناس اليهم وأعز الناس عليهم ، وتجمع ذلك كله فى ذهنه وذاكرته ، أو قل بلغة هذا العصر تجمع ذلك كله فى عقله الباطن بغثاثته وسمانته وحلاوته ومرارته ورقته وخثارته ، فكانت من ثمرات هذه المعرفة بضعة كتب أعظمها كتاب يوليسيز ، وهو إفخمها وأبلغها وأنفعها وأحكمها وأصلحها وأصدقها وأصوبها وأجملها

وأعرقها .

كانت خبرة جيمس جويس بأهل وطنه وبالانجليز الحاكمين المتحكمين خبرة تامة شاملة ، فشهد وعلم وشعر وأحسّ ولمس فى قومه تلك النفوس التى صرحت إبان الخطوب والإحن عن مكنونها ، فظهر الضعف المؤدى الى التهالك وأبانت الرزايا والبلايا التى أصابت الأمة الأيرلندية فى أخلاقها بالانحطاط فى مهاوى الخيانة ، ومساقط الغدر والوقيعة ، وتجلت القوة الخلقية التى تنتهى الى البطولة والإخلاص الذى يؤدى الى الإيثار ، والشجاعة التى تنتهى الى الاستشهاد بعد اقتحام أكبر الأخطار ، والجبن الذميم الذى ينتهى الى الخوف والطمع وحب الذات والانغماس فى حمأة التجسس والدسيسة .

أما الانجليز أنفسهم الحاكمون فى بلاده المستعمرون الذين خربوها ، فقد قضوا الأوطار من كل شيء ، ودخلوا الجزيرة الايرلندية وكانت زمردة خضراء فأحالوها أرضاً مجدبة قحلاء ، يكدس أهلها روث البهائم على التلال الصفر وتخيم عليهم الأمراض ويدب الموت فى أوصالهم دبيباً بطيئاً ، ويسعى الردى اليهم سعياً حثيثاً بسبب الجوع والفاقة واضطراب الأمن ، وكانوا يعيشون على

أعشاب الأرض ونباتها الشحيح بينا كان سادتهم وظالموهم يركبون الفاره من الدواب ويقتنون الحاد النشيط من الخيول ويشيدون العالى الراسخ من القصور والحصون كالأطواد الشوامخ ويلبسون اللين الناعم من الحرير والكتان الذى عرفت ايرلاندا بزرعه ونسجه وحياكته ، ويخطبون الحسان من بنات الجزيرة الخضراء ممن أرغمتهم الفاقة على المتاجرة بالجمال ، ويأكلون الطيبات من الرزق الحرام الذى اختطفوه واغتصبوه من أفواه أصحاب البلاد . هذه كانت حال الانجليز فى ايرلاندا منذ سبعة قرون وقد أوجعوا وبالغوا ولم يحفظوا ذمام الحق والعدل ، ولم يقضوا حق الجوار ولم يرعوا عهداً ولا وفوا بوعد .

رأى جيمس جويس هذا وغيره أشد وأنكى منه وكان منذ نعومة أظافره نابغة موهوباً مفطوراً على استيعاب الحكمة تلوح لعينيه من وراء الأقوال والأفعال وتتجلى لبصيرته إثر الواقعات وصار له صورة فى نفسه وكثرة نظر فى الكتب وفرط استبداد بالخاطر وحسن استنباط للعويص وجرأة على تفسير الرموز ، فانحطت قيمة الانجليز فى عينه ، واحتقر مكانتهم وجهالتهم ، واستخفهم لما ظهر له أنهم يكدحون للدنيا التى تزول عنهم ويزولون

عنها مضطرين كما زال غيرهم قبلهم • ولو أنهم كانوا على هدوء من النفس كما يزعم عبيدهم والمتسلقون لهم والعائشون على فتات موائدهم فى دبلين وكنجزتون وليمريك وغيرهن من حواضر الجزيرة، ولو كانوا على يقظة من العقل واستبصار من القلب ، وسكوت من البرهان ، كما يزعم دعاتهم فى الجامعات والصحافة والمؤلفات المأجورة وكما يتشدق ساستهم ووزراؤهم فى مجالس الأعيان والعامة فى خطبهم الطنانة الرنانة ، لما تعجلوا هذه اللذات المنقوصة والأوطار الفاضحة والشهوات الخسيسة ، مع التبعات الكثيرة والأوزار الثقيلة •

كان جيمس جويس منذ طفولته حراً مسرفاً فى الحرية يأبى الضيم أيا كان مصدره وأية كانت الثمرة التى تعقب احتماله ، لا يحب أن يسمع ولا يخطر بباله أن يطيع وقد نشأ فى بيت يتهالك أهله على الدين ودخل فى كلية داخلية يدير أمورها القسس والرهبان المغرقون فى العقيدة المبالغون فى العبادة المفرطون فى النسك والزهادة ، المسرفون فى التقشف والقسوة على أنفسهم ثم على الأرواح الصغيرة التى وكل تدبيرها إليهم • وقد حاول رئيس تلك الكلية أو تلك الصومعة الجيزويتية أن يخضعه لشىء من النظام،

أو يقيد من حريته ولو بجدع أنفه وقهر إرادته وإذلال نفسه كعادتهم في معاملة صغار الشماسة والتلاميذ ، فلم يفز رئيس الكلية بطائل، ولم يستطع أن يثنى إرادة الصبى جيمس جويس ولم يجد منه إلا إباء ونفوراً .

ولما تخرج الفتى من الكلية الدينية وطلب العلم فى معاهد أخرى أقرب الى الحرية الدينية خلا الى نفسه وعكف عليها وانطوى على سريرته واستقر فى قلبه شيئاً فشيئاً ، ويوما بعد يوم وخطوة فخطوة أن كل من حوله من الناس وكل ماحوله من الأشياء عدوّ له ، وأهله ولا سيما المتدينون منهم ورجال التعليم ولاسيما الغلاة ، ورجال الأدب وبالخصوص الرجعيون والمحافظون والراعون لحرمة الدولة الحاكمة والمدافعون عن الأغنياء وذوى السلطة ، والمنافقون والمداهنون ، وكان أشد مايؤثر فى نفسه الناشئة مايرى من استعلاء الانجليز على أبناء وطنه الأيرلنديين ، وظلمهم إياهم واستعبادهم وعدم الاكتراث لأمنهم وسلامتهم بل حياتهم ولم يكن أيسر على الانجليز من شتم الأيرلندى ولكزه ووكزه بعد السخرية منه والتهكم عليه وإذلاله بكل وسيلة وإنكار مواهبه وغمط حقوقه ومحو فضائله ومحق تاريخه ومحاكمته والقضاء عليه بأقصى

العقوبات لأيسر الأمور وأحقر الهنات .

وكانت هذه المسالك من خاصة الانجليز النازلين بأيرلندا أو المقيمين فيها فترة أو السائحين المتنقلين ، صدى لخطط خبيثة خبيئة دفينة وهى خطة الحاكمين التى أوجبتها السياسة الاستعمارية ، فقد ثبت فى عقول الإنجليز أن الأيرلنديين أعداء لهم نوو أخطار وأنهم ضعفاء فيجب على الإنجليز أن يستذلوهم وأن يمسكوهم فى الفقر والفاقة والهوان والجوع والمرض وفى الدرك الأسفل من الحياة وأن يضطروهم للخساسة من كل ناحية لكسر البقيه الباقية من شوكتهم وإخماد ماكمن تحت رماد العبودية من نخوتهم وهمتهم .

وازداد الأيرلنديون على كر الليالى ومر الأيام هواناً وذلاً ، على الرغم من الفتن والثورات والمؤامرات السرية والاغتيال السياسى والإرهاب والنهضات التى قام بها بعضهم جماعات أو أفراداً فى ايرلاندا وفى بلاد الانجليز نفسها .

على الرغم من تلك الوثبات النادرة والثورات المواتية ازداد الايرلنديون على كر الليالى ومر الأيام هواناً وذلاً واستقر فى نفوسهم أن الانجليز عدو قاهر جبار فيجب على الايرلنديين أن يكبروهم ويعظموهم ويخافوهم ويرهبوا جانبهم ويخشوا بأسهم ،

وأن يتنحوا لهم عن الطريق ويغضوا الطرف لهم ويخفضوا الأصوات إذا خاطبوهم وينحنوا لهم ويثنوا ركبتهم أمامهم ويخروا الى ذقونهم ويركعوا تعظيماً وتفخيماً وتوقيراً ، ثم لايحدثوهم بعد خفض الجناح إلا بما يصور الخوف والرعب والرهبة والإكبار والإجلال والتفخيم .

وكان جيمس جويس يرى هذا كله ويلمسه ويلابسه ويحس به ويشعر دون أن تطمئن نفسه الى شيء منه ، فهو لايستطيع أن يؤمن بدين ينطوى رجاله وأئمته ودعاته تحت جنح المظالم ولا يستطيع أن يرضى بأهل ولدوه وأنبتوه وأنشأوه فى عهد ذلك الظلم القاتل ، وهم راضون بالذل ومقيمون على الهوان ، ولا يقدر على أن يتلقى العلم على أساتذة شبوا وترعرعوا على الضيم وقبلوا أن يلقنوا الأولاد نفس المبادىء التى تلقنوها وأورثتهم الخنوع والخضوع . ثم إنه لا يستطيع أن يؤمن بأن بينه وبين غيره سواء أكانوا انجليزاً حاكمين أو سادة وأعياناً ايرلنديين فروقاً مادية أو معنوية ، وهو من أجل ذلك يبغض الناس جميعا ويزدريهم ويتعالى عليهم ويتطلع الى مثل عليا ويشتاق الى علم أعمق ومعرفة أوسع وأفق أفسح ومجتمع أرقى.

وقبل أن ينعم الله عليه بهذه النعمة فهو يعكف على نفسه وينطوى عليها حتى كأنه يعيش فى عالم مقصور على ذاته ، يعيش على رأس ماله من المعرفة والأخلاق، يبغض الانجليز لظلمهم وعنجهيتهم وصلفهم وغطرستهم ويبغض الايرلنديين لاستكانتهم وذلهم واستخذائهم وقد جاوز حدود المراهقة ودخل فى دور الشباب فكانت عيشته منكرة وحياته جحيماً مستعراً فهو لايطمئن الى أهله لأن بعضهم متدين مفرط فى التدين ، ولا الى رفاقه لأنهم ايرلنديون مستذلون يطمحون الى تقليد السادة من الانجليز طمعاً فى العيش على فتات موائدهم ، والانجليز طغاة مستكبرون ونفس جويس لم تخضع للطغيان والاستكبار وهو من أجل هذا كله ومن أجل إصراره وصحة عزيمته ووحدة نبته على بغض المظالم والثورة على النظام ومباعدة الدين قد فقد حب أهله وعطف أسرته إلا حنان تلك الأم المريضة التى تثقل عليها العلة أحياناً وتدركها رحمة الله حيناً فتخف وطأة الداء ويرفه عليها ، ولحنان هذه الأم وعطفها ومرضها ونزعها ثم موتها وذكراها قصة أى قصة فى كتاب يوليسيز .

وقد انتهى الأمر بجويس الى جامعة ايرلندية فأخذ نفسه بنظامها بعد مكافحة طويلة ومشقة بالغة وعناء لابد منه ليحصل ما

يجب عليه تحصيله ، وما أسرع ماتفوق على رفاقه وتمايز عليهم ، وما أسرع ما أحب الدرس والتعمق ورغب فى التوسع والتبحر ، وما أسرع ما تجلت مواهبه وزاد شوقه الى الإلمام بالعلوم والآداب والتاريخ والفلسفة والسياسة ، ولم يكد يتبحر فى العلوم والآداب حتى فتحت له آفاق جديدة ، وحتى استيقن أن لا مقام له فى هذا المجتمع الايرلندى وأنه مضطر الى أن يتغرب ليحيا حياة ممكنة محتملة ، وقد سبقه الى الاغتراب فى سبيل العلم والمجد والحرية مئات من عباقرة الايرلنديين كانوا فى أوطانهم نكرات وأصفاراً على شمال الأرقام فما كادوا يستقرون فى بلد غريب مثل أمريكا أو لندن نفسها حتى اشتهروا وعلا نجمهم وسطعت أنوارهم وأقبلت الدنيا عليهم أمثال «أكونور» وأوسكار ويلد وجورج مور وفرانك هريس وييتس وجورج برنرد شو ، وكان جيمس جويس يعتقد أنه أذكى وأعلم وأبلغ وأفصح من هؤلاء جميعاً .

ومن العجيب أن وصف هؤلاء النابغين والطموح الى الاستعلاء عليهم كان على مثل جويس أمراً متعذراً وباباً من الكلفة شاقاً وليس قبله من جسر عليه وبلغ الصواب منه وإنما يصفهم ويطمع فى مسايرتهم ومسابقتهم والتفوق عليهم من نال درجة كل

واحد منهم ، ثم سما وعلا وارتقى ثم أشرف بعد ذلك عليهم ، ولا شك فى أن ظاهر الأمر يدل على غرور جويس فى شبابه وافتتانه بنفسه وحسن ظنه بمواهبه والأعجب من هذا وذاك أن أمانيه فيما أراد إتقانه وانقطع له قد تحققت فقد بزّ هؤلاء الكتاب المشهورين جميعا وفاقت مواهبه تلك المواهب التى طاولها وتشامخ عليها وتعمد أن يسابق أصحابها فيحوز قصب السبق على السالفين منهم والمعاصرين له وأثبت أن النبوغ موهبة ربانية واستعداد فطرى وإرادة قوية وعمل شاق دائم ومجاهدة مستمرة وكفاح لا ينى واضطلاع بمشقات لا تحصى كالفقر والجوع والمرض والمناضلة وقوة الأمل وثبات العزيمة بعد انفصام عروة الود للأهل والإخوان والوطن نفسه مادامت تلك التضحية غايتها رفعة الإنسانية وخدمة الوطن وإعزاز الأهل والوفاء للإخوان ولو عن طريق الجفوة حيناً والهجر أحياناً والبعد الى أمد قصير أو طويل .

وهكذا كان شأن جويس كما تنبئنا أقواله وأفعاله وحركاته وسكناته بعد أن استكشف فى لندن وباريس وروما وزوريخ تلك الآفاق الجديدة التى كان يجهلها . آفاق فهم الحياة وهضم الحياة وتصوير الحياة ونقص الحياة وتحليل الحياة بعد كل ما ادخر

واكتنز وأحاط وكدس ورتب ونظم من الصور السابقة أثناء طفولته وفتوته ويفوعه وشبابه فى مدينة دبلين خاصة وايرلندا عامة ، وقد ضم اليها وجمع وحشد بمحض اجتهاده وفيض نور سريرته وشدة حساسيته آفاقاً جديدة مختلفة من الحياة التى يحياها الناس فى تلك العواصم التى ذكرناها والتى صورها كثير من الكتاب من بنى جنسه ومن غير بني جنسه من شعوب مختلفة الطبائع والمدارك واللغات والعواطف من السابقين والمعاصرين نقلت آثارهم وقرأ جويس كتبهم وسمع المتحدثين عنها ولا سيما فى فترة من أغنى وأدسم وأحمى وأقوى وأنشط وأعقد فترات الحياة وأظلمها وأقتمها وأدقها وأضلها ، تلك الفترة مابين السنة السادسة من القرن العشرين الى الأولى من العقد الثانى منه (١٩٠٦ : ١٩٢١) .

هذا النبوغ وتلك الظروف المواتية كانت العنصر الأول وحجر الأساس والركن الركين فى ذلك البناء الشامخ الذى شاده جويس .

أما العنصر الثانى فهذه النفس التى كان يشقى بها فى وطنه وفى اغترابه والتى لم يستطع قط أحد أن يذلها ولم يرض هو أبداً أن يخضعها بالذل . وقد تكلف مع ذلك تكلفاً أشد مشقة على النفس ليستطيع الإقامة على حياته المألوفة حتي لايفطن أعداؤه أو

حاسدوه أو منافسوه الى أن شيئاً من طبعه وعادته وسعيه على رزقه قد تغير وحتى لايحولوا بينه وبين مايسمو اليه من الفرار بنفسه وبزوجته الفتاة الى جو يستطيع أن ينمو فيه نمواً حراً ليس فيه عسف ولا إكراه ، وتلك الزوجة أحبته وعطفت عليه وانطوت تحت لوائه وهى تعلم أنه مظلوم مهيض الجناح مقروح الكبد لما ناله من الحرمان المرّ والصدّ القبيح واللقاء الكريه والقدع المؤلم والمعاملة السيئة والتغافل عن الثواب عن الخدمة والتجهم المتوالى عند كل لحظة ولفظة سواء فى وطنه أم فى البلاد التى رحل اليها وتنقل فيها ببيته وأهله ، فأرعته بصرها وأعارته سمعها وساهمته فى جميع ما وقر فى أذنها بالحب والتخفيف والتهوين تارة وبالجزع والتوجع والتفجع طوراً وضمنت له تلافى كل ذلك بصادق الشفقة وكامل الحنان وخالص الضمير ووعدته صلاح الحال عن ثبات النية وصحة العزم ووفت له ودبرت داره وجمّلت الحياة فى عينه وولدت له أولاداً كأزهار الربيع .

ويكفينا أن نعلم أن جويس رضى بكل ما لقيه من العنت والمشقة فى سبيل الهرب بنفسه الى جو يستطيع أن ينمو فيه نمواً حراً وقد أتيح له ذلك آخر الأمر بعد أن عمل أستاذاً للغة والآداب

فى ايطاليا ، وحاسباً فى مصرف بروما ، ومؤلفاً غير مأجور فى لندن ودبلين وطالب طب لم يفز بطائل بعد طول الدرس فى باريس.

ولكن الذى أفاد جويس ونفعه كانت قدرته على الرضى والأمل وحب الخير ولم يكن قط فريسة للسخط واليأس والجزع فقد أثمر الجهاد العنيف الذى جاهده منذ صباه الأول ليقاوم هذه المؤثرات المهولة التى أفسدت علي ملايين الرجال حياتهم واضطرتهم إلى ألوان من الذل والهوان ، وقد استطاع جويس أن يقاوم هذه المؤثرات ويثبت لهذه المقاومة على ما لقى فى هذا الثبات من خطوب آذت نفسه وجسمه جميعاً ولم ينقطع قط يوماً فى أشد الظروف وأحلكها عن الدرس والتحصيل والتأليف والكتابة نثراً وشعراً والتدريب المستمر والدأب على المران ، كأن القلم فى يده والقرطاس أمامه والمخطوط عن يمينه والمطبوع عن يساره أداة عزف موسيقية وكأنه الموسيقار يوقع الأنغام فى كل لحظة ويبتكر الألحان ويصحح الأوضاع وينسق الأناشيد لئلا ينسى ولئلا تفتر همته وكان منذ صباه ومنذ تكشفت له الحقائق لم يعرف الأمن ولا الرضى ولا اطمئنان القلب كما أنه لم يعرف الشبع ولم يأمن غائلة الحر والبرد

ولم يفلت من سخر الساخرين وعبث العابثين فى يوم من أيام صباه كتلك التى وصفها أثناء إقامته فى البرج المتهدم مع صاحبيه الايرلندى والانجليزى ، وقد كانا عدوين فى ثياب الأصدقاء .

وقد هال جيمس جويس عندما تفتحت عيناه على الحياة فى لندن وباريس تلك الغفلة التى يعيش فيها العالم المتمدن فى الشرق والغرب بالقياس الى تلك الأمبراطورية الضخمة الفخمة المهولة التى سادت العالم مئة وخمسين عاماً وسادت ايرلندا سبعمائة سنة ، فالناس فى الشرق والغرب ولا سيما فى باريس وروما مهد الكثلكة ومقر الدولة الرومانية البائدة ، كانوا يرون بريطانيا نموذج الحضارة ويتخذونها مثالاً للرقى وهى مع ذلك ترى ملايين من الناس يسامون أشنع مايسام الناس من ضروب الذل وأبشع مايقاسون من الخسف والعسف والهوان ، ثم أن تلك الدولة البريطانية لاتنكر ذلك ولا تغيره بل لا تحاول إنكاره ولا تغييره ، ولكن أبناءها الذين هم من أصلابها ومن صميم جنسها يحرزون العزة والحرية والكرامة الإنسانية لأنفسهم ويضنون بها على غيرهم .

وطالما تشدق الأنجلو سكسون بإلغاء الرق الفردى ومحو العبودية وجاهدوا فى سبيل إلغائه وخاضوا غمار الحروب فعلا

باسم تحرير العبيد ووصفوا تجارة الرقيق بأنها جريمة على الإنسانية ، ولكنهم عرضوا ملايين الناس فى ايرلندا والهند وافريقيا وجزائر المحيط للجوع والبؤس والمرض وفرضوا عليهم حياة تضطرهم الى الإجرام وكانوا يضربونهم ويقتلونهم متى شاءوا فما معنى محاربة الرق والقضاء عليه وتحريم البيع والشراء للأفراد من جنس معين ولون بذاته مادامت الأمم أصبحت بأسرها تباع وتشرى وتعرض للهلاك والموت باسم المدنية ؟ ٠

لقد فطن جيمس جويس الى هذه النكبة وحاربها وقاومها وحاول أن يوجه ضربات معوله الى جدران ذلك البناء الشامخ ليهدمه من أساسه ٠

وقد أسعف الله جويس بخصلة كريمه ليست أقل جمالاً ولا روعة من سائر خصاله التى حاولنا الإلمام بها ، وهى طموح هذا الشاب فى صباه ذلك الطموح الذى بلغ درجة الغرور وقد قدر على أن يحتفظ بطموحه وعلى أن يزيد هذا الطموح وعلى أن يبلغ أقصى وأبعد مما كان يطمح إليه من التمايز والتفوق لا بالقياس الى بنى جنسه حتى النوابغ منهم بل بالقياس الى هؤلاء الذين كانوا سادة قومه والذين حاولوا استرقاقه وإخضاعه فلم يستطيعوا ٠ وقد أتيح

له قهر ما قهر من المصاعب وتذليل ما ذلل من العقبات والتخلص من الدنايا والآثام التى كانت تدعوه بإلحاح أن ينضم الى القطيع وقد أتاحت له الأقدار مالم يتح لغيره وأدركته رحمة الله فأسبغت عليه نعمة النبوغ وقوة الخلق حتى نجا وساهم فى نجاة قومه ٠

ونعتقد أنه ليس محض المصادفة اقتران حادثين فى تاريخ واحد وهو سنة ١٩٢١ ، ففى تلك السنة طبع كتاب جويس للمرة الأولى وفيها تحررت أيرلندا بعد سبعة قرون ٠

محمد لطفى جمعه

ذو الحجة سنة ١٣٦٦هـ

أكتوبـر سنة ١٩٤٧م

(١)

لمحـــة عامـــة

بلغت كتابة القصة غايتها فى فن مارسيل بروست الفرنسى عندما فرغ من وضع كتابه « البحث عن الزمن المفقود » ، " A La recherche du temps perdu " لأنه تعمق فى أغوار علم النفس ، وزحف على العقل الباطن حتى استولى على حصونه وقلاعه وبروجه المظلمه الغامضة ، فأنطقها ورفع الأقنعة السبعة عن أسرار الحياة ، وغاص فى سبيل تلك المغامرة بحور الأدب والفن واللغة ، وأخرج ما استطاع من كنوز الدرارى الدفينة ، وعاد الى عالم الكتابة الأرضى كما يعود الغواص من قيعان المحيط ، محملاً بالآلىء ، وقد أشرف على الهلاك .

ولم يكن القراء فى القارات الخمس ، ولا النقاد فى حواضر أوروبا وأمريكا يدركون ، ولا المنجمون يدرون أو يتكهنون بأن نجماً آخر قد أشرق نوره فى أفق الأدب واللغة والفن ، وأن هذا النجم المشرق من غرب أوروبا – وهو ليد أمة مظلومة مغلوبة على أمرها

مهيضة الجناح ، ذليلة الجانب ضربت عليها ذلة المسكنة ، وهوان الاستعمار والاستعباد - سيطلع فى الأفق الأوروبى ، ويصبح كوكباً لامعاً بل قمراً منيراً بل شمساً تخطف بنورها الأبصار ، وسوف يفوق بريقه والتماعه وإشعاعه كل من سبقوه فى الأدب والفن واللغة، ولاسيما فى أدب القصة . وأن مارسيل بروست وغيره قد أمسوا بعده عيالاً عليه ، وأطفالا بالنسبه له ، إنه مارد جبار وعملاق وجبل شامخ وبحر عميق ، بل محيط المحيطات فى الأدب والفن واللغة وفهم الحياة ، وتصويرها ونقدها وتحليلها .

هذا هو جيمس جويس مؤلف كتاب عولس ، المتوفى سنة ١٩٤١ بعد حياة كلها تعذيب وتشريد ومطاردة وكفاح وآلام واضطهاد فى وطنه وفى سائر الأوطان التى حط فيها رحاله . ومايزال جيمس جويس مجهولا فى الغرب والشرق إلا من القلة النادرة الذين يطيقون قراءة كتبه وأدبه وأسلوبه ويصبرون عليها .

واعلمْ أرشدك الله وإيانا أن كل ما تقرأه مكتوباً عنه عند العرب والافرنج ، فى المجلات والصحف والكتب ، هو تحسيس ومحاولة ونقل وتقليد واصطناع ومفاخرة ، ماعدا الذى كتبه القاضى جون ولزى الأمريكى الذى أصدر حكمه فى ٦ ديسمبر سنة ١٩٣٣

بإباحة طبع كتابه ونشره بعد مصادرته ومنعه وإحراقه من سنة ١٩٢١ الى صدور هذا الحكم الحاسم العادل قبل وفاة المؤلف بسبع سنين ، لأن القاضى النابه اضطر لقراءة الكتاب من أوله لآخره مرتين ليصدر الحكم العادل فى حق الكتاب وصاحبه .

فما أقل عقل الذين يحاولون أن يفهموا جيمس جويس دون أن يقرأوا كتابه ، وما أشد غفلة الذين يكتفون بقراءة نبذة لقيطة أو مقالة مفتعلة ، يحمل كاتبها على الرجل بتهمة المخالفة للدين والأخلاق الفاضلة ، أو الطعن فى دولة قوية بينها وبين أمته ثأر .

لهؤلاء نقول ليس فى سبيل الاطلاع على الأدب الصحيح وإدراكه على حقيقته معجزات ولا كرامات ، وليس طريق الدرس والفهم لهذه الأعجوبة الأدبية الفذة مفروشاً بالورد ، بل لابد من التعب والسهر ومداومة الدرس ، حتى يأتى القارىء الناقد على آخر كتاب عولس وحتى يفهمه ويهضمه ، فإنما لذة الأكل تكون بعد تحريق الأيدى والانتظار الطويل والتعب العنيف .

وبعد فهذا كتاب واحد لا عدة كتب ، والعناد الذى يبذله الراغب فى درسه المشوق الى فنه لن يتكرر ، والتعب الذى يقضيه لن يذوقه مرتين ، ولكن الشبع ، ولكن الطعم ولكن المسرة التى

تحوزها بعد قراءته لاتزول من نفسك وعقلك أبداً .

وحرام على من يعيش فى هذا الزمان ويعرف اللغة الانجليزية معرفة حسنة أن يحرم نفسه من قراءة هذا الكتاب ، بل إن هذا الكتاب خليق بأن يتعلم الرجل فى سبيل قراءته تلك اللغة إن كان يجهلها ، فإنه كفيل بحسن جزائه على كل ما أنفق من جهد ومال وأيام فى سبيل الوصول اليه .

إن هذا الكتاب متحف بل كنز بل مدينة ، بل كوكب ، وإن وصف المتحف والكنز والمدينة والكوكب لايغنى عن رؤيتها قطعة قطعة ومكاناً مكاناً ، وركناً ركناً ، وصفاً صفاً ، بل شعاعاً شعاعاً فإن فى دقائق المخلوقات ولا سيما مخلوقات العقل العبقرى وحياً لايصفه القلم واللسان ، وقد تفتن العالم قطعة فخار أو مرمر ولا أقول درة فى تاج فيجن بها ويعمى عما فى المتحف أو الكنز أو التاج أو المدينة ، كما حدث فى متحف يونانى رومانى زرته عرضاً فرأيت فيه رأس فتاة مجدوعة الأنف- وأسفاه- مغمضة العينين ، ولكننى لا أنسى ما حييت الجمال الإلهى الذى يشع من فتنتها ، وهكذا كانت حالى فى الكتب والمتاحف والمدن ، بل فى هذا العالم الأرضى أطوف ما أطوف وأقرأ ما أقرأ طوال الأيام والليالى ، فيقع

نظرى على شىء واحد فأهيم به وأحلم كما همت بالجوكوندا وتمثال الزهرة فى باريس ووادى الأرنو فى فلورنس ، ومحراب المسجد الأموى فى دمشق وهكذا ..

هذا الكاتب جيمس جويس الايرلندى أصلاً الكاثوليكى ديناً ، العالمى موطناً، الهارب من لكاعة مواطنيه ، الفار من ظلم حاكميه ، الثائر على خمول والديه ، الناقم على الناشرين والطباعين والوراقين والسراقين الذين استغلوه ، المحتقر لناقديه والحاقدين عليه ، أحببته قبل أن أقرأ كتابه ، فلما قرأته فى مدى أربع سنوات على شاطىء البحر ، وفى سكون الليل وفى قيظ النهار ، وفى وحدة غرفتى ، استغنيت به عن كل كتاب فى الأدب والفن فأحببت مؤلفه مائة مرة.

إنه أحد ثلاثة أو أربعة فى تاريخ الأدب الإنجليزى ، وهو بلا ريب فذ من أفذاذ العالم فى كتابين ، الأول عولس الذى لم يكتب مثله غربى ، كما قصر عنه الكثيرون من نوابغ العالم أمثال شكسبير وجوته وملتون ، لأنهم لا يملكون زمام لغتهم كما ملكه هو ، أما الثانى فهو « حياة الفنان فتى » وهو ليس موضوع بحثى.

ومن درس الكتاب الأول (عولس) يقول تارة مع تورك Turk

فى كتابه على العبقرية « النبوغ موهبة ربانية ، يعطيها الله من يشاء » .

ويقول طوراً مع بوفون « ليس النبوغ إلا صبراً طويلا » .

ويقول العاجز كاتب هذه الأسطر « النبوغ موهبة إلهية يهب الله صاحبها الصبر الطويل حتى ينجز عمله ويشعر بلذة العمل أثناءها » .

وقد قال جويس عبارة عجيبة « على من يريد أن يفهمنى أن يقف حياته على دراسة كتبى » ، فلما قرأتها قبل أن أقرأ كتاب عولس ، داخلنى ريب فى غروره وانخداعه بنفسه وامتلائه بذاته وكبريائه ، ولكنى بعد أن قرأت تمنيت أن أعطى من الأعمار ما تمناه المتنبى لسيف الدولة ، فأدرس جويس عن أهل مصر جميعاً ، لأعرفهم بأخيهم وابن عمهم هذا .

لم يكن فى اللغة الانجليزية أو غيرها من آداب أوروبا أدب حى كما نفهمه اليوم ، حتى ظهر كتاب عولس وإننى لأضحك ساخراً كما ضحك القاضى الأمريكى (الذى مايزال فى نظرى العمدة والثقة الوحيد ، لأنه قرأ الكتاب مرتين مرغماً مضطراً بحكم صنعته وواجبه وضميره) ، أضحك ممن يعد « عولس » كتاباً بذيئاً ،

فيؤاخذ الرجل على حرية فكره ، ومواجهة الحقيقة ، والجهر بكل مايقوله الناس ويشغل بالهم ، فى صحوهم ونومهم .

فلتقرأوا عولس قراءة فنان إن أردتم تقديره وتعظيم مؤلفه ، ودع سواك يقرأه قراءة البلهاء المنافقين ، إن أردت أن تصبّ على رأسه جام غضبك وغضب المرائين والمتنطعين والخشب المسندة .

فسيّان عند جويس حياً وميتاً وعند المعجبين به ممن فهموه هذا أو ذاك ، ولكن أهل الفطنة والذوق السليم ، يضحكون منك إن رأيت فى النظر الى تمثال فينوس (الزهرة) الذى ذكرته معصية تلقى بك فى سقر بينا أرى ويرى غيرى فى النظر الى الحقيقة العارية ثواباً وتمجيداً لله وللعبقرية ، وتسبيحاً وحمداً على نعمة الخلق والتصوير تدخلنى الجنة .

والجمال والفن الرفيع والأدب الحى عندى رزق كريم ونعم ومنح ربانية سواء أكانت وثنية أم مسيحية أو إسلامية .

ثم إنى أضحك ساخراً ممن يعتبر عولس كتاباً فيه إلحاد وهرطقة ، لأن جويس خلع نير العبودية الجيزويتية ، لا العقيدة المسيحية الصحيحة ، فصرح فى نبذ يسيرة نادرة عن الصراع الذى نشب فى سريرته بين الشخصية الفنية المتحررة والشخصية

الدينية المكبوتة ، وفرحه بالانتصار على القوة الغاشمة ، والمؤامرة العظيمة الغادرة التى كان يدبرها عليه فى صباه عميد كلية بلفدير الجيزويتية الايرلندية ، لانتهاب روحه واستخلاصها لخدمة الكهنوت.

فهذا المظهر الإلحادى ، الذى بدا فى بعض نبذ عولس لا يدل على ردة جويس ، ولكن يدل على نضجه الروحى ، وكفاحه فى طريق الدين الصحيح من ناحية وفى طريق الفن من ناحية أخرى .

وإنى لتعرونى هزة ، كلما فكرت فى إمكان نجاح مؤامرة بلفدير الكهنوتية ، وضياع ذلك الفنان النابغ على الدنيا ، إذا تغلب الدين على الفن فى شخصية جويس ، وكان هذا ممكناً بل مرجحاً لولا أن عميد الكلية كان متعصباً ومتشدداً لايفهم الطفولة ، ولايعذر النفس الناشئة فشاء القدر أن يكتب جويس وهو تلميذ حدث موضوع إنشاء ، فيه بعض التحرر والانطلاق ، فاتهمه العميد بالكفر وألزمه «بالاعتراف» بكفره ، ثم هدده بالويل والثبور ووصف له فى خطبة منبرية كنائسية أهوال الجحيم التى تنتظره وصفاً تقشعر له أبدان الكبار فضلا عن الأطفال ؟! . فتقضى هذه الخطبة الرنانة على مابقى فى نفس الفنان الصغير والأديب الناشىء من

حب الدين والإيمان بالعذراء والمسيح والثقة بالإنجيل ، وهو دين رحمة وحنان وعطف ومودة ، فيعصى جويس ويستكبر ويصيح صيحة باللاتينية حين أبى أن يخدم العرش الإلهى « لن أخدم لن أخدم » « " Non servian Non servian " .

فقضى الكاهن بسيف التعصب الأعمى على روح الدين وذبحها ، ولطخ سيف الشدة بدمها ، فوقع على رأسه ، ونجا الفن الرفيع والأدب العالمى فى نفس العبقرى جيمس ، فانطلقت تلك النفس من قيودها وتحرر العقل من نير الظلم الغاشم ، والتمس الشاب سبيل العلم والأدب فى الجامعة الحرة بعد أن تمرد وثار على ثقافة أمته ، وعلى نهضة إحياء اللغة الأيرلندية التى قام بها رجال فضلاء من مواطنيه يكبرونه سناً واختباراً وتجاريب ، وسعى الى الفرار من الدين والثقافة الأيرلندية والوطن الأيرلندى المكبل بقيود الاستعمار الانجليزى ، سعى الى الفرار ما استطاع سبيلا ، والتمس النجاة فى آفاق أرحب وأخصب وأنور وأبهى فى القارة الأوروبية ، فى فرنسا وإيطاليا وسويسرا مقر الجمال والأدب الصحيح والفنون الرفيعة ، ورشف من مناهلها ثقافة لاتحد بلغة ولا وطن ولا جيل ، وأقبل على التعليم ففشل فى طلب الطب ، ثم أقبل

على اللغات فأتقن عشراً منها قديمة وحديثة وأقدم على الحضارات والآداب العالمية البائدة والحية والمعاصرة ، والشرقية والغربية ، فاستساغها وتمثل ثقافتها وهضمها .

وهذه الصورة الباهرة تجدها فى كتابه الأول « صورة الفنان شابا » The pirtrait of the artist as a young man .

فهذه الثورة لم تذهب بإيمان جويس ، وإن ظهرت بعض آثارها فى كتابه عولس ، فكان يغضب على من يمتهن الدين فى حضرته ، وعلى من يعيب اللغة الأيرلندية أو الجنس السلتى بمسمع منه ، وبقى نادماً طوال حياته لأنه عصى مشيئة أمه المحتضرة ، عندما طلبت إليه أن يركع بجوار فراش موتها ، ويصلى الى الله من أجلها فأبى ، ولكنه شعر بعد ذلك أنه أخطأ فى حقها ، وفى حق حنانها وحبها ، وظل شبح الأم يطارده الى أن لحق بها بعد الخمسين من عمره .

وتجد أثر ذلك الندم الصادق فى كثير من فصول كتابه ، وأغلب الظن أنه كان ندم الابن على ما سببه الحزن لأمه أكثر منه ندماً على عدم الركوع فى صلاته، وإنه لعمرك شىء واحد ، فإن الأم المحبة صورة الله على الأرض ، وقديماً قال رسول الله « الجنة تحت

أقدام الأمهات » ولم تكن مثل هذه العاطفة ببعيدة عن قلب جويس .

هذان هما المأخذان اللذان أخذهما بعض المتنطعين على جويس ، مخالفة الآداب ، والتصريح بأمور يجب فى وهمهم أن تكتم عن جمهور القراء خوفاً على فضيلة الحياء ، أو حذراً من الإباحية والثورة على بعض المظاهر الجيزويتية ، التى تمتّ الى الكثلكة ، لا على جوهر الدين المسيحى نفسه .

وهذان المأخذان قد فحصهما القاضى الأمريكى جون ولزى الذى أصدر حكمه بجواز طبع الكتاب ونشره وانتفاع صاحبه ببعض جهوده ، وقد ضرب القاضى الحصيف العادل باعتراض السخفاء عرض الحائط ، وقال « إن الحرية التى انتحلها جويس تفيد الآداب والفضيلة والدين ، ولا تضر بأحد من القراء ، وإن هذا الكتاب ليس موضوعاً للعذارى ولا مفروضاً على طلاب المدارس ، ولا مصنوعاً للأرامل المتعنتات أو العوانس اليائسات ، إنما هو عمل فنى جليل القدر ، خالد الأثر ، صعب المنال بعيد الغور على أوساط الناس وعلى كثير ممن هم فوق الوسط ، ومن وصل الى درجة من الفهم حتى يملك زمامه ، ويحيط بأدبه لفظاً ومعنى وشكلاً وموضوعاً

وعرضاً وجوهراً ، ويتاح له الوقوف على أسراره ورموزه، من يصل الى هذه الدرجة ، لايخشى على عفته ، أو دينه أو عرضه أو شعوره أو خلقه ، من مطالعته واقتنائه » ، أى أن القاضى الأمريكى الحديث رجع الى قول الإسلام « لا حياء فى الدين » ، ولا حياء فى العلم والأدب والفن ، وأباح القاضى الأمريكى فى الثلث الأول من القرن العشرين لجيمس جويس ما أباحه الدين والعرف والفن لكبار كتاب الأدب العربى وشعرائهم فى القرنين الأول والثانى للهجرة.

إن الذى يقرأ عولس ويدركه إما أن يكون فتى وإما كهلاً ، فإن كان كهلاً فقد فات عهد الغليان والتأثر بالألفاظ والصور الذهنية وتحرر من قيود الحياة الجنسية لكثرة ما قارف من ناحيتها المكدرة ، أو المضعفة أو المملة ، وإن كان فتى قادراً على فهمه ، فهو فى درجة من النضج تحميه وتقيه وتكسبه مناعة لا شك فيها .

أما النساء ، فقد أوتين بحكم غريزتهن من الإدراك والتعمق فى تلك المسألة مالم يصل اليه رجل مهما بلغ علمه ، لأنهن أمهات العالم ، وتكفى الإشارة هنا الى أخلاق مدام ليوبولد بلوم بطل الكتاب الموصوفة بأقصى إسهاب وأعجب أسلوب فى المناجاة الذاتية من الصفحة ٦٩٤ الى آخر الكتاب فى ص ٧٣٥ ، ونعدها

أبلغ وأقوى وأبهر ما كتب فى اللغات الأوروبية قديماً وحديثاً ، فى دلالتها على النفس البشرية ولا سيما نفس المرأة ، فليرجع اليها من يشاء فى نسخه المطبوعة الصادرة سنة ١٩٣٠ بمطبعة شكسبير وشركاه ١٢ شارع أوديون بباريس أو فى مطبوعاته الحديثة فى سنوات ١٩٣٤ ، ١٩٤٢ بنيويورك .

بيد أن جويس لم يكن محروماً من الحب ، فقد تزوج فى العشرين من عمره بفتاة أحبها ، وهى التى صحبته فى أسفاره (قرينته نورا) وولدت له ذكوراً وإناثاً وملأت بيته بهجة وحبوراً ، وسهرت على راحته وسعادته فى وسط بحر خضم من الشقاء والكفاح فى سبيل الرزق والمجد .

ولكن جويس نفسه كان بطبيعته جذاباً للجنس اللطيف ، ومحبوباً من النساء لرقته وحسن عشرته ، وكان مطموعاً فيه منهن ، سواء أكن عذارى أو ثيبات ناضجات ، يعجبن بشخصه وبمرحه وحضور بديهته وبفنه ، وإن كان معظمهن لايدركن كل مايكتب أو يقول ، ومنهن من سارعن الى نجدته بالمال والنوال فى منفاه ، وهو أحوج مايكون للعون ، وفى مقدمتهن « إيدا روكفلر » من أسرة صاحب الملايين الأمريكى الشهير ، ثم ميس واينر صاحبة مجلة

«ايجويست» أمدته بالمال وشجعته على نشر فصول من كتابه فى مجلتها ، وتحملت أذى المحاكمة والمصادرة والغرم والخسران فى سبيل إذاعة أدبه ونشره ، ومنهن من أضفن حب الهوى الى الإعجاب ، وجمعن بين الافتتان به ، وبين التشيع له ، والدعاية باسمه والإشادة بقدرته ومواهبه ، مثل جيرتى ، ومسز كورفيك التى طبعت كتاب عولس على نفقتها فى باريس ، وهى لاترجو من ورائه ربحاً بل تتوقع ضياع المال ، وإتلاف النسخ المصادرة حرقاً أو غرقاً أو تمزيقاً .

وجاءه الحب النسوى طائراً على أجنحة كأجنحة القطا من امريكا عبر المحيط تحمله قلوب فتيات شهيرات بالجمال والأدب ورفعة النسب ، ميس اندروس ، وميس هيب وميس إثيل هارب فقد أحببنه على البعد ، وهمن به هياماً شديداً ، وتكبدن مشقات السفر اليه حتى اجتمعن به ، وأنسن بلقائه ، وهن يعلمن أنه زوج امرأة جميلة ورب أسرة كبيرة .

ولا يمكن أن يخلو هذا السرب من ربات الجمال والحجال والأدب الرفيع ، والمال الوفير ، والنسب العالى من واحدة أو أكثر من ذوات الحياء والخفر والاستمساك بالفضيلة ، كانت تثور على

جويس أو تنفر منه أو تعرض عنه ، أو تكتم هواها لو أنها رأت أو شعرت أو ظنّت أن كتاب عولس يهتك أستار الفضيلة ، أو يخدش أذهان العذارى أو يعدى القارئات بداء من أدواء الرذيلة أو النقص الخلقى ، أو يعرضهن لسوء الظن .

وقد كان الرأى العام الأمريكى فى صفه قبل أن يصدر الحكم فى مصلحته ، ولذا خسرت جمعية أنصار الدفاع عن الفضيلة (!؟!) قضيتها التى رفعتها عليه خسارة مجلجلة فرح لها كل الأدباء فى القارتين ، وأعادت الى ذاكرة النقاد القضية التى رفعتها النيابة العامة على جوستاف فلوبير عقيب نشر كتابه العظيم « مدام بوفارى » بتهمة أنه خدش الحياء وأساء الى نظام الأسرة ورباط الزوجية المقدس ، بوصف الحب المكشوف فى حياة زوجة صيدلى تهتكت فى عشق شاب من الأعيان ، فأصدرت محكمة باريس العليا حكمها بالتبرئة والتهنئة ، وأنبت النيابة العامة على قلة فهمها وعدوانها على كرامة الأديب الكبير ، « أنظر نص الحكم فى آخر كتاب مدام بوفارى » .

فما أحوج المجتمع الحديث الى قاض عادل جرىء يخزى شياطين هؤلاء الأدعياء المغرضين المنافقين والمتظاهرين بالتمسك

بالفضيلة ، وهم يخمعون ويظلعون خلق القدماء فى النود عن الخلال المصطنعة كالجِمَال العُرْج ، ولم تكن جمعية أنصار الدفاع عن الفضيلة سوى جماعة مزيفة من هذا النوع ومن الجمال الجرب التى ترمى الفضلاء بدائها .

ونختم هذه النبذة فى الدفاع عن جويس بالكلمة الحكيمة القائلة « كل شىء يعد ظاهراً أو دنساً ، لا بحسب نصه أو لفظه أو معناه ، ولكن بحسب الأذن التى تسمعه ، والذهن الذى يعيه ، فكل معنى يحسب طاهراً نظيفاً للذهن الطاهر النظيف وعلى نقيض ذلك للذهن الملوث القذر » .

(٢)

اللغة والأسلوب الجديد عند جويس

كان جويس من شوامخ أعلام البيان فى الغرب قديماً وحديثاً، بل علم البيان والفصاحة والبلاغة ، وإمام اللغة فى النصف الأول من هذا القرن العشرين ، ولم يبلغ شأوه كاتب ناثر فى إحدى اللغات الأوروبية ، ويمكن مقارنة بعض الفصحاء به فى عرض التدليل على قدرته ، فنذكر فى الأقدمين هومير وفرجيل ورابليه وفى المحدثين جوته وشيلر وفولتير وأصحاب المعلقات والجاحظ عند العرب ممن ملكوا زمام لغاتهم ، لأن جويس كان يكتب ويروض الألفاظ ويطوعها فيقرنها الى نير الفكر ويخضعها ويحسن تكييفها ، ويخزها ويهمزها حتى تلين وتطيع ، ويكرهها حتى تخضع لأشق أعماله وأخطرها وأندرها ، والعمل الشاق هو التعبير الدقيق فإن أعوزته ألفاظ للدلالة على معنى دقيق فإنه يسك الألفاظ ويضربها كما تسك النقود وتضرب الدراهم فتخرج الألفاظ من مصنع فكره حاملة رسمه واسمه كما تخرج مسكوكة بأسماء الدول ولكنها

الدنانير .

وكان من الكتاب من يحفر بلاط الغرفة بقدمه أثناء البحث عن اللفظ وتطويعه وسبكه وإدماجه وصفه ، وتفريغه وتنزيله وتركيبه ، كتنزيل الصدف والفسيفساء وتركيب فصوص الجواهر فى الحلى ، وممن اشتهروا بهذا جوستاف فلوبير ، ولا سيما فى كتاب «سلامبو» الذى بعثت به دولة قرطاجنه « القرية الحديثة » بعد أن اندثرت وفنيت ، ولم يتبق بعد عينها أثر .

أما جويس فكانت معاناته باطنية ، لاتظهر للأعين ولا يشعر بها أحد من معاشريه ولا تكدر صفوه أو صفو أهله وخلانه كالإلهام ينزل عليه فى أى وقت من أوقات الليل والنهار ويواتيه فى هدوء وسلام حتى صك ألفاظاً جديدة تحمل اسمه وطابعه وتنطق بشخصيته حتى استغنى عن أوائل الأسطر وعلامات الوقف والوصل والفصل والاستفهام والتعجب ، وهى الأدوات التى لايستغنى عنها كاتب أو قارىء حتى تكون صفحات من كتابه كأنها صفحة مكتوبة بالكوفى القديم ، مبهمة غير معجمة ، كما صنع فى صفحة ٣٦٥ وما بعدها ، فى وصف مستشفى الولادة .

وإنك على هذا كله تفهم وتدرك ولا تتلعثم ولا تتوقف ، ثم

تساءل نفسك فيم ولم اخترع الناس تلك العلامات التى لا لزوم لها ولا ضرورة ، بدلاً من أن نقول كيف ولم استغنى هذا الكاتب عن تلك العلامات وهى من ألزم اللزوميات للفهم ؟ ، وهكذا فعل فى مناجاة زوجة بلوم التى ذكرناها وفى فصول أخرى كثيرة .

مع هذه الثقة بالنفس والتمكن الذى لا يدانيه تمكن ، لم يكن يظن أنه بلغ الغاية وأوفى على النهاية ، ولم يكن دعياً ولا ثرثاراً ، ولا مادحاً نفسه ولا معجباً بفنه ، ولا مباهياً بسعة اطلاعه ، بل كان يرمى أبداً الى الإحسان وينظر الى عمل أمس بعين السخط حتى ينتهى من عمل اليوم ، ويرمى الى غد ليبلغ الأمنية ، والكمال يجرى أمامه كالسراب ، ويداعبه حتى يوشك أن يبلغه .

ودليلنا على ذلك أنه بدأ بقصص « أهل دبلين » ثم صاغ «حياة الفنان فتى» ، وقد سلخ فيهما عشر سنين ، ثم تفرغ لعولس ، فقضى فيه خمس عشرة سنة من وقت التفكير فيه أو غرس البذرة الى تمام النضج وجنى الثمار ، أى من سنة ١٩٠٦ الى سنة ١٩٢١، ولكن السنوات التى طواها فى التأليف كانت سبعاً من سنة ١٩١٤ الى سنة ١٩٢١ أى بعمر الحرب الكوكبية الأولى ، وقد تنقل خلالها بين مدن شتى منها تريستا وزوريخ وباريس ، ومعنى هذا أن

فنه شغله عن أحداث الحرب العالمية أو أنه اعتبرها ظاهرة طبيعية ونتيجة حتمية لخطة المظالم التى سادت وتحكمت .

وبعد أن نشر كتابه ، لم يهدأ ولم يسكن ، وقد ضعف بصره، وتحمل عشر عمليات جراحية فى عينيه فى مدى ثمانية أعوام ، ولكنه داوم العمل ونهج نهجاً جديداً فى التأليف ، فوضع خطة لتأليف كتاب فى نهضة الجماعات والأبطال أمثال قيصر ونابليون ، وفرغ من قصته « فينا جوس ويكس » و« أنا بيلا ذات الأنهار» وقد قرأت الكتاب الأخير وفيه اسم مائة وخمسين نهراً فى أنحاء العالم حشدها فى بضع وعشرين صفحة ، كما جمع أوسكار وايلد أسماء الأحجار الكريمة فى دوريان جراى .

ونعنى بهذا الاجتهاد والدأب ، وقد شارف على الستين من عمره (سنة ١٨٨٠- سنة ١٩٤١) ، أن جويس كان من القائلين مع الناقد الفرنسى الكبير اميل فاجيه «الغافل منا نحن معشر الأدباء ، من يظن أنه بلغ الذروة ، وأن آراءه وثمار جهوده مؤكدة الخلود والدوام » .

قيل إن جويس كان يحب النبيذ ولا سيما الأبيض الخفيف منه ، وتلك خلة ورثها عن والده ، وهناك صلة أخرى بينه وبين بنت

الكروم غير شرابها ، فكما يشقى العنب ، فينزع عن صدر أمه ، ثم يعصر ويكبس وقد يداس بالأقدام ، ويغلى فى الخوابى محتقناً مغيظاً محترقاً من ألم النار اللاذعة ليرقد خمراً هادئة فى الدنان والطاسات والأقداح ، كذلك حظ الكتاب والشعراء ، وكذلك جويس ، نزع من أحضان أمه الحنون ، ثم خرج من أرض وطنه ، وهام على وجهه فى القارة الأوروبية ، غريب الوجه واليد واللسان ، وأصابته الفلاكة وأدركته حرفة الأدب وطارده الضنك ، ولحقه الجوع والعرى حتى كان يرقع سراويله وهو موظف بروما ، ولايخلع سترته لئلا تظهر عورته ، ويبيت على الطوى ، ويجوب الطرق ليلا ونهاراً على قدميه سعياً فى طلب الرزق القليل بمحض كده ، وهو يعول أسرة فيها زوجة فاضلة وأطفال رضع كزغب القطا .

وهذا كله بمثابة العصر والهصر والكبس والدوس والدهس تحت الأقدام والغليان فى القدور فوق أتون الحياة وحر نارها اللاذعة المحرقة ، حتى ذاب ونضج وطاب فلم يخرج ذلك الكتاب بل كان هو الخمر التى أعدت للشراب .

ففنه إذن ذوبان روحه ، وأدبه عصير عقله ، ولم يبق بعد إلا صورة اللحم والدم وهى تفل العنب وحثالة العنب التى يلقى بها ،

وهكذا تحطم الهيكل الانسانى كما رأته ووصفته لنا السيدة استر.ا.د فى شوارع زورويخ سنه ١٩٣٩ ، كفيفا تقوده إحدى كريماته ، كما كانت انتيجون تقود والدها أوديب فى خرائب كولون بعد كارثته .

أليس لكل عبقرى مأساة يغزل القضاء خيوطها ، وتنسج الأقدار سداها ولحمتها ؟ لقد كانت حياة هذا الأديب العظيم عملا دائباً ، وحركة دائمة ، ومعاناة مستمرة وكان يعتبر العالم كله وطنه والناس كلهم إخوانه وأبناءه ، نشأ فى ايرلاندا وطاف بلندن وباريس وروما وأقام فى تريستا وزوريخ واحتضنت امريكا أدبه وفنه وحكم قضاؤها بوجوب نشر كتابه الأكبر وحافظت محاكمها على حقوقه فى تأليفه ، فذاق حلاوة العدل والرحمة من سنة ١٩٣٤ الى سنة ١٩٤١ ، أى بعد أن جاوز الخمسين من عمره ، ولم يمت بغيظه وكمده كما مات قبله مئات من النوابغ فى أنحاء العالم .

وقد حارب أثناء حياته الظلم والعسف والشر ، ونصر الحق والعدل ، ودافع عن وطنه وقومه ، ووقف فى وجه دولة عظمى كانت منفردة بالجبروت ، وحاز قصب السبق فى اللغات والآداب والفنون ، واستخدم علمه وأدبه وفنه فى نصرة مبادئه مضحياً بكل شىء .

أى نعم بلى ! كان جيمس جويس كاتباً أديباً شاعراً ناثراً مفكراً مؤلفاً، منقطعاً لفنه مقدساً لأدبه ملازما لمحرابه عابداً زاهداً، عاكفاً على قبلته، قائماً يقظان، لحفاظ تراث لغته ولغة أعدائه .

أعرض عن اللغة الأيرلندية القديمة وهى أعز لسان عليه لأنها رمز قوميته ، وأقبل على الأنجلو سكسونية ، لا حباً بها ولا تمجيداً لها ، ولا بغضاً لوطنه ولا حباً بالمستعمرين المحتلين الطغاة ، ولكن خوفاً علي ايرلاندا إن هى بالغت فى إحياء لسانها القديم الميت ، أن تنقطع الصلة بينها وبين الحضارة الحديثة وبين الناطقين بالانجليزية وهم أربعمائة مليون من الخلائق فى الجزر وأمريكا واستراليا وزيلاندا وشرقى افريقيا وجنوبها .

وهو يحب لوطنه مسايرة الحضارة لا الوقوف والجمود ، والفرح بالحرية السياسية والاستقلال الذاتى ، ثم المخاطرة بأن تمسى ألسنة متعفنة كالغدير الراكد أو الجيفة المنتنة .

والبرهان على وطنيته الحارة المبكرة أنه مذ كان فى التاسعة من عمره ، وشهد خيانة توماس هيلى لزعيمه بارنيل ، نشر كتيباً عنوانه « حتى أنت يا هيلى » دافع فيه عن الزعيم الأيرلندى الكبير بارنل واتهم فيه هيلى بالخيانة الوطنية لإسقاط الزعيم ، ولم يخل

كتابه عولس من النزعة الوطنية ، فذكر اسم بارنيل وقرنه بالتمجيد مرات ، وسجل ماذاع عنه من الأساطير التى تلت وفاته ، فمن المخلصين له من قال إنه لم يمت وأنه حى يرزق وسوف يعود الى وطنه ، ويعلى شأنه ويتم نعمة الحرية عليه .

وذكر جريفيث زعيم الشين فين وغيره من المعاصرين ، وشاد باسم « توم كيتل » أستاذ الأدب بجامعة دبلين ، وكان سياسياً ايرلندياً يرجى له مستقبل مجيد بأن يخلف بارنل ، لولا أن أدركته المنية وهو يقاتل فى الحرب العالمية الأولى فى صفوف الانجليز جرياً وراء وعدهم لريدموند زعيم الحزب الوطنى الأيرلندى بأنهم يردون لأيرلندا حريتها بعد انتصارهم على المانيا ، وكان وعدهم كذبا ومينا، وعهدهم خبثاً وغدراً ورياء .

وقد أفرغ جويس جعبة تهكمه ونثر سهام سخريته على الانجليز ، وناصب ملوكهم العداء ، وفضح بعض ساستهم وسفرائهم فى قصة أهل دبلين ، The Dubliners وفى عولس ، وذكر الملكة فيكتوريا والملك ادوارد السابع جهاراً فى مواطن لا تليق بمقام الملوك فى حياتهم ، ولكنه حاكمهم بعد موتهم وبعد أن صاروا فى ذمة التاريخ ، فلما رفض الناشرون والطباعون جمع أحرفها

وكلماتها جبناً وهلعاً ورياء ، كتب لكاتم أسرار البلاط الملكى يستأذنه فى النشر فأجابه الأمين الأول فى بلاط جورج الخامس بما يرضيه ويقنعه ، وبعد أن تألب عليه رجال الدين والحكم والمال وجمعية البنائين الأحرار وحاربوه بأسلحتهم ، فاز فى النهاية بنشر كتابه .

وإذن لم يكن عنصر الوطنية ينقصه أو يعوزه ، ولكنه كان يخشى إحياء اللغة القديمة على حياة الأمة وتعطلها وتأخرها وتقهقرها وجمودها .

أما انقطاعه لفنه ، وتقديسه لأدبه وقدرته على حجب شعوره وحجز إحساسه عن العالم الخارجى ليستكمل صناعته ، ويعطيها حقها الأعلى ، فمتجلية فى حجزه باختياره على نفسه وتقييد عواطفه ، فلم يشترك فى الاكترات للحرب العالمية الأولى، لأنه بدأ فى أول أعوامها بتأليف « عولس » وانتهى منه بعد نهايتها بقليل ١٩١٤ - ١٩٢١ .

فيبدو للجاهل والحاسد والحاقد والغر الغافل ، أنه محجوب الحساسية الاجتماعية ، وأنه لا يشارك قومه ولا غيرهم فى صغيرة ولا كبيرة مما حدث حوله فى تلك السنوات السبع حتى إنه لم

يكترث لمصرن سيركيزمنت الايرلندى الوطنى، أحد سفراء بريطانيا فى المانيا وقد حوكم فى يوليو سنة ١٩١٦ فى لندن وحكم عليه بالإعدام ، بعد أن دافع عن نفسه دفاعاً بليغاً مجيداً ، وكانت تهمته أنه حاول إنزال أسلحة وذخيره ألمانية على شاطىء ايرلاندا نجدة ومدداً للثائرين وهو موظف بريطانى .

وهذه حادثة كان يتسع لها بلا شك كتاب عولس ولا سيما أن محاكمة كيز منت كانت حدثاً عالمياً ، وكان دفاعه البليغ المجيد وثيقة إنسانية كأن هذا البطل استلهمها فى دفاع سقراط عن نفسه .

كان كتاب عولس يتسع لهذه المحاكمة التاريخية المجيدة ، كما اتسع لغيرها من الحوادث الرهيبة والواقعات التفهة أو الجليلة كوصف جريمة بستان العنقاء (فينكس بارك) وهى جريمة سياسية، اغتيل فيها حاكم ايرلاندا ووزيره الانجليزيان، وكما اتسع لوصف إعدام أحد المذنبين إعداماً علنياً فى دبلين ، وهاتان الواقعتان سابقتان على الحرب .

أما الحرب نفسها فليس فى أدب جويس أى صدى لذكرها وهو الذى عاش فى أتونها واكتوى بنارها على أيدى الحكام والقناصل والسفراء ومفتشى الجمارك والجواسيس والشرطة

السرية من الانجليز ، ولكن روح جويس لم تكتو بنارها ، وقد عاش وزوجته وأولاده بين قصف المدافع ورعد القنابل متنقلاً بين العواصم والثغور ، حاملاً عبء فاقته واضطراره وإملاقه ، قانعاً بما قرأ ووعى قديماً وحديثاً ، معرضاً عن الدعاية فى الكتب والمجلات والصحف ولم يكن لها سوى حديث الحرب ، بل أخذ يكتب ويدرس ويصقل نفسه ، وينتقى ألفاظه ، ويركب جمله ، ويبنى كتبه ، وينقى أسلوبه ، ويترقى فيه ، ويتبع خطة التطور الزمنى والعقلى ، وكأنه يعيش على قشرة كوكب آخر غير الكوكب الأرضى .

فأى رجل هذا الضخم الفخم ! الذى عزل نفسه ، واصطنع لها مناعة ورقابة وحجابا حاجزاً ، حتى لا يصل اليها ما يعطل حركة تفكيره أو يحول وجهته التى هو موليها ، ألم نقل إنه أراد الفرار بمواهبه الى بيئة تمكنه من النمو ووعد نفسه بالنجاة ووفى بوعده ونال أمنيته ؟

فلم يستهوه خبر غريب ، ولا حادث طريف ولا دعاية مغرضة، وأى إخلاص للفن مثل هذا الإخلاص قديماً وحديثاً ، بل أين منه المشعوذون الأفاكون الذين اشتهروا فى هذه الفترة التعسة من الزمن وفى بلاد كثيرة شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً ، والذين استغلوا

أحط الشهوات ليجلبوا لأنفسهم الصيت البعيد والغنى الوافر والأرباح المحرمة أمثال هوكسلى ولورنس واليوت وبرنارد شو ، ولم ينج من دائهم إلا واحد وحسب وهو هـ . ج . ولز مازال معجباً بجويس ومثنياً عليه ومدركاً أدبه ومقدراً عبقريته حق قدرها ، حتى وافته منيته بعد جويس ببضع سنين.

إذن كان جويس كاتباً اهتدى بإرادة الله ثم بهمته الى ذاته العظمى ومواهبه الجلى ، وكان مغامراً جباراً جليل القدر ، وكان مكافحاً مناضلاً مجاهداً ، وكان جواب آفاق مستنفضاً ، فلم يخش على حياته وحياة أسرته سوء المغبة أو أخطار الاغتراب ، ولم يخف على أسلوبه ومنهجه من الموت أو الاندثار ، فأرسلهما في كتبه، ولا سيما عولس فى العالم الغربى ، غير مبال بنواطير النقد ، ولا نواطير الأدب ، ولا حسب حساباً لمن صدئت عقولهم ، لنومتهم الذليلة فى كهوف التقاليد ، ورقدتهم الطويلة فى أقبية النفاق .

فصار جويس أستاذ الجيل ، كما كان أستاذاً إبان فتوته فى مدرسة أولية فى وطنه ، وكما صار أستاذاً للغة الانجليزية فى ايطاليا بسبيل القوت ، فآتاه الله قوة الابتكار ومنحه نعمة الإبداع والتصوير والنقد والتحليل ، فعبر عن أفكاره الطريفة بأسلوب بارع

نادر ، فهو مخترع أبداً ، يناقش ويجادل ويفاجىء ، فإذا القديم حديث ، واذا الحديث نفيس ، ولم يفته أصل من الأصول الفنية كأنه من رواد الكشف الجغرافى ، خاطروا بأعمارهم وأرزاقهم ورحلوا فتعبوا فى البر والبحر الى أن أشرفوا على الهلاك حتى اذا استيأسوا ، اهتدوا الى قارة جديدة أو جزيرة غنية بالكنوز أو نهر عظيم له أودية ذات زروع وجزوع ، ومنابع فوارة فياضة ، وضفاف كريمة ملآنة بالخيرات والخصوبة ، فأورثهم الله ثواباً على جهادهم واجتهادهم وشقوتهم فى رحلتهم تلك الكنوز الزاخرة والثروات المتوافرة ، فاستغنوا وخلفوا لقومهم وآلهم تراثاً كريماً وعزاً مقيماً ورزقاً غريضاً وجاهاً عريضاً .

قيل إنه ترسم فى اسم عولس وموضوعه وحوادثه ، خطوات المعلم القديم الشاعر الكبير هوميروس الاغريقى ناظم الإلياذة والأوديسة ، وما الأوديسة إلا مكملة لتاريخ أحد أبطال حرب طروادة لأنها سرد مغامرات عولس أحد أبطال طروادة أثناء عودته الى وطنه اتيكا ، ومحاولة ابنه تليماخوس البحث عنه واستقصاء أخباره وتتبع خطاه ، ليسعف أمه بنلوب وينقذها من مخالب الأوغاد الطامعين والزعماء المتزاحمين على زوجها وعلى عرش رجلها الغائب

وهو والد ولدها .

أى نعم بلى ! هذه هى الحقيقة ، وهذا هو الفن العريق ، فالماضى السحيق للفنان الصادق هو الفردوس المفقود ، لايهدأ له بال حتى يصير الفردوس المردود أو المكسوب من جديد .

ولكن حذار يا أخى ويا ابن عمى ويا ولدى ، ولا أقول يا معلمى ، ولا يا أبى، فليس للفن الصحيح معلمون ولا رؤساء ولا أساتذة ولا آباء ! دع عنك لومى وعتابى فى هذا المقام العلوى ! ولا تقيّد علىّ ما أقوله فى ساعة سكر أو فى شطحة مخمور سكران بخمر الجمال والإبداع ! ولذا أكتب لك ما أشعر به نحو الفن الجديد، فاسمع جيدا هذه الألفاظ ، فهى قانون الفن الأول الأبدى الأزلى الخالد .

فاخلع نعليك وألق بثوب التقاليد ، كما كان الحجيج يرمون ثيابهم التى تلاصق أبدانهم ، فتسمى باللقى ، ليقبلوا على الرب ، عرايا مجردين ، كالحقيقة التى يدنون منها ، وهى عارية .

لقد جاء هذا الكاتب الماجد الخالد فى زمن كثر فيه التشريق وتقديد اللحوم ، فأنف القديد ووجّه العالم نحو الطعام الغض والفاكهة الناضرة والى خبز التنور ! يوم كان أمثال لورنس

وهكسلى وشو وأضرابهم يتهافتون على فتات الموائد ، وقشاش السفر ! ويقولون « كل من سار على الدرب وصل » !

وحدة الزمان ووحدة المكان ووحدة العمل ، تلك القاعدة الذهبية الأولى التى اكتشفها سوفوكليس وهوميروس وايشيلوس فى الدرامة الانسانية ، أقول اكتشفها، ولا أقول ابتكرها أو وضعها أو بدعها لأنها أزلية أبدية ، وقد كشفها جويس فى وقته وأوانه بعد تمام نضجه ، وبعد تدريبه عشرة أعوام من سنة ١٩٠٤ الى سنة ١٩١٤.

وكما كان هو ميروس عظيماً فى الإليانة ، وأعظم منه فى الأوديسة ، كذلك كان جويس عظيماً فى مؤلفاته السابقة ، وأعظم منه فى عولس ، فلا يترك فى القارىء شعوراً لا يتحرك ولا حاسة لا تجيش ولا عصباً لايهتز ، ولا عرقاً لاينبض، ولا قلباً لايخفق ولا عاطفة لا تتأثر ، ولا نقطة دم لا تغلى .

وجاهل من ظهر جاهل ، سواء أكان فى الشرق أم فى الغرب، من يزعم أن عولس ليس كتاباً كاملا ، رعى فيه مؤلفه تسلسل الزمان ووحدته على قصره ، ووحدة المكان على ضيقه وحصره ، والتتابع المنطقى فى الأقوال والأفعال والحوادث

والواقعات ، بل إن من يقول بهذا أعمى ، وأعمى منه وأضل سبيلا من يقلده قبل أن يقرأ تلك الملحمة الكبرى قراءة درس وفحص وتمحيص ، تلك الملحمة التى دون جويس فيها أدبه وفنه فى أكثر من ربع مليون كلمة ، بل على التدقيق ٢٦٠٤٣٠ كلمة كتبت بأسلوب جديد وطريقة جديدة ومنهج لم يسبقه اليه أحد من القدماء أو المحدثين دون أن يلجأ الى ما لجأ إليه شكسبير من التشبيه والاستعارة والترشيح ومحسنات البديع والبيان ، ودون أن ينحت الألفاظ ويصقلها كما فعل كورنى وراسين ، أو يخضعها للأوزان الموسيقية كما صنع فيرلين وبودلير ، ودون أن يقنع بالبساطة التى لا تقاس كما كتب أناتول فرانس ، أو يعمد للتعقيد الذى لاذ به بروست ، أو التكرار والإسهاب كما فعل رابليه وارث المترادف والمتوارد ، لأن انشغال باله بالجمال والحق وهجسه بهما فى جوهرهما ليلاً ونهاراً ، خلع هذا الرداء الفنى على كل ما خطه قلمه فى هذا الكتاب ، فهو معلم العصر وأستاذ نقد فك القيود وحرر الأذهان من عبودية القديم ، فهوت أوثان الأدب العتيق عن عرش مجدها ، كما هوت الأوثان المعبودة فى مخدعها يوم جاء الحق ، ولكن وضع لتقديس القديم حداً ، وقد خدمه أنه كان شاعراً يتهافت

منذ حداثته على النظم ، من قبل أن يتعلم شيئاً مما يلزم لهذه الصنعة ، مع يقينه أن الشعراء أفضل الناس، وأن الشعر أجل ما يتعاطاه الانسان ، أليس هو الذى التقى ذات مرة بالشاعر الايرلندى الكبير و.د.ب بيتس فقال « لقد التقينا بعد أن فات الآوان ، فقد تقدم بك السن ومحال أن تتأثر بأدبى » ، وقال أيضا إنما أنا شاعر لقد نظمت أفضل قصيدة غنائية Sonnet منذ شكسبير ، يشير الى رثاء بارنل الذى نظمه ونشره فى كتاب « أهل دبلين » بعنوان « وفاة بارنل » فى ٦ أكتوبر سنة ١٨٩١ ومطلعه «لقد مات ! مات ملكنا غير المتوج !» .

وهناك من يعللون هذه الهنات بالصلف والكبرياء والغرور ، ولكننى أعللها بالاعتزاز بالنفس ، والتسامى البرىء ، وكلاهما ضرورة للفنان فى أول عهده ، حتى إذا نضج وبلغ أشده ، خجل من ذكر نفسه وتواضع للسابقين والمعاصرين .

ونقول إن شاعرية جويس كانت قوية جداً ، وقريحته كانت أغزر القرائح الوقادة إنتاجاً ، ولو شاء أن يرتجل الشعر لاستطاع ، ولذا نعجب ممن قال « إن عولس ملحمة ، والملاحم لاتكتب نثراً»، والشعر جوهر لا عرض وموضوع لا شكل ومعنى لا لفظ ، فلا داع

للرد على ناقد لايعرف هذا القول البدائى وهو أن الشعر لايقيد بالوزن والقافيه وحدهما .

إنى أتألم وأتحسر لأنى أكتب بالعربية عن كاتب ناثر عرفاً وحكماً وكتابه باللغة الانجليزية - وليس كل قرائى يتقنون تلك اللغة السكسونية ، ولذا حرمت الاقتباس والاستشهاد وضرب الأمثال ليطرب بها القارىء ، فيما لو كنت أكتب عن كاتب عربى ، ولكن غيرتى على من لايصلون الى لذة الإلمام بهذا الفن الرائع ، ورغبتى فى التعريف بهذا الكاتب الفذ أمام لغته فى جيله ، وهو من كتب له الخلود الى الأبد حتى قال أرثور سيموندز « عندما تبيد كل الكتب الموضوعة بالانجليزية ستبقى ثلاث كتب على وجه الدهر وهى : الكتاب المقدس ، ومسرحيات شكسبير ، وكتاب عولس » أى يوليسيز لجيمس جويس ، فعز علىّ أن لايعرف قراء العربية ذلك الفن وتلك القدرة العجيبة لرجل من جنس قضى فى ذل العبودية سبعة قرون ، فنهض وتحرر وفك القيود وحطم الأغلال ، وأبق من وطنه كما يأبق الأسير والرقيق ، وأقام صرحاً من لغة عدوه ، وابتدع فناً رفيعاً جديداً ، أظهره على كل كتاب عصره، ولا سيما الانجليز منهم ، ونال من أعدائه بالقلم مالم ينله سواه بالسيف

والرمح ، فكان مجاهداً ومحارباً بما وهبه الله من عدة ، فأعد لأهل الجزيرة الجائرة المجاورة ما استطاع من قوة ، وقلم ومداد وقراطيس تفوق القلاع والحصون وتتغلب عليها ، فضرب مثلا وحيداً فى تاريخ الجهاد بالعقل والقلب والبلاغة ، وصار هذا الفتى النحيف المديد القامة الضعيف البنية ، عملاقاً جباراً لا يطاق ، وأرغم الرؤوس الشامخة على أن تطأطىء أمام عظمته ، وهكذا يكون حب الوطن ، وقد استجاب الإله دعوته الصامتة المقرونة بالصبر الطويل ، والعمل الدائم ، والرضى بالفقر والجوع والفلاكة ، فكافأه بنهضة وطنه وتحرره واستقلاله .

فهذه الجمهورية الأيرلندية الحرة ، هذه الجزيرة الزمردية الخضراء التى أحالها الاحتلال الأجنبى أرضاً جرداء ووديانا قاحلة جدباء ، وتلك الأمة التى هاجرت كثرتها الغالبة الى امريكا فى طلب الرزق وفراراً من الاستبداد ، استعادت شبابها ونضرتها ، فعسى ولعل يكون فى هذه المثل ثمرة للأمم المقهورة التى لايملك أصحابها سلاحاً ولا قنابل ذرية ولا دبابات ولا مدافع بعيدة المدى ، فلا تيأس من رحمة الله إن رزقها الله رجالاً أمثال جيمس جويس .

(٣)

بين جويس وبرنارد شــو

وهنا يحـضـرنى مـثل آخـر وهو ذلك الرجل الذى بلغ أرذل العـمـر ، وعـاد لايعلم من بعد علم شـيئـاً الذى يمجده المغرورون والمخدوعون وهو أكبر دجال على سطح الأرض ، أقصد الى من يدعى جورج برنارد شو ، فهو الآخر ايرلندى كاثوليكى هاجر من وطنه الى عاصمة سادته ليعبد فى هيكل المال والشهرة ، وليمجد سدنة هذا الهيكل وينحنى أمام قوتهم كما يفعل أحقر بهلوان !

هذا الرجل بدأ حياته اشتراكياً من مؤسسى الجمعية الفابية واختتمها خادماً لرؤوس الأموال وممجداً للجنيه والشلن والبنس ، لا أنقده ولا أحقره عدواناً بل عدلاً . اسمع الى ما قاله فى حق جيمس جويس وكتابه :

« أنا لا أستطيع أن أسطر الكلمات التى استخدمها مستر جـويس ، فقلمى المتزمت يمتنع عن رسم الحروف ، ثم إنى لا أجد فى وقاحاته الطبية الصبيانية (هكذا) ، أو فى تفاهاته التى يعتز بها

مايستحق الاهتمام » !!

وقد ألقى برنارد شو بنسخته من يوليسيز فى نار المدفأة (هكذا يروى) قائلا : « إن هذا الكتاب يثبت أن رجال دبلين وغلمانها لايزالون على ماكانوا عليه فى أيامى من قذارة (كذا) فى التفكير ، لا سبيل الى إزالتها ، هذا كل ما هنالك » .

ونبادر الى القول بأن تلك النسخة ، التى أحرقها شو ، إنما وصلت الى يده عند ظهور الكتاب ، أى منذ خمس وعشرين سنة ، ولم يكن شو قد وصل الى سن التخريف أو الطفولة الثانية ، وكان مايزال مالكاً بعض قواه العقلية ، فهو لايستحق أن يعذر بسبب الشيخوخة .

ولكنه أحرق النسخة ، ليقدمها قرباناً الى سادته الذين دأبوا من سنة ١٩٢٢ الى سنة ١٩٣٦ على مصادرته وإحراقه ، وتفتيش أمتعة المسافرين وأغراضهم ، للعثور على نسخ مخبأة ليصادروها فى الموانى والثغور ، ثم الحكم على طابعيها وناشريها بالغرامة المبهظة فى كل من لندن وفوكستون وهارتيس ونيوهافن وكاليه ، وقد صادروا وأحرقوا بهذه الطريقة الجائرة عشرات الطبعات ، وألوف النسخ ، فأحرق شو نسخته تقرباً وتودداً وخضوعاً لهؤلاء السادة ،

وذم سيده وأستاذه (وإن يكن جويس أصغر منه سناً) ، ليبرأ الى أربابه من شبهة مشاركة جويس فى ذنبه ولو بقراءة كتابه ، دع عنك تقريظه أو الثناء عليه ، لأن جويس نال من الحكام نيلا، ولأنه كاتب ثائر على الظلم والفساد والبغى والطغيان ، ولأن صمت شولا يكفى، بل وجب عليه أن يعلن رأيه وينادى بتكفير ابن وطنه الذى قام بما كان يجب عليه هو أن يقوم به ، ولأنه حسد جويس ونفس عليه قدرته ونبوغه ومواهبه ، ولم ينل هو شأوه .

وسبب هذه النذالة البرناردشية (نسبة الى برناردشو) أن كليهما خرج فقيراً مضطهداً من وطنه ، وكلاهما شاعر بالذل والصغار والظلم الواقع على أمته ، ولكن شو تعاقد مع إبليس بأن باع قلمه ونفسه وضميره ، وكتب وخطب ولم يمسس شعور السادة ولم يسألهم « ثلث الثلاثة كام » حتى فى أشد سنوات الثورة الأيرلندية ، ولم ينس الانجليز له هذه المداجاة على حساب قومه ، فأكرموه وعززوه وأقبلوا على سخافاته فى التمثيل والتأليف ، وطبعوا الملايين منها وهو يهرج ليضحكهم ، ويهذى ويخرف ليرضيهم ، بعد أن تعاقد معهم ضمنياً على أن لا يتعرض لحكمهم فى بلاده لقاء أنهم لايضطهدون ثمرات قريحته الكاسدة ، وقد اختار

عاصمة ملكهم وطناً له ، وفضل أن يقيم فى الطبقة العليا ، وترك أهله وإخوانه فى القاع والقعر وغيابة الجب، يصنع بهم الغاصب مايريد ، ومن هنا جاءه المال والشهرة والنفوذ على حساب خيانته الصامتة لوطنه .

ومثله فى ذلك ، مثل أعيان الهنود (منهم الكتاب والساسة والعلماء) الذين نزحوا من الهند ، وعاشوا فى لندن ، فرحب بهم الحكام ، وجعلوا من بعضهم أعضاء فى المجلس الملكى الخاص ، مثل الأمير على المسلم ، المتزوج من سيدة إنجليزية ، وكان يعيش فى بيته عيشة المنبوذ كما وصفه أحد أبناء وطنه وملته فى سنة ١٩٠٩ بلندن .

فطلب الدنيا وإقبالها ينسى الدين والوطن والعرض والشرف عند بعض الناس ، ومن هؤلاء ت.ب أوكونور الأيرلندى الذى ورد سجل المهاجرين على لندن فقيراً معوزاً وهو كاتب موهوب ، فألف كتاباً فى ترجمة حياة لورد بيكونسفيلد ، كان سبباً فى شهرته فمدّ السادة يدهم اليه ، وانتشلوه من وهدة الفاقة ، ورشحوه للبرلمان وأعانوه على تأسيس جريدة باسمه T.P. O'conner ومازال بها حتى مات، وقد قضى حياته فى البرلمان والصحافة غنياً ممقوتاً من بنى

وطنه الأيرلنديين ، فليست العبرة بالمواهب أو الحاجة ، إنما العبرة بالخلق والمبدأ ٠

كان جويس أقدر من كل من هؤلاء وأفقر ، ولكنه لم يبق فى لندن خشية الوقوع فى حبائل هؤلاء السادة الذين يحسنون اصطياد الرجال وشراء الذمم ويكافئون باعتها مهما طال الزمن ٠

وكان أول ما كتبه جيمس فى التاسعة من عمره مقالة فيها نقد مر لسلك هيلى عقيب خروجه على زعيمه بارنل ومازالت هذه المقالة تعتبر من أرقى وأبلغ ما كتبه جويس (نقلا عن بادريك كولم ص ٩ من مقدمة « أهل دبلين ») وكان عنوان هذه المقالة باللاتينية « وأنت أيضا يا هيلى » ! اقتباساً عن يوليوس قيصر فى مسرحية شكسبير « وأنت أيضاً يا بروتس » ٠

وهيلى هذا أحد أنصار بارنل وأشد المعجبين به ، انقلب عليه وتنمر له عندما وقع هذا البطل ضحية للدسائس والفتن وفريسة لمؤامرة جلادستون ، فسبّه وانقلب عليه وقذف فى حقه ، وكان عوناً لأعدائه ، فمكنه السادة من دخول البرلمان والبقاء به ثلاثين عاماً رئيساً لحزب لا عضو فيه سواه ، فهو الزعيم والرئيس والوكيل والأعضاء ، وكان اسم حزبه « الحزب الأيرلندى المستقل » ، حتى

استقلت ايرلاندا فعينوه حاكماً عليها قبل أن تعلن النظام الجمهورى، وبلغ أرذل العمر ومات ملوماً محسوراً .

ولو أراد برنارد شو شيئاً من هذا لناله ولكنه فضل الدراهم والدنانير ورصيد المصرف الكبير .

(٤)

العبقريـــة

درج بعض أدعياء العلوم النفسية ، منذ عهد لومبروزو ونيزيت على اعتبار العبقرية لوناً من الشذوذ الذهنى أو المرض ، لظهور العبقرى والنابغ بمظاهر تبدو للسواد الأعظم من الناس عجيبة ومخالفة لما تعودوه من أفراد الجنس البشرى العاديين ، لأن السواد الأعظم افترض الانسان حيواناً كسائر الحيوان ، خلق ليأكل ويشرب وينام ويتيقظ ويتناسل ، بعد أن يولد ويشب ثم يكون رجلا فكهلا فهرماً فشيخاً فيموت ، وغاية مافكروا فيه أنهم عرفوه بأنه حيوان ناطق أو ضاحك أو ميال أكثر من غيره للتقدم والتطور ، عن طريق الشر أو الخير ، فإذا بدرت بادرة من بوادر النبوغ أو التمايز سارعوا فوصفوها بلوثة أو خبل أو نقص فى القوى العاقلة ، ومازالوا كذلك أمداً طويلا حتى أمكنهم التفريق بين الاختلال المرضى الناشىء عن عاهة فى الدماغ أو الجهاز العصبى ، وبين التمايز الذهنى الدال على النبوغ ٠

فلنبادر بالقول إن جيمس جويس كان عبقريا سليم التفكير ، نشأ فى أرض معذبة وشعب ذليل ثائر ، واهتدى الى نفسه فنجا بها، مخاطراً مجازفاً ، وعكف على مواهبه فنماها ، وانقطع لفنه فأتقنه وقد امتلأت نفسه بهذا الفن ، فآثر العزلة فى الغربة ، وأخذ ينظر الى الحياة من نافذة عزلته ، يشهد مناظر الحياة كمن يشهد مناظر الصور المتحركة ، وينظر الى الماضى كمن يزور متحفاً ، ولكنه لايحفل بما يرى ، ولا يقف عنده ولا يتعلق به ، إلا أن يكون مصوراً لأثر من آثاره الفنية ، ومرجعاً للصورة التى يشاء تسجيلها وتثبيتها، فهو حينئذ يستوحيها ويستقصيها ويصدر عنها فيما يرسم ويصف . إنما يقف منها موقفه من الطبيعة غير الواعية ، يتخذها مادة لفنه دون أن يشاركها بعقله وقلبه وشعوره فيما يطرأ عليها من الأحداث وما يلم بها من الخطوب والكوارث .

وهذا هو مافعله جويس فى وطنه أولا ، ثم فى البلاد التى نزح اليها ، وقد أعانه تكوينه الذاتى وتركيب عقله ، فقد كان دماغه وذاكرته ووعيه كمخازن العبور والاجتياز « ترانزيت » ، التى تتكدس فيها البضائع الى أن ينقل كل منها الى مقره.

وقد دلتنا طريقة عمله على صحة هذا الرأى ، فإنه كان يحمل

دائماً نتفاً من الورق يدون فيها خواطره ، ويصوغها جملا ، ويعمد الى ذلك سواء أكان راجلاً أو راكباً و مقيما أم ظاعناً ، منشغلا أو لاهياً ، هادئاً أم ثائراً ، ضاحكاً أم باكياً ، مبسوطاً أم مقبوضاً ، فهذه القصاصات من الورق لم تفارقه لحظة عين فهو يكدسها فى جيوبه ، ثم يعمد الى تنظيمها وترتيبها ، ومازال يكدسها حتى أربت على ألف ألف ورقة ، وهذه هى مخطوط عولس عانى فى نقلها وتبييضها ووضعها فى مواضعها ماعانى ، وهى الكنز والذخيرة التى انقطع بسببها عن الدنيا ، وآثر العزلة والانقطاع ، وتحمل الحاجة الملحة ، ومارس الصبر الطويل ، وقد سلك هذه الخطة من فجر القرن العشرين وهو فى العشرين من عمره ، وفى نفس هذه الفترة من الزمن ، كان الأدب المتعارف عليه فى زمنه مزدهراً ، والأدباء المعاصرون له فى وطنه وفى غيره من الأوطان لايحفلون بالفن كما حفل ، ولا يتكلفون فى سبيله ماتكلف ، وإنما يؤثرون أنفسهم بالخيرات ويستمتعون فى ظل الدول المستعمرة بما يتاح لهم من الحرية ، ليحيوا كما يحبون ، وينعموا كما يقدرون ، ويكتبوا لا مايشاءون ، ولكن مايشاء الطابع والناشر والوراق والقارىء ابن السبيل ليربحوا ماداموا خاضعين طائعين ، راضخين للقيود التى

قيدهم بها المجتمع ، وراضين بما قسمته لهم شركات النشر والطبع، متطلعين لما يجود به عليهم النقاد المأجورين فى مقولات مأجورة تنشر فى صحف مأجورة ، فى أوطان ذليلة أو عزيزة ذات عواصم كبرى كل مافيها للبيع أو للإيجار سواء أكان أدباً أم عرضاً وشرفاً أم حرية أم دنيا أم بلاغة ، أم ذمة وضميراً .

وفى هذا الخضم المضطرب تفتحت بصيرة جويس فى العشرين من عمره ، وتبين أن حريته معرضة للخطر ، وأن ثقافته المكتسبة والمرتقبة معرضة للزوال ، وأن فنه معرض للاندثار ، وأن آماله مآلها الضياع ، وعليه أن يدفع عن نفسه أخطار الابتلاع والاهتضام التى تتهدده من التسلط المطلق للجماعة على دقائق الحياة الاجتماعية فى فترة الانحلال الموصوفة بالعصر الفيكتورى نسبة الى ملكة الانجليز التى عمرت وطال عمرها أكثر مما ينتظر الناس ، فرأى جويس نفسه مخيراً بين اثنتين ، إما أن يفنى ويختنق فى ضباب الامبراطورية ، وإما أن يتشبه بالعجزة والطامعين والمغرضين والقانعين والمنافقين أمثال برنارد شو ولورنس وتوماس هاردى ولورد تنيسون شاعر القصر وغيرهم ، فيشارك أصحاب السياسة والمال والجاه فى الدفاع عن تراثهم والقيام دونه وحمايته

ليطعم آخر اليوم من فتات موائدهم .

وإما يهرب ليعتزل ويذل غريباً ليعتز فنه ، أى يفر بالأمانة والوديعة والكنز الذي وهبه الله ، مخاطراً مغامراً فى وقت من أحرج الأوقات ، وهو يواجه الفقر والألم ، ويترك وراءه قومه وأهله ، ومستقبلا ربما يكون باسماً لو أنه رضى أن يسلك رسغه ويده وعنقه فى القيود الفضية أو الذهبية التى أعدت لأمثاله ، فاختار طريق الفرار والهجرة والعزلة والضيق والضنك ، لينجو بفنه وهو أغلى من حياته .

فلما هاجر وابتعد عن وطنه ووطن المستعمرين المتألهين ، احتفظ بعزلته واستأثر بوحدته ، واعتصم بفنه وإيمانه ، ينظر الى اضطراب العالم من حوله ، كما ينظر الى أشعة الشمس حين تشرق ، وإلى ظلام الدنيا حين تغرب ، وإلى أمواج البحر وهبوب الريح وسكون الغاب ، فخلص لفنه ونظر الى الحياة الإنسانية كما ينظر الى الطبيعة الصامتة يتخذها مادة لفنه ، وهذه هى الطريقة الخارجة عن الذات ، المقصورة على درس الحياة بغير تأثر بها Ob-jective ، ولهذا انفرد كتاب عولس (يوليسيز) وانقطع قول من زعموا أنه جزء مكمل للكتاب الأول « حياة الفتى فنانا » The Artist

as a young man . لأن هذا الكتاب الأول كان محاولة صادقة فى تدوين ترجمة حياته فى شبابه ، أما كتاب عولس فهو دراسة فريق من الناس فى زمان ومكان وانفعالات وعواطف لا تمت اليه بصلة ، وما أكبر الفرق بين الفكرتين والطريقتين والغايتين والوسيلتين ، ولا سيما وأن هذا الفريق هم الدرجة النازلة من الطبقة الوسطى من أهل دبلين .

ولكن هذه العزلة العولسية ، لم تكن ما يسميه الأدعياء والمتصنعون عزلة «البرج العاجى» لدلالتها على الترفع والكبرياء والاحتجاب عن الناس ، ليفوز صاحبها بالشهرة عن طريق التأثير فى أذهان العامة ، وإنما كانت عزلة ضرورية لفترة معينة فرضها على نفسه ليتقن عمله ، وإنما هاجر واختار الغربة حرصاً على مواهبه وضناً على عواطفه ممن يغتالون أعمار النوابغ وعواطفهم ويفترسرنهم ويستغلونهم فى أتفه الآراء ، وحرصا على كرامته وخوفاً من الإغراء ، وفراراً من الخصماء الذين قد تمتد اليه أيديهم فتطوله بأذى ، وإشفاقاً من أدواتهم وآلاتهم ممن ينغصون الحياة على النوابغ فى شبابهم ، فيقتلون الفرخ بعد الخروج من البيضة وما يزال أخضر الزغب ، قبل أن يقوى منقاره ويطول ريشه ،

وتشتد قوائمه ٠

ولهذا قلنا إن جويس لم يكن زاهداً فى الحياة ، ولم يكن طفيلياً يعيش على كسب سواه ، ولم يكن متكبراً متعالياً مترفعاً على قومه أو غيره من الأقوام ، بل كان يخالط الناس ويعاشرهم ، ويندمج فيهم أحياناً ، وينتفع بهم وينفعهم ويهادنهم ويهاجمهم ويدافع عن نفسه ، ويضحك منهم ويتهكم عليهم ، ولكن دون أن يجعل لشيء من هذا كله أثراً فى تعطيل فنه أو انصرافه عنه ، أو التضحية به فى سبيل مال أو شهوة أو منصب أو مجد موقوت ، أو شهرة قبل أوانها ٠

وقد سعى الى لقاء مشاهير عصره فى وطنه وفى غير وطنه وأفاد منهم وتأثر بهم بالقدر الذى رآه ملائماً أو كافياً دون أن يخضع لرأى واحد منهم ٠

وكان يخاصم فى العدل وفى الحرية وفى الدين والإلحاد وفى السياسة ويقاضى بعض الناس فى نزاع على حق له سواء أكان مالاً يملكه أو بيتاً يسكنه ، ويناصب الناس العداء فيما شئت من هذه المشكلات الإنسانية التى لاتنقضى والتى تتجدد كل يوم ، ولا سيما فى فترة الحرب العالمية ، ولكن كل هذه المظاهر والأقوال

والأفعال التى اقتضتها الحياة ، لم تمتد به الى التماس النفع من قول أو عمل له علاقة بالمرافق العامة ، أو صلة بالسلطان من قرب أو من بعد ، لأنه لم يكن فى وطن مستقل يتصرف بنوه فى شؤونه ، ولأن الانجليز لاينتفعون بمواهب أمثاله إلا إذا وضعها تحت أقدامهم ، كما صنع جورج برنارد شو فسخر مواهبه لخدمة الامبراطورية .

ولأن جويس فى البلاد التى نزح اليها (فرنسا وسويسرا وايطاليا) ، لم يلتمس عملاً يرتزق به سوى التدريس ، وهذه البلاد لاتوظف أجنبياً إلا إذا كان جاسوساً ، ولم يكن عنده مال موروث يغنيه عن الناس ، حتى فى أحرج الأوقات ، فقد اقترض ثمن تذكرة القطار للسفر من باريس الى دبلين ليدرك أمه قبل وفاتها من أحد تلاميذه (موسيو جوزيف دوس وهو الذى سماه فى عولس الآنسة دوس) .

ولكن هذا البعد عن المرافق العامة وعن الصلة بالسلطان من قرب أو من بعد، وَقَتْه وحمته من التأثر بالخطوب التى يقتضيها الاتصال بالسلطان والاشتراك فى الحياة العامة ، دع عنك الحاجة للنفاق والمداجاة والرياء التى تقتضيها تلك الصلة فى وقت الرخاء أو

الطمأنينة ، فنعم مافعل جويس حين نفض يده من الحياة العامة نفضاً ، واعتزل الحقائق الواقعة اعتزالا .

وكان جويس أحق الناس بهذا الاعتزال لأنه صاحب فن نادر ممتاز ، وكان من دقة الإحساس ورقة الشعور وصفاء الطبع واعتدال المزاج وحب الموسيقى وحب الأسرة والحدب على أولاده بما لايستطيع معه أن ينسى نفسه ولا أن يجحد ما يطرأ عليها من ألوان المشاعر المختلفة والعواطف المتضاربة والانفعالات والانطباعات المضطربة ، حين يتصل بظواهر الأشياء وحقائقها ، وهو ما تقتضيه المرافق العامة والصلة بالسلطان والإلحاح فى طلب الرزق بكل الوسائل ، حتى تتوافر له كل أسباب النعيم ، دون القناعة التى تصون كيانه وتحفظ كرامته .

ولكن هذا التعفف وتلك القناعة ، لم تمنعه عن دراسة عصره وطبقات معاصريه ، والمشاركة فى الحياة الواقعة فى وطنه وفى غيره ، حين كانت جداً وكداً ومواجهة للمشكلات ، وحين كانت عبثاً وهزلاً ومجوناً ومقارفة للموبقات (كما يصفها فى الدرامه ص ٤٠٨ – ٥٧٠) ، وهو ماوقع فى مدينة الليل أحد أحياء دبلن ، فكان جويس بدون منازع مرآة للعصر الذي عاش فيه ، ولكنها مصقولة

أحسن صقل وأفضله ومجلوة أجمل جلاء وأوضحه ٠

نعم ٠ كان جويس ثائراً حانقاً حاقداً مغيظاً ، ولكن شيئاً من هذا لم يظهر فى كتابه على أنه عاطفة شخصية لمؤلفه ، كان ثائراً حانقاً مغيظاً لا غضباً لنفسه أو لذويه ، أو حسداً لغيره أو ندماً على ما فاته ، وإنما كانت غضبته لحرية وطنه وقومه وأمته وذلك حين شب وأدرك أن المستبدين من غير أمته قد تسلطوا على حياة شعبه واستأثروا لأنفسهم وخاصتهم بالسلطان كله ، ولم يشركوا الشعب فى قليل أو كثير من هذا السلطان ، وحرموا الأمة من خيراتها وأرغموا كثرتها على الفرار والهجرة الى قارة أمريكا النائية ، وسلبوا نعمتها ، وإنما قدسوا سلطانهم ، ليقدسوا أنفسهم ، واحتكروا الأمور العامة وحظروا على غيرهم أن يشارك أو يخوض فى ذكرها ، وحاربوا الزعماء المخلصين ودبروا لهم المؤامرات حتى أوقعوا بهم ولم يترفعوا عن نوع تلك المؤمرات أو لونها ٠

وقد دامت هذه الحال مئات السنين ، ولكن جويس لم يشهدها كلها بالطبع وانما قاس مالم ير من الماضى على الحاضر الذى لابسه وكابده ، وتكهن بالمستقبل الذى سوف يراه إن هو أقام على الذل والهوان فى بلده ، فكيف لا يثور جويس عندما يرى طبقة

ضئيلة تستأثر بالحياة العامة ، فتتنعم بالسلطان والقوة والمال والثقافة وما يلائمه ، وشعباً مسخراً لخدمة هذه الطبقة الضئيلة لاحظ له من سلطان ولا من ثقافة ولا من حرية ولا من قوت غير البطاطس للطعام وروث الأنعام للوقود ، وأى قيمة للحياة فى هذا الوطن لمن يستطيع أن يتحرر بالهجرة ليعيش وينتج مايعود على نفسه وعلى وطنه بالخير ؟

(٥)

المناجاة الباطنة عند جويس

كتب جويس فى يوليسيز ٢٦٠ ألف كلمة فى ٧٣٣ صفحة أثناء سبع سنين ولم يكتب لغواً ولا حشواً ، ولم يسهب فى غير وجه، ولم يستعمل مترادفاً ولا مكرراً ولا متوارداً ، ولم يرغب فى إظهار إلمامه باللغات الأوربية القديمة والحديثة ، وإنما اتخذ اللغات وسيلة للتعبير عن أفكاره ، ويخيل إليك أنه يكتب لغة إنجليزية غير اللغة التى تعرفها لنضارتها وزهائها وبهائها ، وحلاوتها وتنسيقها ، وانسجامها واتزان نثرها ، كأنه شعر منثور غير مقصود من كاتبه كما كان شأن أناتول فرانس فى ثورة الملائكة ، وخلق لنفسه أسلوباً ومنهجاً وطريقة ، ويهولك سعة علمه وقوة حافظته وغزارة مادته وسهولة استرساله ، فإن الألفاظ تنثال انثيالاً كالمطر ، ولكن نقاط المطر هذه تأتى مرة كاللآلىء المنظومة ، وتارة تنهال انهيالا وتنهمر انهماراً كالسيل العرم الجارف ، وتأتى مرة كأشعة الشمس وذرات النور التى تبعثها الشمس والقمر وسائر الكواكب ، وتراها أخرى

كقطع الظلام المخيمة على [illegible] تعرفه فتتبين معالمه ولا يفوتك منها شيء ، ومرة أخرى كالأحجار الضخمة المصقولة التى بنى منها هرم عظيم ، وقد صفت صفوفاً والتحمت التحاماً ، لا تكاد ترى ملاطه ولكنها متماسكة متساندة تشد بعضها بعضاً ، تتناسق وتتدرج حتى تصل الي الذروة ، ثم إنك تسمع فى أثناء ذلك كله ، نغماً حلواً منتظماً كموسيقى واجنر التى وضعت بحساب دقيق يشبه المعادلات الجبرية التى تنتهى بحل المسألة، وطوراً تلمح فيها الأشكال الهندسية لمعدن حين تتبلور جواهره ، فترى المثلثات والمربعات والمخمسات والمسدسات والمسبعات والمثمنات ، والكريات والمخروط والأسطوانى .

ثم ترى حيناً فى تركيب ألفاظه الغدير الصغير ، والجدول الهادىء الرائق ، وترى النهر العظيم المتدفق ، وتسمع هدير الشلال، ثم ترى البحر العظيم العجاج المتلاطم بالأمواج العالية ، وتلمح الزبد ، وترى ذلك البحر أو المحيط حيناً هائجاً مائجاً يرتفع كالجبال العالية ، وطوراً تراه هادئاً كالمرآة الناصعة ، التى سكب عليها زيت فلا يحركها النسيم ، وتشهد العاصفة ، ثم ترى عجائب أكبر من بساتين غناء الى حراج ذات أشجار باسقة اشتبكت فروعها

فصارت أدغالاً مخوفة .

وإنني لا أحب المبالغة ولكنني أحب أن أنقل الى ذهن القارئ العربى قدرة هذا الرجل فأشعر بعجز البيان فى وصفها ، ولشد ما وددت أن أنقل وأستشهد ، وأن يسمعنى عليم بالانجليزية وبأساليب الكتابة وفى مقارنة اللغات وفهم النصوص ليشاركنى هذا الإحساس ، لأن هذا الرجل كشف لى الغطاء عن خصائص الحروف وأسرار الألفاظ ومعجزة التركيب وقداسة الأساليب .

أنت تقرأ وتفهم ماتقرأ ثم ترى المناظر التى وصفتها لك ، وتسمع الأصوات ، تسمع الموسيقى والغناء والهدير والزئير ، ثم تدرك المعانى الظاهرة والخفية والرموز والألغاز التى يرمى اليها فى غير عناء ، فلا تمل ولا تضجر ، ولكنك تنتقل من طرب الى عجب ، الى استحسان بالغ الى دهشة مفاجئة ، الى سرور مستمر يملك عليك نفسك ، حتى تود أن يشاركك فيه الخيرون والفضلاء وعشاق الجمال والحق من أهل الأرض ، وقد بلغ فرط العجب حتى ظننت أن أنقل هذه المشاعر لمن يعرفون اللغة الانجليزية مستعيناً بالتعريب والإيماء وضرب الأمثال والتشبيه والاستعارة والكناية وكل أدوات البيان ، حتى أخلق لهم شعور الطرب ، ثم أغلق الكتاب بين الرجاء

واليأس .

تخيلوا قصراً فخماً مشيداً من أفخر مواد البناء ، واختير له أجمل موقع ، وفرش بأجمل الأثاث وزين بأغلى الصور ، وسكنه أجمل الناس خلقا وخلقاً ، وأعلمهم وأدبهم وأفصحهم ، وأتيح لك أن تعاشرهم وتؤاكلهم وتباسطهم وتحاورهم فلم تر فى القصر إلا ما يسرك ، ثم انصرفت عنهم أسفاً لفراقهم .

هذا الشعور ، كان يتملكنى كلما تركت الكتاب مضطراً بعد قراءة فصل من فصوله ، هذا الأدب الحى الجديد كالخمر الجيد العتيق ، كزهر الربيع الذى لايذبل أبداً ، إنه يحرك الناس كالدمى ، وينقل الجماعات كما تنقل بيادق الشطرنج وأفراسه ، وفيلته وقلاعه، حتى الشاه والوزير ، إنها قصة رائعة ، لا أول لها ولا نهاية ولا وسط ، لأنها قصة الحياة بفرحها وحزنها وعبرتها ، قصة كونية رائعة خالدة ، ولو شاء جويس أن يؤلف مائة قصة كتلك التى ألفها فحول الأدب الانجليزى من أول القرن السابع عشر الى يومنا هذا ، لصنع بمجهود أقل مما بذل، ولا أحب أن أذكر أسماء ، ولكننى أكتفى مؤقتاً بالقول إنه أغلق باب القصة بعده ، وأن الكاتب يخجل أن يأخذ قلماً ليخط كلمة فى قصة بعد ماكتب جويس وهذا جزاء

حق للعجزة والضعفاء والأقزام والأدعياء والمقلدين ·

وقد بدا لى كل ما قرأته من هذا النوع - بعد قراءة جويس - باهتاً مبتذلاً فيما عدا بضعة كتب مثل فاوست ، ولكن أصبح المؤلفون فى نظرى قبله وبعده نساخاً وأمساخاً أو متصنعين متكلفين، هذه جناية أو عقوبة لهؤلاء ولا ذنب لجويس فيها ، لأن كل الناس لم يخلقوا مثله ، وليس فى جعبة هؤلاء أو أولئك ما فى جعبته، وليس فى حقائبهم مهما كثرت وتعددت بضاعة كبضاعته ، وهؤلاء يلجأون الى تشبيه أو استعارة أو ترشيح ، أما هو فيرسم صوراً ويطرح أحاجى وألغازاً بين يديك ، ويلحقها بحلولها ، ويصور أمامك أبدع التصاوير لوقته ، كأنه ساحر يلقى ببذرة فلا تلبث البذرة أن تنمو وتزدهر وتصير شجرة لها زهر وثمر ·

إنه ناقد ينقد العالم أجمع ، ولكنه يدع الأشياء والأشخاص تتكلم وهو بعيد عنها ، لم تنج ناحية من نواحى المجتمع من سهام نقده الرائشة ، ولم يدع زاوية من زوايا الكون إلا ولجها ، ينتقد الدنيا أفراداً وجماعات وحكومات وبلدانا كأنه مدع عام يقيم الدعوى على كل شر وكل سخف وكل غرور وكل ظلم وكل إثم وكل استبداد وكل عبودية وكل سرقة وكل نهب وسلب ، ويطلب العدل

والرحمة فى كل مكان ، وهو يشبع أعداء المجتمع سخراً وهزؤاً ، وقد يصفح أحياناً ويطعن طعنة دامية إن لم تكن الوخزة كافية ، وقد أعانته جرأته على اللغات لتمكنه منها ، فليس فى اللغة الانجليزية قياس كالعربية ، ولكنه حلحل مكابس اللغويين ، ونحت ألفاظاً جديدة وابتدع صيغ جموع جديدة ونسبة جديدة ، وأطلق ألفاظاً قديمة على معان حديثة ، وألفاظاً حديثة على معان عتيقة ، وهو فى عمله هذا واثق من نفسه ، يؤدى كل عبارة على حقها ، ولا احتكاك عنده ، فكأنه يقطع من مقالع ، أو ينزح من بحر، أو يختار من كنز ، فالفرق بينه وبين معاصريه ، كالفرق بين ميكائيل انجلو وبنفنتو تشليني وليوناردو دافنشى ، وبين من ينقلون أعمالهم عن صور باهتة من صنع هؤلاء الأساتذة ، أو قل كالفرق بين المعرى وامرىء القيس والبحترى مجتمعين ، وبين أحقر شعرور منفرداً .

هذا أسلوبه وتلك طريقته .

أما كيف استطاع حشد الألفاظ بمئات الألوف ، ولم ، وفيم ؟ فأقول لقد حشدها وجمعها ونظمها وزحف بها وخاض المعركة ليظهر الحياة فى صور المناجاة الباطنة أو تيار الوعى . فهو بعد أن حرر الألفاظ وفك قيود اللغة ، وحطم سلاسلها وأغلالها ، عمد الى

تحرر التفكير البشرى من طرائقه القديمة بين سؤال وجواب ، وتعليق وشرح واستفسار يشوبه خجل وتردد ، وترك الأبطال والشخصيات يتحدثون إليك على سجيتهم بتداعى الأفكار ومناسبتها ، وتأثير المرئيات والمسموعات على الذكريات القديمة والرغبات المكبوتة ، والأمانى المرتقبة التى يخجل المرء والمرأة أن يبوح بها .

هذه المناجاة الباطنة (أو المونولوج انتريور) هى التى أقامت الدنيا وأقعدتها ، فزعم حاسدوه ونقاده أنه مقلد « لأدوار دوجاردان» الكاتب الرمزى ، ولمارسيل بروست القصاص الفرنسى، لأن دوجاردان سجل خواطره فى مجلس غزل ولم ينطق بكلمة ظاهرة ، وكان هذا فى طفولة جويس ، وجاء بعده مارسيل بروست ، وهو الآخر اتخذ الحوار الذاتى بين المرء ونفسه فى بعض ماكتب فى قصته الكبيرة « البحث عن الماضى المفقود » .

والذى دل النقاد على هذين الكاتبين ليزعم أن جويس مقلدهما ، هو ستوارت جيلبرت ، وهو المرجع الذى يلجأ اليه كل من يكتب عن جويس فيما عدا هذا البحث الذى نكتبه ونحب أن نجعله أصيلاً قائماً بذاته ، غير مرتكن الى أحد غير كتاب يوليسيز لجويس

نفسه ٠

لا شك أن جيمس شاعر وقد قال عن نفسه إنه نظم أجمل أنشودة بعد شكسبير ، وعمد الى كتابة ملحمة منثورة ، ولكنها شعر من أولها الى آخرها كالملحمة التى كتبها توماس هاردى عن بونابرت ، والملحمتين اللتين كتبهما هوميروس عن أبطال طروادة (آخيل ومن معه) ، وعن عولس وبنلوب وابنهما تليماخوس ، والملحمة شعر وكاتبها شاعر ، والمناجاة الباطنة تتصل بالشعر من ناحية أنها ذلك الحديث الذى لايقال ولا يسمع ، لأنه يجرى بين الانسان ونفسه ، يجرد المرء من نفسه شخصاً آخر يطارحه ويحاوره ويناقشة ليفضى به عما يجول فى ثنايا عقله ، وبه يعبر عن حاله المكنونة وأفكاره المكتمة وهى على حدود العقل الباطن ، وهى نوع من التخيل النفسى يقوم به الانسان بذاته لذاته ، دون تقيد بالتسلسل الزمانى أو المكانى أو التتابع المنطقى ، فهو الكلام المباشر الذى لايخضع لانتقاء الألفاظ أو اختيار الجمل وتركيبها أو النحو والصرف لأنه لن يسمعه أحد سواك ، بل أنت لا تسمعه لأنك لاتنطق به ، لأنك لو نطقت به وسمعته وحدك دون غيرك لدخلت فى عداد المجانين ، وإنك تلقى كثيراً من الخلق عليهم سيما الوقار شيباً

وشباباً ولكنهم يتحدثون الى أنفسهم ، فترى ذلك بحركات الشفاة وإيماء الأيدى وتحريك الرأس والابتسامة العارضة أو العبوس الطارئ ، وقد تسمع أصواتهم لو كنت منهم من حيث لايرونك فيخيل إليك أنهم فقدوا عقولهم ، فإذا رآهم أحد طفلاً كان أو امرأة يصيح « انظر يا أبتاه أو بص باجوزى الراجل بيكلم نفسه » .

وحقيقة الأمر أن ذلك المتكلم لذاته لم يستطع كبح جماح لسانه وصوته كغيره، وقد تكون أنت عندما لفت ابنك أو زوجتك نظرك الى المحدث نفسه ، تكون أنت أو أحدهما فى نفس حالته ، أى تناجى روحك وتخاطب ذاتك كما يفعل تماماً ، ولكنك لاتنطق ولا تحرك لسانك ولا ترفع صوتك ، دع عنك إيماء اليد أو هزة الرأس.

والإنسان حين يفعل هذا إنما يسجل خواطره ، وطالما أسف العلماء والأدباء، ولا سيما علماء النفس والتاريخ والأدب ، على ضياع تلك المادة الغزيرة التى لايمكن تدوينها أو تسجيلها بالكتابة ، لأن صاحبها لايجود بها ولا يتطوع بها خجلاً وخوفاً ، ولا يتكلم بها بصوت مسموع إلا إذا كان منوماً فى حضرة محلل نفسى ، لأنه يمنعه الخجل أو الخوف أو الحياء أو محاسبة الضمير ، ولأنك لو حاولت أن تحصى أو تسجل الكلام العادى أو الذى نسميه الرسمى

وهو المحوط بأصول اللغة وقواعد النحو واختيار الألفاظ وتركيب الجمل ، ولو فى بيت واحد فى يوم واحد ، لاتملك الورق والأقلام والمداد التى تكفى للقيد والتدوين ، فما بالك إذا شئت تدوين كل مايقال من الكلام فى مدرسة أو محكمة أو مجلس سياسى أو ندوة أدبية أو قطار مسافر أو باخرة أو محفل حاشد أو اجتماع عام ؟

إذن تعين على الكاتب الذى جعل هذا النوع من الأدب مظهر فنه أن يعانى أشد المعاناة فى الاختيار والانتخاب والتصفية والتفضيل والإعراض عن كثير مما يقال ويسمع ، والإقبال على تسجيل الخلاصة المنتقاة والجواهر دون الأعراض .

بيد أن الانسان لا يتكلم طول يومه أو ليلته حتى ولو كانت صنعته الكلام كالمدرس والمحاضر والمحامى والواعظ ، وحتى المرأة التى اشتهرت بالثرثرة ، لاتقضى كل يومها فى الكلام ، فالكلام مهما كثر ، لايشغل من وقت الانسان إلا جانباً يسيراً لأن اللسان يكل والشفاه تتعب ، والسامع يمل مهما كان طروباً أو مؤدباً ، ومهما كان الحديث شيقاً أو نافعاً ، ولكن الذى لايكل ولا يمل ولا يتعطل ولا يعتريه التعب هو العقل ، العقل البشرى أداة إذاعة أبدية أزلية تتسلم فى كل لحظة وتذيع لا تتوقف ولا تتعطل ، ولاتنى ، وهذا

كله يمر بذهن الانسان وهو مايسمى تارة خواطر وطوراً أفكاراً أو لمحات أو لمعات وهى من كل نوع وجنس ولون ، ومنها السريع الخاطف والبطيء المتمهل ، ومنها القصير الوجيز والطويل المسهب ، ومنها مايكون مصدره الرؤية أو السماع أو الملاحظة أو التأمل أو إنعام النظر أو القراءة. ثم تجد أن بعضها يهيج بعضاً ويحركة ويبعثه من مرقده بسبب تداعى الأفكار association des idées ، ولايكون هذا التداعى متحداً فى النوع مطلقاً ، فإن طعم الحليب الذى تشربه الآن قد يدعو الى فكرة منظر جبال سويسرا التى شربت فيها حليباً يشبه هذا الحليب ، وقد يكون الخاطر السار مثاراً لتحريك خاطر محزن ، والصورة الأليمة تدعو صورة مضحكة، والنكتة العابرة سبباً فى تذكر مأساة مروعة ، والكلمة الظاهرة العفيفة النقية ، تهيج لدى أحدهم منظر شهوة قبيحة أو ذكرى تخل بالحياء لا يجرؤ على التصريح بها ، وقد ينتقل العقل من الحاضر الى الماضى ، ومن الماضى إلى المستقبل فى لمح البصر أو أقل ، وقد يؤدى بك خاطر من تلك الخواطر إلى عمل جليل أو مجهود منتج ، وقد غفل الناس منذ القدم عن هذه الحالة النفسية المهمة ، لأن العقل البشرى قد يحل المعضلات وقد يضع خطط

المواقع الحربية ، وقد يرسم المدن ، وقد يهيئ منهاج حياة لفرد أو لأسرة ، أو لأمة ، وقد يشفى من داء أو أدواء بدنية أو روحية ، وما الخواطر بأقل شأنا من الكلام والأفعال ٠

ولذا كانت قراءة الأفكار من أعظم مايشغل بال الناس سواء فى علم النفس أو الروحيات أو التنجيم والشعوذة ، فلشد مايهم المحقق أن يقرأ أفكار المتهم والمدعى عليه والشاهد والمدعى ، وكم يسعد المحب إذا استطلع أفكار محبوبه ، أو وقف الرجل على أفكار خصمه أو شريكه أو زوجته أو ابنه ، ولم يتنبه الى هذا الشأن للمناجاة الباطنة إلا قليل من العلماء والأدباء ، فحتموا على أنفسهم تسجيل خواطرهم ، ونصحوا الى من يحبون أن يفعلوا مثلهم ، ولو أننا توخينا الأمانة فى النقل واحتفظنا بالنصوص لأنفسنا ، لكان لذلك ثمرات وقيمة لاتقدر ٠

انظر الى الاعترافات والمذكرات فى تاريخ الأدب القديم والحديث ، إن شأنها راجع الى أنك تطلع على ماكان يجول بخاطر فلان أو فلان ، وأنت تراه فى ظروف وملابسات تختلف تمام الاختلاف عن الحقيقة التى دونّها ، وترى تفسير أقوال وأعمال قد أبهمت عليك فى وقتها ، ولكنك تدركها الآن فتعذره أو تلعنه ، فلو

أنك كنت كاتباً قصاصاً ، وقصرت عملك على [illegible]
الناس فى مكان وزمان معينين ، لوجدت أن هذا الذى دونته
يستغرق تسعة أعشار كتابك والعشر الباقى ينقضى فى الكلام
الرسمى ، أو النفاق الاجتماعى أو قضاء الحاجات التى لابد منها ،
مثل قولك « أحضر يا غلام واذهبى يافتاة ، وأين ساعى البريد ،
وكم الساعة ؟ وما ثمن هذه السلعة ؟ » الى آخر هذه التوافه
والنوافل .

ولكن ما أعظم الفرق بين التسعة أعشار ، والعشر الأخير !؟

إنها من ثدى الحقيقة ، ترضعها فتغذيك وتلقنها من مصدرها
الأصيل فتصدقها ولا ترتاب فى شىء منها ويرتاح اليها ضميرك ،
وتخالط وجدانك لصدورها عن وجدان غيرك فى حال لايؤذن فيه
للكذب بالدخول عليك .

هذه هى المناجاة الباطنة الصامتة ، لاترد الى الذهن فى
صورة مرتبة أو منظمة أو منسقة ، ولاتتبع أسبابها فيها النتائج ،
ولا تعترف بالمنطق وقواعده ، ولا يجىء فيها الماضى سابقاً
للحاضر ، أو الحاضر سابقاً للماضى ، بل ترد عليك قطعاً مختلفة
الألوان والأوزان والأحجام والطول والعرض والطعم والرائحة

والنغم، كرسائل البريد وطروده ، وكالبضائع التى ترد مخزن الإبداع من كافة أنحاء العالم، أو كالواصلين الى إحدى محطات باريس على قطار قادم من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب ، لا تشابه ولا نظام ولا صلة إلا أن تكون أسرة واحدة أب وأم وولد أو عاشقان متماسكان ، أو سجين مقيد يتبعه حارسه ، أو حمال على عاتقه حقائب مسافر بعينه ، أو توأمان متشابهان ، أو ثلاثة أو أربعة غرباء يتحدون فى زيهم ولسانهم وصورهم يتكلمون لغة واحدة كالصينية أو الهندية .

أما فى عالم الذكريات ، التى تحركها المناظر والمسموعات عن طريق التداعى أيضا ، فإن الزمان بأقسامه الثلاثة ، يتداخل ويفقد معناه ، بل كذلك تختلط الأمكنة اختلاط الأزمنة ، وقد يتداخل الزمان فى المكان ويصيران شيئاً واحداً ، وهذا أقرب شىء إلى ما قاله هيرا قليط القديم وبرجسون الجديد عن نهر الحياة فى العلم والفلسفة .

وما يقال عن الكلام كذلك ، يصح عن العواطف والانفعالات والأحاسيس والصور الذهنية ، فمن أمانة الكاتب لنفسه ولغيره أن يسجل هذه الصادرات والواردات بحسب صدورها وورودها

وأوضاعها الأصلية ، غير مقيدة بنحو أو صرف أو بيان أو بديع ، فإنها لمن يدركها غنية عن كل قاعدة وكل قانون .

وقد وردت مسألة المناجاة الباطنة أو الحوار الداخلى على ذهن أحمد فارس الشدياق وهو من أعلام القرن التاسع عشر فى الأدب العربى وعلوم اللغة وإمام النثر فى عصره ، فقال فى صفحة ٣٢ من كتابه طبع باريس : « وبعضهم قال وأنا أيضا حرجت اليوم على زوجتى بأن تطلعنى على جميع ما يخطر ببالها ويخلج صدرها من الأفكار والهواجس وبما تحلمه أيضاً فى الليل من الأحلام التى تنشأ عن امتلاء الدماغ من بخار الطعام أو من بخار الغرام قبل النيام ، وقلت لها إن لم تخبرينى باليقين أضربت بك أبانا القسيس فيكفرك ويحظر عليك ثم يستخرج منك كل ماتكتمين وتضمرين ويطلع على كل ماتسترين وتخفين وتصونين وعلى ماتحذرين منه وتحرصين عليه وترتاحين له وتميلين إليه وتكلفين به » .

وكأن جويس كان على موعد من الفارياق فأودع صفحات كتابه الأخيرة كل ما طلبه هذا الزوج الغيور من زوجته ، وجعله على لسان « فارجون ليوبولد » أو «مولى» – تريزا تدليلاً – زوجة ليوبولد بلوم بطل كتابه « عولس » ، وكأن كاتب الشرق كان قد ألهم أن

سيأتى بعده رجل ذاق من الحياة مثله وهاجر واغترب يغوص بحار اللغات وأنهارها مثل ما غاص على جميع اللآلىء فى مؤلف واحد منتسق وليستخرج بأسلوبه ومنهجه ماتاق له الزوج الغيور فى كتاب « الساق على الساق » .

وهكذا تكمل العبقرية نفسها ولو بعد خمسين عاماً ، والأرواح العالية والنفوس الطيبة والخواطر البارعة تلتقى وتتجاذب كما قال الفرنسى العقول العظيمة تتلاقى: Les grands esprits se rencontrent . فما رأينا فى العربية كتاباً يشبه عولس فى منهجه وبعض محاسنه غير الفارياق ، وبين المؤلفين شبه شديد فى العبقرية وفى الفقر واليتم والهجرة والاجتهاد والتفكير .

وقد وجهت الى الفارياق نقود ظالمة كالتى وجهت الى جويس لأنه هو الآخر هاجم رجال الدين وتناول المسائل النسوية بشىء من الحرية ولامس السياسة من بعيد ونقد الأجناس والأمم والحكومات ، وحارب الأدعياء والمغرورين ، وكلاهما اشتغل بالحرف الأدنى والأوضع من مكانته لينال الرزق الذى يعينه فى وطنه وفى الغربة على خدمة المواهب الأرفع من حظه ومن تقدير الناس فى بداية أمره.

ومسألة ثانية تدل على صواب جويس فى منهجه وتسجيل الخواطر والحوادث وصدق فراسة الشدياق ما رواه فى صفحة ٣٤ عن بعير بيعر (الأمير حيدر) الذى استدعى الشدياق لنسخ دفاتر كان يودعها كل ماكان يحدث فى زمانه إمساكاً للحوادث من أن تنفلت من مدار الأيام أو تنفك من سلسلة الأحوال ، لأنه رأى أن إحضار الماضى وجعله حالاً منظوراً من الأمور العظيمة ، قال الشدياق :

« ولذلك كانت الافرنج حراصاً على تقييد كل مايقع عندهم ، فخروج عجوز من بيتها صباحاً وعودها فى الساعة العاشرة وهى تقود كلبها والريح عاصفة والمطر واكف لايفوت أقلامهم ولا يعدو خواطرهم » .

واستشهد على ذلك بما كتبه « لامرتين » فى ديوانه « التأمل الشعرى » وفى رحلة شاتو بريان الى امريكا وهما أعظم شعراء عصرهما فى فرنسا .

وختم الشدياق هذه النبذة بقوله « فإذ قد عرفت هذا فاعلم أن اعتراضك علىّ فى إيراد ماهو غير مفيد لك لكنه مفيد لى لا يكون إلا تعنتاً ، فإن هذين الشاعرين (لا مارتين وشاتوبريان) كتبا

ماكتباه ولم يخشيا لومة لائم ولم يعترض عليهما أحد من جنسهما ، وقد اشتهر فضلهما وصيتهما » ٠

وذكر الشدياق أن بعض الجهلاء من أمراء الشرق كان يصادر الكتب ويحرقها (ص ٣٩) ، ومن الكتب التى أحرقت كتاب ورد فيه هذا البيت :

وذموا لنا الدنيا وهم يرضعونها   أفاويق حتى ماتدرّ لنا ثغل

لأن الأمير ظن فيه تعريضاً برجال الدين وتلميحاً إليهم فأمر بإحراقه ، فأحرق وذرى رماده ٠

وقرأ فى كتاب غيره :

ما بال عينى لا ترى من بين من   لبس السواد من العباد نحيفا

ما كان من لحم وشىء وغيره   فيهم فأصلب مايكون ٠٠٠

فأمر أيضا بإحراق الكتاب وبعث جواسيس فى البلد يتجسسون عن مؤلفه !

وهذا حدث فى انجلترا وايرلندا واستكولاندا وسائر بلاد الأمبراطورية البريطانية فى سنة ١٩٢٢ ومابعدها بشأن كتاب «عولس» ، فما أشبه الغرب بالشرق واليوم بالأمس ! ، وقد قال شاعرهم الاستعمارى « ردبار كبلنج » الشرق شرق والغرب غرب

ولن يلتقي التوأمان إلا يوم القيامة تحت قدم الرحمن وقد نصب العرش وقام الميزان .

وها هما قد التقيا في ظرف ثمانين عاماً من زماننا الحاضر، فبدأ الشرق بمصادرة الكتب وإحراقها ومطاردة مؤلفيها فى سنة ١٨٤٠ وتبعه الغرب فى سنة ١٩٢٢ أى بعده بثمانين عاماً ، وقبل ذلك بعشرين عاماً اضطهدوا « أوسكار وايلد » وتنكروا له وعذبوه وسلبوه حقوق الحياة والتأليف والارتزاق من شعره ونثره حتى بعد أن قضى عقوبته ودفع دينه للمجتمع سواء أكان حقاً أم باطلاً ، وديناً صحيحاً أم مفترى ، وهذا على ذنب لم يظهر له أثر فى كتبه وشائبة لم تشب أدبه المكتوب وفنه الرائع فى مقولاته وقصصه ومسرحياته ، وهو الآخر مواطن لبرنارد شو ولجيمس ، وظنى بهذا الأخير أنه لم ينج من مخالبهم ولم يذهب فريسة لأحقادهم وتعصبهم ولم يكن من كباش ضحاياهم إلا لأنه عاش أربعين عاماً بعيداً عنهم ويأمن من الوقوع تحت سلطتهم أو الخضوع لقانونهم ، فلم تمتد اليه يدهم وراء حدود بلادهم .

فهذا العمل الضخم العظيم الصعب الجليل الجميل ، المنهك اللذيذ ، الثمين النادر ، الذى قام به جيمس جويس فى كتابه عولس،

أعطانا صورة كاملة لحياة مئات من الناس فى مدينة دبلين يوم الخميس ١٦ يونيه ١٩٠٤ لمدة ثمانى عشرة ساعة ، وقد اتخذهم نموذجاً للجنس البشرى فى حياته العادية وجميع أفراده وجماعاته متشابهة ٠

فكم طيرا أصاب بحجر ؟

أولا : أصاب وحدة الزمان ٠

ثانيا : وحدة المكان ٠

ثالثا : وحدة التفكير والعمل ٠

رابعا: سجل صورة خالدة لا تستطيع الحصول عليها بحقيقتها لو قرأت مالايحصى من الصحف والكتب وفهمتها وحللتها وتحريت الوصول الى الحقيقة فيها ٠

خامسا :تغلب على عقبات وصعوبات فنية لا يدركها إلا من حاول تسجيلناحية من الحياة فى العصر الحديث الذى يعيش فيه ، لأن التخيل عنالماضى سهل وأسهل منه التكهن بالمستقبل ، أما تسجيل الحاضروالواقع فهذا مادونه الأهوال ٠

ليس بين النقد والتهكم والهجاء إلا خطوة ، وقد أنطق جويس أبطاله الذين لا عدد لهم والذين حشدهم شيباً وشباباً ، وفتياناً

وفتيات ، عذارى وثيبات ، بما شاء من نقد لاذع وسخرية محرقة ، وهجاء موجع لأعدائه ، وهم أعداء العدل والحق والجمال ، وفى مقدمتهم قوم من بنى وطنه ، وآخرون من حكامه المستبدين المتنطعين، وقد تحمل طويلاً وصبر كثيراً حتى آن أوان الثأر فناله كاملاً وشفى غليله وغليل كل مظلوم ومحروم ومهضوم فى الغرب والشرق ، وكان أول تهكمه على قواعد اللغة وتقييد الألفاظ والجمل وإخضاع المعانى للنحو والصرف ، وتمسك الكتاب بها ، فذلل اللسان وأخضعه لإرادته وتصرف فيه تصرف المالك ، وخلع عليه من فنه جمالاً وجلالاً وجدة ونضارة ، ثم أخذ يسخر من أنواع الاستعارة والكناية التى ملأ بها شكسبير مسرحياته وهو يبحث وراء حقيقة حسب الشاعر القديم ونسبه وعلاقته بالملكة اليزابيث ، ونقض المتهوسين الذين زعموا أن صاحب تلك المسرحيات المنسوبة لشاعر سترافورد أون آفون ليس إلا دوق رتلاند ، وهو نبيل خامل ، وكان جويس قد لقى صاحب هذه النظرية العرجاء أثناء إقامته فى سويسرا ، وعالج أخلاق زوجة شكسبير وما قيل عن عفتها أثناء حياة زوجها ، وحاول أن يثبت أن شكسبير هو همليت نفسه بطل المأساة الشهيرة ، أى أن الشاعر متسلسل من أصل ملكى لم

يصـرح به ، ولكنه كان مـفـهـومـاً من الحظوة التى نالهـا فى بلاط اليزابيث الملكة البتول !! وظل يفعل هذا وغيره حتى شبع .

وكيف لا يتـهكم من الانجليز ، وهم لم يفهموا كتابه ، فتآمرت سلطات الشـرطة ودواوين الجمـارك والصحـافـة على مـقـاومـتـه ومـصـادرته ، فكتبت بعض الصـحف عن فضـيـحـة جويس ، كـمـا صنعـوا من قـبل بـأوسكار وايلد ، وحـذروا القـراء من ذلك الكتـاب اللعين .

لقد حـسب الانجليز فى مبدأ الأمر أن عـولس (يوليسـيز) كتاب جديد فى الأدب المكشوف ، لا وزن له ولا خطر حتى دلهم عليه كاتب فرنسى اسمه فاليرى لاربو فى نقد كتبه عام ١٩٢٢ ، فبدأت حـملتـهم عليـه لأنه لم يكن فيـهم من يستطيع أن يحل رمـوزه ويفك مـغاليقه أو يكلف نفسه مشقـة قراءته من أوله الى آخـره ، ومنعت الرقابة دخول المخطوط معه إلى إحدى المدن لأنهم ظنوه نوعاً جديداً من الشـفـرة السـيـاسـيـة ، حـتى توسط بعض أهل الفـهم والخيـر ، وأقنعوا الرقـيب أو الرقبـاء بأنه كتاب جديد فى الأدب ، وأنه ليس إلا قصة مكتوبة على نسق القصص الاغريقى القديم وتقسيمه وترتيبه ، فتظاهروا بالاقتناع لئلا يثبتوا غفلتهم وتنطعهم .

كيف لا يتهكم جويس وقد انبرى له المنافقون من المؤلفين مثل شو الذى ذكرناه ثم د٠هـ٠ لورانس المؤلف الإباحى المتهتك ، مؤلف عشيق لادى شاترلى ، وهو أفسق كتاب خطه مؤلف فى لغة الانجليز (وهم كثر) ، وكفى خزياً أنه جاهر فى بعض كتبه بأنه عشق أمه عشقاً محرماً ! لأنه نما وترعرع فى حضنها بعد ترملها ، وكاد أن يقول بل قال « أمى معشوقتى » !! ، هذا الرجل المريض الشاذ بكل علة فى جهازه العصبى وفى مركز الشعور الجنسى كتب هو الآخر ينعى على جويس ويقول « يا إلهى ! إن جيمس جويس خليط متعفن، لا انسجام فيه ! فما له إلا مقتبسات من الكتاب المقدس وغيره من الكتب طبخت معاً كما تطبخ بقايا الكرنب وحثالة المأكولات ، إن الملل يقتلنى حين أقرأ جويس لأنه دعىّ ومتصنع ٠٠٠ إلخ » ٠

وإن صح لبرنارد شو أن يشتم جويس تقرباً إلى سادته واحتفاظاً بمكانته فى سوق الكتب وتحت جناح السلطة البريطانية الحامية لوطنه القديم ، فكيف يحق لهذا الكاتب المتهتك الفاجر د٠هـ٠ لورانس أن يصف يوليسيز بأن قوامه العهارة المقصودة (كذا) ؟ ، وأنه أدب غث خال من الحيوية والتلقائية ؟

ذلك أن جويس أغلق باب التأليف فى وجوه هؤلاء جميعاً

وحرمهم من كل قارىء فطن يحب الفن ويدركه ويسعى اليه ، وقد بدت كتبهم التى نفقت سوقها واشتهروا وأثروا بسببها كأشلاء الرمم لا يقبل عليها أحد إلا ليواريها خوفاً على الخلائق من نتنها وتعفنها .

ولكن جويس لم يتعرض لواحد من هؤلاء النقاد بذاته ، وقد صان قلمه عن أن يدنسه بالرد عليهم ؛ ولكنه عمد الى أربابهم وسادتهم وهياكلهم فحطمها جميعا وخربها على رؤوسهم ، ومادامت الضربة أصابت الرأس فليس للأذناب إلا المآل الذى آلت اليه .

لقد جاء جويس بعد وقته وقبل وقته فى آن ، بعد وقته لأن مكانته كانت فى عصر هو ميروس وسوفوكليس وايشيل واوريبيد ، وقبل وقته لأنه لم يؤن الأوان فى هذا المجتمع أن يفهم هذا الرجل أو يقدره حق قدره ، لأن كتابه مايزال مختوماً كقبره ، يمر به الناس ولا يعرفونه ، وهو العارف بكل شىء ، وهو مثال الإنسان المثقف الكامل فى القرن العشرين ، ولا وطن له إلا العالم كله ، ولا دين له إلا الحب والعدل والحق ، ولا ثروة له إلا فنّه ، ولا ميراث له إلا ما تركه تراثاً للإنسانية كلها ولم يختص به بنتاً ولا ولداً ، ولا تاريخ له إلا تاريخ أيرلاندا المعذبة والأدباء المنكورين لأنهم مجهولون ، فهو

جبار كأبطال الاغريق ، وفحل كشعرائهم ، وحكيم كفلاسفتهم ، ولم يكن متطرفاً إلا فى جده وجهاده واجتهاده وفى عزمه وصبره على المكاره والشدائد .

(٦)

لماذا اختار جويس اسم (عولس) عنوانا لكتابه ؟

اختار جويس اسم " Ulysses " لكتابه عنواناً ، وترسم خطى هوميروس فى بناء ملحمته المعروفه باسم أوديسة ، لأنها فى نظره ونظر كثير من أهل الفن متناسبة البناء منسقة الأجزاء ، متماسكة الفصول متضامّة الأقسام ، واسعة الآفاق رحبة الفناء ، مترامية الأطراف ، واضحة المعالم ، أشخاصها آلهة وملائكة وملوك ، وبطلها رجل اشتهر بالحنكة والحذر والذكاء والسحر الحلال ، عميق التفكير ، شجاع القلب كان ملك اتيكا فى بلاد الاغريق ، وهرع مع من هرع من الأبطال الى حرب طروادة وخاض غمارها ولكنه نجا من وطيسها ، ولم يصرع بل لم يجرح وإن لم يكن من أقران أخيل وهكتور وإيناس الذين تغنى هومير ببطولتهم ومخاطرتهم فى الإلياذة مما أدى الى موت بعضهم فى مقتبل العمر ٠

ولم يكن يوليسيز بطل الأوديسة ضارباً بسيف وطاعناً برمح وفاتكاً بالأعداء وغازياً لقلوب العذارى والكواعب الثيبات مثل باريس

ذاك الذى خطف هيلانة زوجة مينلاوس وأشعل نار الوغى بين الإغريق وأهل طروادة ، بل كان عولس بطلاً من نوع حديث ، ومن نوع أبطال أوروبا فى العصر الحديث أمثال مترنيخ وبسمارك ، بطولته وكفايته فى دهائه وإصابة رأيه وحذقه ومكره وبراعته فى الخروج من المآزق ، وتغلبه على المشكلات مهما تعقدت ، وخلاصه من الأخطار والخطوب مهما عظمت وادلهمّت، ونجاته من المؤامرات مهما تفاقمت أخطارها وأتقن الدهاة تدبيرها ، كأنه صدى المتنبى القائل :

الرأى قبل شجاعة الشجعان　　　هو أول وهى المحل الثانى

والبطل الثانى تليماخوس ابنه وفلذة كبده الذى خلفه يافعاً فى مقر ملكه فى حضانة أمه الملكة أو الأميرة بنيلوب ، الزوجة الفاضلة والأم الرؤوم والقرينة العفيفة الصبور الحافظة شرفها وعهدها ، والوفية لزوجها وابنها ، وقد أحاط بها رجال وفرسان كالعقبان والغربان ، قدموا من الجبال والوديان القريبة والبعيدة ، يتوددون للمرأة التى غاب بعلها غيبة كادت تكون منقطعة ، ويخطبون ودها بعد أن طمعوا فيها وظنوا زوجها لايعود ، كما طمعوا فى ملكه وعرشه وثروته وقصره ، واستضعفوا الولد وظنوا

الزوجة المهجورة فى حكم الأرملة قبل الأوان ، فتزاحموا عليها ، كل يبدى شجاعة وفروسية ، ويعرض قوة بدنه وجمال وجهه وحسن بزّته وتمام سلاحه ، وتكاثروا وتزاحموا وتنافسوا وتشاحنوا وتشاجروا وتراهنوا على أن ينال أحدهم يدها ليظفر بالملك والقصر والتراث والمال ، وكلما وردت الأنباء بنعى الزوج الغائب غلت مراجل الطمع فى قلوب هؤلاء الخاطبين الراغبين فى الزواج ٠

ولكن بنلوب الوفية الأمينة لا تصدق النعاة ولا تؤمن بخبر وفاته ، ويحدثها قلبها بأنه مايزال على قيد الحياة ، وأنه سوف يعود عما قريب إلى وطنه وعرشه وأهله ووليده ، فاتبعت صوت وجدانها وأصغت الى قلبها فيما يحدثها ، وأخذت تتحايل على هؤلاء «الفتوات» المغامرين الطامعين ، وتعدهم تارة وتتوعدهم طوراً ، وتجاملهم حيناً وتخاشنهم أحياناً ، وقد احتلوا البيت وأقاموا ما أقام جبل أولب ، يأكلون أجود الطعام ويشربون أعتق النبيذ ويقطفون أشهى الثمار فى بيت الرجل وحقوله وكرومه ، وقد اتخذت بنلوب من غزْلها وسيلة لصدهم عن غَزَلها ، فتغزل المفارش والمطارف فى النهار وتستمهلهم حتى تفرغ من صنعها ، حتى اذا جن الليل حلّت خيوطها وفكت رباطها ونقضت غزلها ٠

ويعجبنى أن القرآن الكريم أورد هذا المثل ، ولا يبعد أن يكون مصدره أسطورة بنلوب ، لأن الله بكل شىء عليم وهو الذى أوحى الى هومير وغيره من الشعراء الهداة الصالحين ما أوحى ، فقال سبحانه وتعالى فى الآية ٩٢ من سورة النحل « ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة إنما يبلوكم الله به ، وليبين لكم يوم القيامة ماكنتم فيه تختلفون » .

وظاهر الآية أنها موعظة للمسلمين الذين كان بعضهم يرتاب فى مستقبل الاسلام لقلة عدد الأمة العربية بالنسبة للأمم الأخرى ، ومدارها الاعتبار بغريزة النحل وكانت بنلوب تتبع غريزتها فى العفة والوفاء وتعمل بجد ونشاط كالنحل .

والسورة تبدأ بقوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » . وهذه الصفات النكراء (الفحشاء والمنكر والبغى) قد اتصف بها الرجال المتزاحمون على النحلة الفاضلة الدؤوب فى خليّتها وهو بيتها ، وأن الأم وولدها على قلتهما وضعفهما سيتغلبان على الفئة الباغية فى النهاية إذ ينصرهما الله بالوالد البطل ليبين

لهؤلاء الرجال يوم القيامة ماكانوا فيه يختلفون ، وقد قامت قيامتهم فعلا إذ قتلوا جميعاً وظهر لهم أن اختلافهم كان بغير نفع يعود عليهم .

إذن كانت بنلوب تنقض غزلها من بعد قوة أنكاثاً زاعمة للخطاب المتهافتين أنها سوف تبتّ فى أمر اختيار أحدهم حين تفرغ من غزلها ، ولكنها لاتفرغ من غزلها أبداً الى أن يأتى زوجها وولدها ويقضيان على أعدائهم جميعاً .

ولم يكن اختيار جويس للأوديسه واتخاذها نموذجاً لعظمتها الفنية وحسب ، بل لأوجه شبه شديدة بينه وبين أحد أبطالها تليماخوس ، فهو يبحث عن أبيه ، لا لأن والد جويس مفقود أو غائب، بل لأنه فى حكم المفقود ، فقد كان والد جويس على قيد الحياة عاصر ولده وحاول إنباته نباتاً مخالفاً لمواهب الفتى ، كما كان غليظ الفؤاد ، مدمناً عربيداً ، وقد آلت حاله الى ماهو أسوأ من غلظة الفؤاد ، فقد صار سكيراً لا نفع فيه شقيت بسبب حاله أم جويس ، وهى تلك المرأة الصالحة التى بدأت حياتها بحال أعظم وأحسن وأفضل مما كان عليه جويس نفسه ، فثبت فى ذهنه أن أباه هذا لا يصلح أن يكون والداً ، فهو فى سبيل البحث عن والده كما

فعل تليماك .

أما أمه الفاضلة العفيفة الصبور القانتة المجتهدة التى ماتت فى سن أقرب الى الشباب ، فشبيهة ببنلوب وقد حفظت شرفها وعرضها وأحبّت ابنها جويس ودللته ولاطفته ودافعت عنه وأحاطته بعنايتها فكافأها على ذلك كله بعصيان أمرها وهى تجود بأنفاسها الأخيرة ، إذ طلبت منه أن يركع بجوارها ليصلى الى الله صلاة الرحمة والمغفرة ، فأبى ، فلما قضت نحبها لم ينس هذه المعصية طول حياته، فكأنه وتليماخوس معذبان بمشاكل الأسرة منذ نعومة أظفارهما ، وكلاهما تفككت أسرته لغياب الزوج أو ضعف أخلاقه ، وكلاهما - جويس وتليماك - غريب بين قومه وغريب فى داره وقد هاجر وهرب وأبق وفرّ أحدهما ليبحث عن والده ولينقذ شرف أمه وليصون عرش أبيه وكيان البيت ، والآخر لينجو بنفسه ، وليبحث عن المثل الأعلى فى الفن وليحفظ مواهبه ويضمن نموها ونضجها بعيداً عن منابت السوء وقد فاز كل منهما بأربه وغايته وحقق فى نهاية الأمور أمله .

هذه هى أوجه الشبه الشخصية التى دعت جويس لاختيار هذا النموذج الإغريقى القديم ، الى جانب جماله وإتقانه وبراعة

إخراجه وحبكة ودقة صنعته .

أما سكر والد جويس وعربدته ، وقد اتخذ منه خصومه مغمزاً ومطعناً ووسيلة لوخز الإبر وتعبيراً وتأنيباً لا محل لهما ، فلم يكن حدثاً فريداً بين نوابغ الأدب الذين ابتلاهم القدر بوالد لايليق بكرامتهم ومواهبهم وعزتهم أن ينسبوا اليه ، فإننا نقرأ فى كتاب تولستوى « طفولة وحداثة وشبابا » مايذهلنا ، لأنه وصف أباه وصفاً شائناً وأظهره للملأ عربيداً سافلاً وقد رآه على تلك الصورة وحملته صراحته المدهشة على المجاهرة بذلك ، لأن تولستوى كان من صفاء الذهن وقوة الإرادة وحب الحق بحيث يجرح شعور قرائه أحياناً ، فضلاً عن أهله وذويه ولكنه لا يبالى.

وما الدهش وجرح الشعور وخدش الأذهان التى سببها تولستوى إلا لأن الناس تعودوا النفاق الاجتماعى ودرجوا عليه ، ونظروا للدنيا نظرة غامضة متسترة متساهلة كلما اتصلت الأمور بذنوبنا وعيوبنا .

ولكن تولستوى الحكيم المصلح ، يعتقد أنه يكذب ويجانب الحق لو أنه فعل ذلك ، ثم إن الناس درجوا على أن يعدوا الولد مذنباً عاقاً جحوداً إذا عاب فى حق والده أو انتقده ، ولم يصحب

ذكره - خصوصاً بعد موته - بصفات الفضيلة والكرم والشجاعة والرحمة والنخوة ، حتى ولو كان خلواً منها · ولكن تولستوى لا يضحى بالصدق وبالحق فى سبيل المجاملة الاجتماعية أو الظهور بمظهر الأدب نحو والديه أو أحدهما ، وهو لايحمل حقداً لأبيه ، ولا يعتب عليه ولا يلومه ، ولكنه يصفه لنا على علاته وصفاً دقيقاً ، وهو أيضا يصف نفسه كما يراها ويصف أبطال قصصه على حقيقتهم ، ويدعونا الى احترام تولستوى أنه لم يخف حقيقته عن نفسه أو عن قرائه وهو الذى لم يغتفر لأبيه زلة السكر والعربدة ، فقد قضى الفيلسوف المصلح بعض أعوام شبابه فى عيشة الترف والبذخ والحرية المطلقة ، كما كان يعيش السادة فى عهد الرق والاستعباد فى روسيا القيصرية ، وأطلق لنفسه العنان ولم يقف بها عند حد ، ومرت هذه الأعوام فى القوقاز ، وهو يتقلب فى أحضان الطيش واللهو ، قال « عشت فى هذا العالم خمساً وخمسين سنة فوضوياً عدمياً (نيهيليست) Nihilist بكل ما فى هذه الصفة من معان لا ثورياً ولا اشتراكياً بل (نيهيليست) أى خارجاً على كل النواميس والشرائع والقوانين » ·

فيكون جويس شبيهاً بتولستوى فى الصراحة وحب الحق ،

ولكن الزمان لم يسعف جويس بعراقة الأصل وطيب الأرومة وكثرة المال وشرف المحتد وسعة الرزق والتقلب فى مناصب البلاط ومخالطة النبلاء واللعب بقلوب العذارى ، ثم العودة الى حظيرة الفضيلة فى ختام العمر والتوبة النصوح فى ظل الأسرة ومقاطعة النبيذ ولو كان دواء .

وذلك الخلاف بينهما لأسباب كثيرة ، لأن البيئات مختلفة والثقافة مختلفة والفنون متباينة والمواهب قد تكون متناقضة ، ولأن تولستوى عمر ثمانين عاماً لم يشعر فى يوم واحد من أيامها بضيق أو عسر أو كرب بسبب المال أو الاغتراب أو ازدراء الأغيار ، ولم يشعر بذل الحكم الأجنبى ولا بظلم الحاكم القومى ، فإن القياصرة كانوا يحترمونه ويوقرونه ويعززونه ويقرأون كتبه ، ويصغون الى نصحه ، وكان الحكام من ورائهم يهابونه ويحسبون له حساباً ، والشعب كله يتبعه ويهتف باسمه ، وقد مات فى ديسمبر سنة ١٩١٠ فى إحدى محطات السكة الحديد ، لأنه فر (هو الآخر) فى آخر أسبوع من عمره الطويل من بيته مغيظاً محنقاً من سخافة الكونتيسة زوجته وشحها ولؤمها وثرثرتها ولجاجتها ، فهاجر الى الله وحده ليلقى ربه منفرداً ، وقد لحقت به ابنته المحببة وطبيبه

المخلص وقضى نحبه بين أيديهما .

ولو أنه عاش وأدرك جويس لأعجب به وبعمله ، ومجّده وباركه وبشّره بالخلود كما فعل آرثور سيموندز وأرنولد بنيت وستوارت جيلبرت وازرا باوند وعشرات من نوابغ الشعراء والكتاب والنقاد الذين خلت قلوبهم من الحقد والحسد ، لأنه اتخذ نموذجاً إغريقيا هوميرياً وبذّ هو ميروس ، لأن هومير نظم قصيدة انطوت على أساطير وأدخل فيها الآلهة والأرباب والإنس والجن والسحر الحلال والحرام ، ولعب فيها الدين دوراً مهماً .

أما جويس فقد تصدى للعصر الحاضر ولم يستعن بأبطال هوميروس فى الأرض والسماء ، فكان عمله أشق وأدق وأمجد وأبهر من الأوديسة ، لأن موضوعه ملحمة العصر الحاضر .

إن أكبر شاعر أو ناثر يستطيع أن يروى ما قرأ وما سمع فى الكتب وعلى أفواه الرواة والقصاصين بإتقان ، حتى لينتزع إعجابك، وشكسبير نفسه وضع مسرحياته نقلا عن قصص إغريقى وروماني وإيطالى وفرنسى وتاريخ إنجليزى وشرقى ولم يكن مبدعاً إلا فى الأسلوب ، لا فى الابتكار والمنهج ، وكذلك جوته اتخذ من أسطورة الدكتور فاوست المعروفة المقروءة موضوعاً لملحمته الخالدة ، وكذلك

ملتون عالج الخليقة الأولى وخلق آدم والشيطان وماجرى بينهما فى رياض الجنان ، ووصف الجحيم والنعيم ومعارك الحديد والنار بين الملائكة والشياطين وكل هذا عظيم وجليل وله قيمته الكبرى .

ولكن جيمس جويس مارس وكابد وعالج مايعجز عنه الفحول، وهو تسجيل العصر الحديث الذى عاش فيه ، وهو أصعب عمل أدبى فنى يضطلع به شاعر أو ناثر ، لأنك تكتب مائة صفحة فيما قرأت أو سمعت منقولاً مروياً ، ولكنك تعجز عن تسجيل ما ترى بنفسك ، لأن كل خاطر وكل واقعة أو حادثة ترد على الذهن عن طريق المشاهدة الحسية فى حاجة الى زمن للاختمار والنضج والتمكن والإعداد للظهور على صورة ملائمة ، وهذا يحتاج الى الاستقرار واليقظة والذاكرة القوية وحسن القياس وكمال الإدراك والتمييز ومراعاة السياق وإتقان الصياغة ، وهى صفات تكتب على الورق بسهولة ، ولكن مجرد إدراكها شديد الصعوبة ، دعْ عنك تنفيذها ، ومثلها وصف رحلة تسمعه ، أما مثل العمل نفسه فهو ركوبك متاعب الرحلة ذاتها وما يسبقها من تجهيز وإعداد واستعداد وما يصحبها من مشقات ومتاعب لا حد لها .

وكان جيمس دائم الارتحال دائب التجوال ، لا يقر له قرار ،

ونادراً ما يضع عصا التسيار أو تستقر به النوى ، صحبته الخيبة في ظروف كثيرة ، وكان مثقلاً بالديون معانياً فى طلب الرزق مشتت الشمل فى الغربة ، غربة الجسد والروح ، كل نقلة له من مكان الى مكان بمثابة فتح جديد لجيش أقل عدداً من الجيش المدافع ، فهو فى حاجة الى انتصار جديد يواتيه كل يوم ، وفى حاجة الى الميرة والذخيرة والمدد والعدد ، وفي ظلمة هذا الليل وفى وسط هذه العواصف وفى حيرة الرحيل المفاجىء ، وحسرة البصر الضعيف والعين الجريحة ، أمكنه الله من هذا العمل العظيم ، وهو تسجيل الحاضر واستحضار الماضى بذكرياته لبناء صورة المستقبل المجهول فى أسلوب بل أساليب لم يسبق لها مثيل .

فمما لا ريب فيه أن جيمس جويس كان عبقرياً خالداً ، وأنه أدى زكاة العبقرية وسدد دينها ودفع ضريبتها كاملة ، فالعبقرية الإنسانية نقمة فى ثوب نعمة، وهذه حقيقة أزلية لاتتبدل بالانعكاس ، فقل إنها نعمة فى ثوب نقمة ، وأنها للرجال كالجمال للنساء ، وقديماً قال حكيم فرنسى « الجمال لعنة الآلهة » وهذا قول يبدو غريباً ولكنه صحيح إذا اعتبرنا الجمال عبقرية كاملة ، وسواء أكان الجمال ظاهراً أو باطناً ، أى جمال الوجه أو جمال العقل والروح ،

فهو العبقرية ، والعبقرية نعمة وغنيمة للناس لأنهم وحدهم يستمتعون بها ويستغلونها ، ونقمة لصاحبها لأن العبقرى لايستحسن نفسه ولا ينتفع بها ، وإنما ينتفع بها الناس ، وكل استمتاع ونفع للغير يكلف الذى يبذله من نفسه ومن دمه وحياته ، والإعجاب الذى يبديه المنتفعون أو المتلذذون أو المستغلون لخيرات العبقرى كإعجاب مالك الجواد السابق الذى يعد للسبق من جديد ، وكل مايبذل له من خير صحيح أو خير كاذب كالتمليق والمداهنة فإما يكون أجراً تفهاً يسترد بأضعاف أضعاف ربحه لأنه فرصة سانحة ، وإما يكون خداعاً وتحريضاً ليستمر العبقرى فى بذل جهوده التى تعود على الغير بالخير ونادراً ماتعود على مصدر الخير نفسه بشىء ، وكثيراً ماتعود عليه بالشر ، وهذه الحالة صادقة فى حال كل عبقرى قديماً وحديثاً ، سواء أكان قائداً أم شاعراً أم طبيباً أم خطيباً أم كاتباً ، ولم يهم المستغل شيئاً من ذلك بل هى مسألة استغلال ليس إلا ، فإن دأب العبقرى أن تنصرف أعماله للنفع العام ولنفع الغير ليس إلا ، ويكون بطبعه متواضعاً راضياً بالقليل قانعاً زاهداً لا يجلب لنفسه فائدة، وقد يهمل ذويه وأقرب الأقربين اليه فى سبيل خدمة الأباعد وله من الكرامة وعزة النفس

والإباء مايصونه عن الابتذال .

وقد ترى من حوله من مستغليه - وقد وضع لهم اسم خاص بهم Genvis Victimisers - غـارقين فى النعم المادية ، بينا هو ينسى نفسه ، كما تنساه الطفيليات التى تمتص دمه وتعيش على عصير دماغه ونخاع عظامه ، بل على أعصابه وعضلاته ولحمه ودمه ونور عينيه وشغاف قلبه ، ولا نحب ضرب الأمثال لأن كتاباً ضخماً لا يكفينا .

وإنما خذ مثل جويس وحده فقد تشتت شمله وترك أهله ووطنه فى العشرين من عمره ، وقضى أربعين عاماً فى الغربة ، وفى تكبد المشقات فى الدرس والاستعداد لعمله وفى التنقل من مكان الى مكان من أقصى أوروبا الى أقصى الجزر البريطانية فى سبيل النجاح المرتقب ، ولا يكاد يناله ، ثم يسعى طوال حياته فى سبيل الرزق فلا ينال إلا النزر اليسير ، وقد انبرت كل العناصر لمعاندته ومحاربته ، فوالده سكير مـأفون يضيع ثروة الأسرة ثم يبدد أوصالها ، ويهدم الدار التى ورثها على رؤوس أولاده وبناته ، ويبلغ جويس أشده فيجد نفسه ساعياً الى الهيجاء بغير سلاح ، كقول الشاعر العربى :

أخاك أخاك إن من لا أخا له   كساع الى الهيجا بغير سلاح

ومرغماً على أن يخوض غمار الوغى ، ويتحمل صدمات الصراع ، فى حومة حرب شعواء عجوز شمطاء ذات عدة رؤوس بل تنّين فاغر أفواهاً تريد أن تلتهمه .

صراع سياسى لتحرير ايرلندا ، وصراع اجتماعى لرفع مستوى المعيشة والثقافة فى البلاد المستعبدة والجزيرة المحتلة ، وصراع دينى بين الكثلكة وحرية الفكر ، وصراع عقلى بين القديم والجديد وثورة الفنان العالمى الذى اتسعت آفاقه ، وتمددت نفسه حتى تجاوزت الأقاليم وحدود الممالك ، وثورة على القوانين السياسية والاقتصادية والعمرانية ، وحرب بينه وبين أبيه وذويه ، يريد الفوز فيها ليتحرر وينجو بنفسه بعد وفاة أمه وثورته الفردية الكامنة التى ترقى الى النمو الفكرى ، كثورة المراهقة التى قد تؤدى بصاحبها أحياناً الى مايقرب الى الجنون ، وثورة على القوة الخارجية .

رجل مخلوق للمستقبل ، مولود فى الماضى يريد أن يخترق الحاضر ، فيمرق منه مروق السهم الرائش ، وفوق هذه الحروب كلها صراع عواطفه وحبه وميوله واستمتاعه بحياته ، وهو مالا يناله إلا لماماً ، فلو لم يكن جويس عبقرياً فذاً ، لهلك وتحطم وانطوى ،

وورد فى مقتبل العمر سجل الموتى ، ولحق بدنجام الذى يصف جنازته فى ثمانين صفحة من أبلغ ماكتب فى اللغات الأوروبية ، ولسجلت الصحف نعيه كما تسجل وفاة أى أديب ناشىء كان يرجى له مستقبل زاهر ، والذين كانوا يكتبون رثاءه هم الذين ساهموا فى قتله وأناخوا عليه بكلكلهم حتى قضوا عليه .

(٧)

الأدب المكشـوف

لقد فطر الذكر من جنس الإنسان على الحب والغزل وتدوين أخبارهما سواء أكان موضوع مايسجله أدباً مستوراً أم مكشوفاً ونثراً بليغاً أم شعراً عالياً ، فإن رؤية الوجه الصبيح تنفى همه وتريح باله وتخلى بلباله ، وتحرك همته وتخفف أثقاله وتنفس عن كربه وتجلو صدأ قلبه ، ولذلك كان فى شعراء الإفرنج الأقدمين من المجون أكثر مما تجده فى أدب العرب ، لأن الحب كان محظوراً ممنوعاً بحكم الدين وعرف الآداب ، فلما مل النساء من فضائل العفة والحجاب والقناعة بالصلات المشروعة وتخلقن بأخلاق أخرى مجاراة للزمن واستغلالاً لضعف الرجال وانحلال الأخلاق ، كما يحدث فى أواخر الحضارات ، قل المجون عند الافرنج والعرب لزوال سببه ، ولأن ما كان يرمى اليه العاشق الماجن أو الناثر المتيم قد أصبح قريب المنال ، فلا حاجة لكاتب مثل رابليه ومونتنى ، ولا شاعر كراسين وكورنى ، ولا لمؤلف روميو وجوليت ، حتى ولا دانتى

الذى احتاج الى روح معشوقته بياتريس لتصحبه فى رحلته الى نعيم الجنة وجحيم النار ، إلى الإلحاح فى المجون أو مناشدة المحبوب أو الإفراط فى الغزل واستغنى شعراء الحرب عن الغزل جملة فى استهلال قصائدهم واستهجنوه ، وأصبح شعر دعبل :

لا يوينسنّك من مخدرة ... قول تغلظه وإن جرحا

عسر النساء الى مياسرة ... والصعب يمكن بعدما جمحا

وأمثاله من نافلة القول .

ولكن الغريزة الجنسية وهى أقوى غرائز الانسان وإن وجدت فى فساد الزمن وتحلل الأخلاق واندثار الفضائل البيتية منفساً ومخرجاً ومفرجاً ، حتى استغنى الأدباء من الانشغال بها ، إلا أنها تفتأ تملأ فراغ الذهن وتملك زمام البدن ، ومن سن المراهقة الى الشيخوخة عند الجنسين ، فلابد من دراستها وتسجيلها عند الفنان والقصاص والراوية وعالم النفس ، لأنها وإن فقدت مكانتها فى الأدب ، وكانت مكان إشادة وتشبيب وتفاخر وتمجيد ، فلم تفقد تلك الغريزة مكانتها فى البدن والعقل والمخيلة والذاكرة والقلب والعاطفة.

ولكن ثوب النفاق الفضفاض الذى اتخذته الطبقات الغنية

والجماعات المثقفة ليستر حقيقتهم ، اقتضى أن يتأنفوا قبل أن يتعففوا ، ويتظاهروا بالفضيلة وهم يؤدون لو يجاهرون بضدها ماداموا يفعلون فى الخفاء نقيض ما يقولون فى العلانية، وقد يتخذون أكباشا للضحية من عهد الى عهد ، ليوهموا المعاصرين أنهم عاكفون على الاستقامة ، ناقمون على الاعوجاج ، عاملون على تقويمه ولو بالعقوبة الظالمة ، فكان من تلك الضحايا جيمس جويس الذى صادروا كتابه وأحرقوه وأعدموه وقاطعوا صاحبه وحرموه من ثمار عمله ، وأشد الأمم فى هذا النوع من الرياء المؤذى أمة الانجليز ، وقد بلغ الرياء قمته وأوجه وسمته وذروته فى عهد الملكة البائدة الشائخة منصورة (فيكتوريا) ، وكاد الرأى العام فى أخريات عهدها أن يختنق ، حتى دعاة النفاق منهم وأمة الرياء وحملة رايته ، ضاقوا به ذرعاً وصرحوا بأن دوام هذه الحال من المحال ، فأنقذهم الموت بقبض روح الملكة المتزمتة المتحرجة ، المكممة لأفواههم والمقيدة لأقلامهم والقابضة على تيار عواطفهم .

فلما انتهى عهدها بشروره ، رزقوا بعدها ملكاً محبوباً متساهلا لا يأنف أن يجالس بنات الهوى فى أندية إيكس الحمامات أو فيشى أو إيفيان ، وأن يسمح للمصورين أن يلتقطوا صورته فى

وسط سرب من الغواني ذوات الجمال والدلال من الفرنسيات اللاعبات اللاهيات ، وكأن طول عهد أمه وكثرة السنين التى قضاها ولياً للعهد يترقب انتقالها إلى كهف مدافن الأسرة المالكة ، قد أيأساه من الوصول الى العرش ، فاستباح التمتع والتنقل والتزين والتحلى بالأزهار والجواهر والمغالاة فى انتقاء الثياب ، حتى أصبح عميد الأزياء ، وبادىء كل طراز ومبدعه ، دع عنك ثروته الطائلة وشهرته بالتبذير والإسراف ، فاجتذب النساء وفك عقدة التزمت ، وحل أربطة الحرج . وكان هذا بمثابة صمام الأمان الذى وقى الحياة الاجتماعية من الانفجار فى انجلترا ، وإن كانت قد انفجرت مرات متكررة انفجاراً داخلياً باطنياً معلوماً لكل من عاشرهم فى بلادهم واطلع على دخائل أمورهم ، ولا سيما الغرباء عنهم والنزلاء فى بيوتهم .

فالقول من هؤلاء إن جيمس جويس يفسد الأخلاق ويحارب الفضيلة وينشر الإباحية ، قول أفن وحجة واهية وحملة مرذولة ودعوى غير مقبولة .

ومن العبث قول بعضهم إن كتابه يقرأ من آخره الى أوله كما يقرأ من أوله لآخره ، وقولهم إنه أضاع وقته بذكر مالا ينبغى ذكره

حيناً ، وحيناً بذكر مالا يجدى نفعاً ، فهؤلاء عابوا قولاً سليماً وفناً رفيعاً لم يبلغوا شأوه ، وأولئك أخفوا حقاً وجانبوا صدقاً ، وقد قضوا أعمارهم كلها فى الحرفة التى مارسها جويس بضع سنين ، وفى التماس التقريظ والثناء مهما كثر واتقاء النقد والملام والتفنيد مهما قل ، لأن الأول يجلب الربح ويروج لكتبهم ، والثانى يصرف القراء ويقلل دخلهم ، ثم إن صنعتهم أن يكونوا كتاباً ونقاداً يتقنون التأويل والتجريح ويلتمسون المعاذير ، مذهبهم التساهل والتسامح فى حق كل أديب ناشىء وشعارهم عين الرضا عن كل عيب كليلة ، فماذا ضرهم لو أنهم أولوا ما أنكروه فى كتابه من أول وهلة وتمحلوا كما هو دأبهم أن يجعلوا منه حسناً ما يزعمون أنه قبيح ، ومستظرفاً ما يلوح من خلال عبارته مخالفاً للذوق العام أو العرف الشائع فى عصر النفاق ؟

هذا يقال لبرنارد شو و د٠هـ لورانس وأمثالهما ممن حملوا على الكتاب حملة منكرة ، وقد شهدوا وعلموا أن هـ٠ج٠ ويلز وآرثور سيموندز وازرا باوند وأرنولد بنيت - وهم أعظم من المخالفين شهرة - قد مدحوه وأثنوا عليه وأعدوا له مكانه من الخلود وأعانوه على الزمن ٠

والجواب على ذلك أنها قلوبهم التى أكلها الحقد والحسد ، وقد يكون عدم الإدراك والفهم ، ولكنه عذر غير مقبول فى حق الذين زعموا أنهم أعلام العصر وفحول الأدب الانجليزى وعجول النقد المعبودة فى عصر الإنحلال .

وقد أخذوا يضجون ويعجون ويجأرون وينعرون ويصخبون ويتوعدون ويتهددون ويتذمرون ويدسون عليه ويلغون ويحرضون ويحركون ويتحرفون حتى فازوا بإهاجة الحكام والجواسيس والصحافة والمحاكم والقراء والعامة والسوقة ، فتربصوا للكتاب وتصيدوه وصادروه وأحرقوه وأعدموه وصادروا المؤلف فى رزقه وشوهوا سمعته وعطلوا شهرته وطعنوا صيته فى الصميم ، ولكن كل هذا لم يفلح وانتصر جويس في النهاية ، وأجمعت الكافة من الخاصة وأولى الألباب على أن كتابه أعظم كتاب فى عصره وأتقنه وأحسنه وأبدعه وأصعبه فناً وأغزره مادة وأصوبه غاية .

وهذا البرنارد شو رئيس الجوقة وزعيم الفرقة والإمام الأكبر البالغ أرذل العمر ، المباهى بالزهادة فى اللحم والتبغ والخمر - ولم يتعفف عن أكل لحم أخيه فى الوطن والعقيدة والجنس واللغة وصنعة الأدب وابنه فى السن والنزعة والمذهب - لم ينس له القراء فحش

القول فى « ضيعة مسزوارنز » وغ .ها من المسرحيات ، ولا علاقته القديمة بمسز آنى برانت وميس فار وغيرهن من الممثلات الجميلات وقد أرهقهن بتذلله وتحككه وتظرفه وتقربه حتى هربن من وجهه وفارقن لجاجته فى تحببه إليهن ، وفر بعضهن الى الهند واتخذن الرهبنة والتصوف ليخلصن إلى الأبد من جنس الرجال ، وأقبلن على هذه التضحية النادرة نذراً وكفارة عن سابق علاقتهن بهذا «الساتير» ذى القرنين والحافرين واللحية الشمطاء .

(٨)

عودة إلى عولس

لنعد الى كتاب يوليسيز فهو من صنع الخيال لأنه أدخل فى باب القصص والملاحم الاتباعية منه فى باب الأدب الصريح أو المنثور المقصود لذاته ، فكانت عمدة جويس ذاكرته ومخيلته وحالته النفسية ومشاهدته الشخصية ، فصعد بسرعة فائقة الى قمة الفن والأدب الذى لا ينسب الى عصر لأنه الفن الخالد المطلق من كل قيد، والذى لاينسب الى زمان أو أمة مع أنه راعى القواعد الأصيلة وخضع لقوانين الأدب الأزلية فاتخذ وحدة المكان (مدينة دبلن) وطنه، ووحدة الزمان (١٨ ساعة من يوم الخميس ١٦ يونيه سنة ١٩٠٤) ، ووحدة الواقعة أو العمل أو المعركة أو السباق، لأن حوادث الكتاب بدأت وانتهت بين جماعة فى الدرجة النازلة من الطبقة الوسطى ، وأثبت من تلقاء نفسه ومحض خلقه وصرف إلهامه ، مايدور فى خلدهم جميعاً فى هذا اليوم ، وقص دون أن يستمع إليهم إلا قليلاً ، جميع أقوالهم وخواطرهم وأفعالهم وانفعالهم وتفاعلهم ، ومراميهم

ومرامهم ، وأفراحهم وأحزانهم ونجحهم وخيبتهم ، وماضيهم وحاضرهم ، وحركاتهم وسكناتهم ، وما يحيط بهم ويؤرقهم من ذكريات الماضى التى تصلح مادة لبناء المستقبل ، وما يختلج فى صدورهم وقلوبهم من الحب والبغض والثأر والغيظ المكتوم ، وعشرات أخرى من الأشياء التى لا تعبر عنها اللغة .

كل ذلك فى دقة من وصف الأشخاص والأماكن دقة محيرة للعقل ومذهلة للذهن ، لأن هذا الجنّى من البشر استخرج صورة إنسانية كاملة خالدة من توافه الأشياء ومجارى الحياة العادية ، ورسم هذه الصورة على أبدع وأقوى وأظهر مثال وأوضح ألوان .

فهذه الصورة التى يمر بها الرائى أو السامع مرور عابر لاه أو مزدر ، هى صورة أبدية للحياة الإنسانية فى أى يوم وفى أى بقعة من الكرة الأرضية ، وتسجيلها يعد أعظم عمل للفنان ، لأنه أصعب عمل وأشق عمل وأضنى عمل ، فيمكنك الآن بعد الإلمام بهذه الغاية وهذه الوسيلة على الطريقة القاصرة التى لم يسعفنى أدبى بأقوى منها أن تحكم على شانئيه ومتهميه وكاشحيه وواصفيه بالفحش والخنى والإلحاد والخروج عن القوانين وبمرض النفس أو اختلال الشعور ، بأنهم هم أنفسهم المرضى والعجزة والمخبولين

والمعطلون ، وإن لم يكن هذا الرأى قد انعقد عليه الإجماع الآن ، فسوف ينعقد عليه بعد عشر أو عشرين سنة ، لأن المعاصرة حجاب حتى فى أوربا ولا سيما فى هذا الوقت ، ولأن الكتاب صعب المراس، كبير الحجم لايقف على سره حتى يستطيع تقديره إلا من يكون ملماً بالأدب القديم والحديث ، وبفن الملاحم والقصص ، وبتاريخ أوروبا والعالم وبريطانيا وايرلندا خاصة ، ومتمكناً فوق هذا من اللغة الانجليزية ومصادرها ومواردها ، والأدب اليونانى القديم ، وهؤلاء لعمرك نادرون فى كل أمة ولا سيما الذين ليسوا من الأنجلوسكسون ، ولابد أن يكون الذى يقدره ويفهمه من صميم أهل فنه وبينهما رابطة مافى الروح والميول ، ثم ينصب نفسه شارحاً لكتابه وحلالاً لمعضلاته ومذيعاً لفضله ، وقل أن يوجد قارىء تتوافر فيه هذه المزايا .

لم اختار جويس المكان (دبلن) والزمان (١٦ يونيه سنة ١٩٠٤) المذكورين ؟ ليس لحبه دبلن وإن تكن مسقط رأسه ، ولا لمعرفته إياها وأهلها أكثر من سواها ، فقد فارقها فى العشرين من عمره ، ولم تكن عين عقله قد تفتحت على حقائق العالم، مهما يكن نبوغه مبكراً أو بالغاً غايته ، وقد يكون عرف مدينة زيورخ أو لوسرن

أو باريس أو تريستا أو روما أو بولا أكثر من دبلن ، واختلط بأهليها وتحدث إليهم لأنه يعرف لغاتهم بأطول وأسهب مما اختلط بأهل بلده وتحدث إليهم بلغته ، ولكنه اختار دبلن وجعلها مهد فنه ومسرح ملحمته ، ليقول للعالم فى الوقت الحاضر وفى المستقبل بأن دبلن عاصمة ايرلنده الخاضعة فى عصره للاستعمار الانجليزى فى يوم الخميس ١٦ يونيه سنة ١٩٠٤ ، تشبه كل بلاد العالم منذ الخليقة فى أخلاقها وتفكيرها وعاداتها ومعقوليتها ، فإنه لا يتغير فى الناس إلا الثياب والعادات الطارئة ، أما الانسان فهو الانسان طفلاً ومراهقاً وبالغاً وكهلاً وشيخاً ، فى كل زمان ومكان ، ففرد الاسكيمو لايختلف فى طبيعته وغرائزه عن زنجى فى وسط افريقية، ولا الهندى الأحمر البائد يختلف عن الفرد الناعم المترف فى حواضر أوروبا ، وهذه حقيقة ثابتة فى أذهان العلماء بعد الخبرة والدرس وطويل الأسفار ، ومجرد الوصول الى هذه الحقيقة وإدراكها دليل العبقرية فى ذاته ، وزاد جويس على هذا إبرازها حتى تجسدت فى أبلغ أسلوب وأفصح عبارة وأوضح برهان .

أما من ظنوا أن جويس سلخ سبع سنين من عمره فى وضع كتابه بعد أن قضى ثمانى سنين (من سنة ١٩٠٦ الى سنة ١٩١٤)

فى إدارة الفكرة فى رأسه والاستعداد لها ، وأنه أنفق هذا كله فى سبيل الأدب والوطن والإنسانية لا فى سبيل الفن للفن ، وهو مايسمونه art for art's sake ، فمن هراء القول ومحض الاختلاق وقلة الإدراك ، لأن هذه الغاية كانت سهلة المنال عليه وقد نالها بكتابه الأول « وصف حياة الفنان فى شبابه » الذى نشره فى سنة ١٩١٤ .

كذلك لم يؤلف جويس ملحمته عولس ، ليشفى غليله من الجزويت الذين كبتوه وعذبوه وحاولوا استعباد روحه ووأد مواهبه ، ولم يؤلفه للانتقام من أهل بلده لكونهم نبذوه وحقروه وأعانوا الزمان عليه ، أو للثأر من سادة البلاد الغرباء ، ومنهم الحكام والولاة والطبقة النافذة الإرادة ، العالية المكانة ، سواء بالمال أو بالعلم أو بالخداع أو بها جميعاً ، كلا إن أولئك وهؤلئك أضعف شأنا وأقل قدراً من أن ينفق عبقرى عظيم عمره فى سبيل الاقتصاص منهم ، وقد سبق له أن كتب قصة أهل دبلن The Dubliners ، وأتى فيها بالمعجب والمطرب ، ولامس مكانة العرش واستأذن جورج الخامس فى أن يكتب عن جدته فكتوريا وأبيه ادوارد مايشاء القلم والفن .

أبداً كلا لا ! إن ملحمته عمل فنى محكم البناء متناسب

متناسق ، محبوك الأطراف ، يمثل صورة عالمية بل كونيه أبدية ، وعلى طريقة موضوعية Objective أى خارجة عن شخص المؤلف ومنفصلة عن ذاته ، حسب قواعد الفن الأدبى فى الملاحم المنظومة ، إلا أنه كتبها نثراً ، لأن النثر أعلى قدراً من الشعر وإن يكن أصعب معالجة وأعسر سبيلاً ، ولا يناله الشعراء أبداً ولا يجمع رجل بينه وبين الشعر على درجة واحدة ، فضلا عن أن فصولاً بأكملها من الملحمة تعد من الشعر المصفى ، مثل فصل الغزل بين أحد أبطال الكتاب والفتاه جرتى ، ووصف المشنوق فى الساحة العامة ، وجنازة دينجام احـ فقراء البلد ، فهذه فى نثرها المرسل أعلى من الشعر المنظوم ، وفى بلاغتها المطلقة وبيانها الممتنع ، أمتع من دواوين بأسرها .

(٩)

لمحة عن حياة جويس

كان الباحثون فى أدب يوليسيز فى حيرة للاهتداء الى ترجمة وافية بالغرض للمؤلف حتى سنة ١٩٤٠ ، فاهتدوا الى ترجمته بقلم هربرت جورمن ، وهو صديق للمؤلف وعشير وقسيم ، يكاد يكون ملازماً له فى أعوامه الأخيرة ، وقد كتبها قبل وفاة المؤلف بعام واحد ، فطابقت قصدهم وإن تكن ناقصة عن غايتهم ، ولكنهم قابلوها على أنها خير ما وضع عنه ، فكشفت لهم أنه نشأ فى أسرة وسط ، وتعلم عند الجزويت ، ونبغ فى اللغات نبوغاً مبكراً ، وبدأ الكتابة فى التاسعة من عمره ، ونكب فى حياته ، وهاجر من وطنه خوفاً من أن يبتلعه ويئده ، وأنه عاش ثلاثين سنة فى الغربة يرتزق من التدريس بدريهمات معدودة ، وأنه تزوج فى شبابه وضيّع معظم عمره فى السعى على رزقه ورزق أولاده مبكراً ، وأنه اختلس أوقات التأليف من الزمان اختلاساً .

وقد أدركت كيف أن صاحب المواهب الصريحة المعترف بها

يضحى بها على مرأى ومسمع من المعاصرين والمعجبين فى سبيل العمل المذل ، سعياً على الرزق ، وهو الأمر المشاهد فى تاريخ النوابغ ماعدا سعداء الحظ منهم وهم قليل أمثال جوته وتوماس مان، ولكن جميع الآخرين أتموا أعمالهم المستعدين لها بمواهبهم ، وهى التى قدستها الإنسانية بعد فوات الوقت اختطافاً واختلاساً من الزمن وانتهاباً من مشاغل الحياة ومشاكل الأسرة وهموم الرزق، وإنك لترى حميراً وبغالاً وأوغاداً يقضون عشرات السنين فى أعمال غير مجدية البتة ، وعندهم من الفراغ وفسحة الوقت والجدة والطمأنينة وعدم التكليف بالسعى والتحرر من قيود الحياة مايكفى للإنتاج المجدى ، ومع هذه النعم كلها فلا يعملون ولا ينتجون شيئاً لأنفسهم ولا لغيرهم .

غير أننى بعد طول التفكير وإنعام النظر فى هذه المعضلة التى قد تعد من أحاجى الحياة وألغازها ، وصلت الى حل أقنعت نفسى بقربه من الصواب ، وهو أن تلك المشغولية والهموم المتواصلة التى يبدو للناس أن الرجل النافع يئن من حملها ويشكو دهره من ثقل وطئتها ، أدعى الى انطلاق مواهبه وإيجاد الحوافز لإنتاجه ، وأبلغ فى إرغامه على التفكير والعمل ، وإن لم يكن فى حاجة الى

حـافـز لما ركب في فطرته من الدواعي القـويه للظهـور والازدهار والإثمار ، كالشجرة التي يتحتم بحكم الطبيعة أن تنوء بقطفها في أوانها ، ولكن الطبيعة تحاذر وتبالغ في الحيطة حتى تضمن بطريقة لا شك فيها النتيجة التي تريدها ، وأداء الوظيفة التي صنع العبقري لأدائها على الوجه الأكمل .

ألا تراها في عملية التلقيح تبذل الطبيعة من البذور اللازمة للنسل مـايربي على الملايين ، في حين أنهـا لاتحـتـاج إلا الى بذرة واحدة ، وهكذا خطتها في كل أحوالها في عوالم الانسان والنبات والحيوان .

أما الحمير المطمئنة الميسورة التي ذكرناها آنفاً ، فقد جعلت في أذناب الخليقة كذؤابة الشعر التي في أذيال الأنعام ، فلا يهم أحداً أن يذبَّ الفرس بذيله ذباباً كثيراً أو قليلاً ، أما النابغ فإنتاجه في الدرجة الأولى من الأهمية للإنسانية كلها ، ووظيفته الاجتماعية تجعله في مقام رجل له رسالة ، فما أعظم الفرق بين صاحب رسالة وبين حمار أو ذيل حمار !؟

وأضيف أن أعمال العبقري وإن كان يتمكن منها اختطافاً واغتصاباً من الزمن واختلاساً من الدهر على حساب حياته وحياة

أسرته ، فإنها تكون سهلة مباركة حلوة الطعم ، لأنه يعمل لها بلذة وسرور وانشراح نفس وانبساط قلب وتوفيق دائم ، مهما كلفته من العناء ، لأنه يقوم بواجبه دون أن يشعر أنه واجب ويستغرق فيها بغير وعى أو إدراك للمشقة التى يبذلها أو الوقت الذى يقضيه ، وشتان بين من يعمل أشق الأعمال وكأنه يمرح أو يلعب وبين من يعمل أهون الأعمال وأيسرها وهو يشعر بثقل لا يطيقه .

ورث جويس عن أبيه نوعاً من التحرر من قيود المجتمع ، وعن أمه حب الموسيقى وجمال الصوت ، ولم يرث عنهما غير الهموم والأحزان وأشد الذكريات ألماً وحسرة ، وشعر بالظلم فى طفولته ، فثار على أساتذته الجيزويت وعلى حكام وطنه ، وعلى المنافقين من قومه الأغنياء أصحاب الإقطاع وتلال العقارات فى المدن والأرياف ، لكثرة ما أرهقوا الطبقة الفقيرة وزعزعوا أمنهم واطمئنانهم ، فنبتت فى نفسه عاطفة حب العدل ، وتعود كثرة التنقل من بيت الى بيت ، وأخذ يتشبث بحقه فى البقاء فى الدور المأجورة ولو اقتضى الأمر التقاضى ونقل النزاع للمحاكم ، وكأنه كان يقول للمظلوم أن يرفع ظلامته للقضاة ، وللأديب المهضوم العاجز عن الأخذ بثأره أن يقتص من خصومه بقلمه ، فإن ما يلحقه من الأذى من خصومه

زائل ، ولكن ما يلحقه هو بهم خالد فى بطون الكتب .

وعرف عنه اقتداره اللغوى وحسن أسلوبه وجمال تنسيقه وسعة اطلاعه ، ولكنه كان فى الجامعة عيوفاً مترفعاً حتى ليظن أنه فاتر العاطفة ، وأحب توماس كيتل من زعماء الشباب فى ايرلاندا ، وكان يظن أنه سيخلف بارنل ، وشهد حركة إحياء ايرلاندا على يد بيتس ، ولكنه لم يوافق على إحياء اللغة القديمة على حساب اللغة الانجليزية خشية من العزلة ، لأن الايرلندية القديمة لغة ميتة والانجليزية حية، وكان مهيباً محذورا أكثر منه محبوباً ، لأنه كان دقيق الملاحظة ، سريع الغضب ، حاد اللسان ، قليل التسامح فيما يمس كرامته ، وكان يسوءه ما وصل اليه مركز والده ، فقد سارع الى الانحدار والهبوط المادى والاجتماعى ، وتشتت شمل الأسرة بعد وفاة الأم .

وتأثر جويس فى أول أمره بأدب هنريك ايبسن النرويجى ، فلما بلغ الثانية والعشرين من عمره وقبيل هجرته من وطنه ، نشرت مجلة « فورتنيتلى » مقالا عن ايبسن ، وكان شديد الحيوية ، قوى المزاج فى المرح والسخرية ، ويستطيع أن يكون جاداً وقوراً عند مقتضى الحال ، ومن أكثر ما كان يرى فى شبابه مستهتراً

مستخفاً وليس هذا من طبعه ، ولكن اتخذه وسيلة ليتقي الخصومة والشماتة ويستر فقره بين أترابه ، ويعوق الأنذال عن التعالي عليه أو تعييره بفقره ، فكان يعالج حالته الخاصة بذلك المظهر الذي يخيف الأعداء ويقفهم عند حدودهم ، فأساء الجهال ظنونهم وتربصوا به الدوائر وتعمدوا الإساءة إليه ٠

فقصته قصة كل موهوب لم يسعفه الدهر بأدوات الحياة ولوازمها ، فاضطر أن يكافح ويستمر كفاحة وأسباب كفاحة ، وهو في نفس الوقت يريد الظهور بمظهر يليق بمواهبه ، وقد أحسن الى نفسه إذ تزوج مبكراً من فتاة مرحة ، أظهر وصفها في كتابه أجمل وصف ، وكتب الى ابيسن خطاباً يعبر عن إعجابه به ، واجتمع بجورج رسل مصلح ايرلاندا الاجتماعي ، وشيخ متصوفيها المحدثين وشرح طريقته، وحاول أن يتصل بكل رجل نابه في وطنه وفي غيره ، وفي سنة ١٩٠٢ في تمام الثانية والعشرين من عمره ، هاجر من وطنه ، وكان إذ ذاك ممتازاً في الحديث والتفكير والكتابة، وكان اشتهر في دبلن عاصمة بلاده وطار صيته لتتفتح مواهبه تفتحاً مبكراً ، ولم يكن منافقاً ولا متردداً ، فلم يتستر ولم يسع لنفع خاص به ، وقد نال درجة بكالوريوس في أوانها ٠

ولكن كان حاقداً على وطنه لتأخره ولكاعة أهله ولذا وصف قومه بأنهم أكثر شعوب أوروبا تقهقراً ، وأنهم بقايا قبيلة بائدة وأنهم أعانوا ظالميهم بانحطاط أخلاقهم وقناعتهم وتدينهم ومحافظتهم واستسلامهم للظالم ، فرأى وجوب الهجرة فرضاً عليه وعلى أمثاله ، لأن الأرض واسعة الفضاء ولن تضيق دونه ، فلما بلغ لندن احتفى به على نضارة شبابه رجال الأدب من أهل وطنه ، وأرادوا استبقاءه ووعدوا بعونه ليشق طريقه بينهم وكان منهم أوكونور وبرنارد شو وييتس وغيرهم ، فلم يقبل دعوتهم وواصل هجرته الى باريس ، وحاول دراسة الطب ، ووضع لنفسه خطة للدرس فى الفلسفة والتاريخ واللغة إلى جانب دراسته الطبية ، وقرأ سبنسر وسباينوزا ، فلما اكتشف علي حد قوله أنه يفكر مثل سباينوزا – صاحب مذهب وحدة الوجود – دخله الشعور بالكبرياء والعظمة ، وهما على الأغلب نتيجة الوحدة والفقر .

وقد أصاب سباينوزا نفسه الذى قضى حياته فى وطنه لاهاى فقيراً منبوذاً يعيش من عمل يديه فى الساعات ويضع أساس فلسفته ، ولكن كان مقسوماً لجويس أن يكون سباينوزا من نوع آخر ، وأن يضع فلسفة وإن اختلفت عن وحدة الوجود ، إلا أنها تدل

عليها بطريقة أخرى ، وقد عاش جويس فى باريس أشهراً كثيرة عيشة المفلوكين من جوع ونقص فى الثياب وقلق فى السكنى وحيرة فيما يأتى به الغد ، وكانت سنة ١٩٠٣ أقسى سنوات حياته .

ولم ينقذه من هذا البلاء إلا وصول برقية من أبيه تنبئه بإشراف والدته على الهلاك ، فاقترض أجور السفر من باريس الى دبلن من أحد تلاميذه ، وأقام بجوارها أربعة أشهر ، لأنها كانت مريضة بالسرطان ، ولم يجاهر بهذا السر إلا جويس فى مسرحيته فى كتاب عولس ، وكانت فى نضارة العمر ولكن هذا الداء الفظيع ذهب بشبابها وجمالها ، لأنها لم تكن تزيد على ٤٤ سنة ، وقد عاش أبوه بعدها ثلاثين عاماً أى أنه مات سنة ١٩٣٣ ، وشهد شهرة ابنه، ولكنه كان وصل الى الدرك الأسفل من الانحطاط الاجتماعى ، وطالما أعانه ولده فى أخريات أيامه لأن أواصر القرابة كانت قوية فى نفس جيمس ، سواء على البعد أو القرب .

فى سنة ١٩٠٣ ذاق الويلات فى الغربة وماتت أمه فى شهر أغسطس منها ، (مريم حنينه جويس) ، وحزن ابنها حزناً شديداً ، وحاول أن يقيم فى دبلن ويتم دراسة الطب ، وأن يدرس الأدب والفلسفة ، كما كان يفعل فى باريس ولكن طلبة الطب من رفاق

صباه التفوا حوله وأغروه بمغريات الشباب فأطاع هواه وضل سواء السبيل وأخذ يزور مدينة الليل « نايت تون » التى أخلدها بشرورها وفظائعها وشخصياتها فى مسرحيته ، فبدد مابقى له من مال وبدد شطراً من عمره وأفاد اختباراً مريراً ، وأشعره مزاجه الشعرى بالضجر الذى أصاب بودلير وهو القلق الملازم كأنه صداع لايحتمل، فلما نضب معينه أخذ يرتزق بالتدريس لتمكنه من اللغات الحية والبائدة ، ثم اضطره الضيق لهجرة دبلين ليعيش فى برج « مارتلو» المهجور بسانديكوف على مقربة من « جلاستهبول » وأن يقاسم السكنى فى ذلك البرج طالب طب آخر هو « أوليفرسانت جون جيوجارتى » الذى خلع عليه اسم بوك موليجان ، وافتتح كتاب عولس بذكره ووصف حياتهما فى البرج المهجور (فترة ربيع ١٩٠٤).

وحاول صديقه أن يؤثر عليه ويستميله الى جانبه ، ليعرض عن دراسة الأدب ولكن شخصية جويس كانت أقوى من أن تخضع لشخصيات أضعف منها ، وفى تلك الفترة واصل دراسته فقرأ فلسفة أرسطو وتوماس أكونياس ، وصمم على أن يخلق فناً جديداً فى الأدب ، ويؤسس مدرسة أدبية يكون زعيمها ، وهى طريقة لم

يسبق لها مثيل فى وطنه أو فى غيره من الأوطان ، ورسم لنفسه خطة العمل فكان منشغلا بالشعر وبالقصص القصيرة ، وبقصة واقعية طويلة (أهل دبلن) ، وبكتاب يروى فيه تاريخ حياته وتكوين عقله ومذهبه الفنى (كتاب حياة الفنان شابا) .

وفى ١٦ يونيه من تلك السنة ١٩٠٤ عرف وأحب « نورا جوزيف برناكل » وهى التى خطبها وعقد عليها وصحبته فى الغربة وولدت له أولاده وبناته ولازمته الى أن مات فى الستين من عمره .

ولهذا اختار يوم ١٦ يونيه ١٩٠٤ ليخلده فى كتابه ، وكان لحب نورا أثر قوى فى حياته فتغير مجراها ، ولكن حياة دبلين فى سنة ١٩٠٤ بقيت مرسومة فى ذهنه رسماً قوياً فأخلدها فى عولس، ولم يكن يوم ١٦ يونيو ذا شأن أو خطورة أو ذكر خاص ولم يتمايز عن غيره إلا بجنازة دنجام ، وبولادة عسرة ، وبزيارة ايرلنديين جاءا من أمريكا وطلبا أن يزورا البقعة التى شنق فيها « روبرت ايمات »، وهى بقعة مقابلة لكنيسة سانت كاترين بشارع توماس ، ولكن جويس كان يبغض دبلين من صميم قلبه لأنه رأى فيها من المرارة والعذاب أكثر مما رأى من الخير والعطف ، ولكن حياتها لازمته وسكنت عقله ، وتقدم الى مسابقة غنائية ففشل وشعر بالزعزعة

والقلق يعاوده ، وجذبته حياة باريس من جديد ، لأنه لم يستطع أن يعتزل الناس بما يكفيه مؤونة دراسته ، ولم يجد الطمأنينة والثبات الكافيين ، وفوق هذا كله أراد أن يعيش فى أوروبا تلك القارة التى يعيش فيها إيبسن مؤلفه المختار وأمثاله : هويتمان ، دانونزيو ، مترلنك ، فأصبح جويس يعتبر المنفى وطناً له ! يا لسخرية الزمن ! فغادر دبلن فى خريف ١٩٠٤ التى تعد سنة القدر التى تحتمت فيها أمور أربعة في حياته :

١ – حبه وخطبة « نورا » لتكون زوجته ورفيقة حياته .

٢ – اختيار أحد أيامها ليسجل عصره ويجعله يوم الكتاب الموعود .

٣ – ثبوت فشله فى وطنه .

٤ – تصميم هجرته .

ولكن مايصنع الزوجان الشابان فى بحر الاغتراب الخضم ؟ يعيش على التدريس .

فلما لقيه أصدقاء من بنى وطنه فى لندن عرضوا عليه الإقامة بينهم ووعدوه بتسهيل شئون الحياة وصبغوا له المستقبل بلون الورد فأبى واعتذر ، فوصفوه بالعناد وشدة المراس والجهل بتقدير القيم ،

فكان لا يبالى بنقدهم ، ومـازال يقـول «تا الله وبالله ووالله لأرينهم جميعا أننى سأضع فى عشر سنين كتاباً يلفت نظر الدنيا بأجمعها» (يقصد الى صورة الفنان شابا) وقد بر بقسمه ، ونشر ذلك الكتاب فى سنة ١٩١٤ .

فلما لم تثمر معه نصائح أصدقائه والعاطفين عليه فى لندن تركوه وشأنه ، فبلغ باريس يوم ١٠ أكتوبر سنة ١٩٠٤ ، ولم يجد بها مايرضيه ، فسافر الى زوريخ فقابلته خيبة الأمل ، وهو الذى أعطى على نفسه عهدين ، الأول بإبداع فن وأدب جديد والثانى بتأليف كتاب يلفت نظر الدنيا ويشغلها ، فاضطر الى أن يدرس الانجليزية بأجر قدره فرنك واحد – درهم – أربعة قروش – عشرة بنس – شلن إلا كسرا .

ولا ندرى كيف عاش وزوجته على هذه القيمة الزهيدة حتى ولو اشتغل طول ساعات يومه ، ولكنه تمكن أن يعيش وتمكن أن يبدأ تأليفه الأول وأن يسجل مذكرات عن الكتاب الثانى (أهل دبلن) The Dubliners ، ثم ينظم الشعر ، ولم يطب له المقام فى زوريخ فرحل عنها وسافر وزوجته الى تريستا وبولافى مستهل سنة ١٩٠٥.

ومن ذلك الوقت بدأت محنته فى محاولة طبع « أهل دبلن » فى بيت من بيوت النشر الانجليزية ، وقد دامت بضع سنين ، وبين أيدى مؤرخى حياته وأدبه عشرات المكاتيب الخاصة التى حررها فى تلك الفترة ، وهى تتمايز بأسلوب رفيع خاص به ، فإن أدبه لم يكن مقصوراً على كتبه ، بل كان البيان العالى ملكة له ومذهباً فى كل مايكتبه ، وهذه المكاتيب تلقى شعاعاً هادياً على خلقه وماتحلّى به من أدب نفسى وصبر وتجمل وثبات وقوة إرادة ووحدة قصد .

وأخذ يكتب قصصاً قصيرة ويعد مناظر لملاعب الأوبرا ليستعين بإنتاجه على مشقات الحياة وزيادة فى دخله الضئيل ، واستدعى أخاه ستانسلاوس من وطنه ، لا ليؤنسه ولا ليخفف عبء تدبير المنزل عن زوجته التى كانت تحمل طفلها الأول «جورجيو» – ولكن ليوجد جو مدينة دبلن ، الجو البلدى واللغوى والروحى ليعينه على تأليفه . وعلى الرغم من صداقة « فرانسينى برونى » الأديب ومسرات حياة الأسرة وسعادة المولود الجديد وإيناس أخيه ، فإنه لم يطق الإقامة فى تريستا وبولا أكثر من أربع سنوات ، (وكان فى سنة ١٩٠٦ قد ألهم فكرة عولس وأخذ يجمع لها) فنزح الى روما .

ولعل المدينة الخالدة كما كانوا يسمونها فى عصره قد جذبته

إليها بفنونها وجوها وقصورها ومتاحفها وآثارها ، وذكرياتها واطمئنانه الى العيش فيها وهو طليق من قيودها المذهبية فقبل العمل فى مصرف إيطالى فى وظيفة كاتب بلغتهم كاتب حسابات بمرتب قدره عشرة جنيهات ، وفى تلك الفترة من الحياة (تخيل حياة ثلاثة أشخاص وطفل وكلهم غرباء بعشرة جنيهات مشاهرة !) اضطر الى ترقيع سراويله (بنطلون) حتى لايستطيع أن يخلع سترته لئلا تظهر مرقعة ، فانظر الى العجب من أن جيمس جويس لبس مرقعة ولم يكن صوفياً مسلماً وهذا من أحكام القدر !

وكان دائب البحث عن مقهى حسن ومطعم له قيمته لأنه كان يقول المقهى قاعة استقبال لمن لا صالون له ، وأخذ يبحث من جديد عن تلاميذ ليأخذوا عنه دروسه الخاصة ، (ما كان أسعد هؤلاء التلاميذ !) .

ثم بدلاً من أن يبكى على مصائبه ، كان يضحك ويسخر (وهذا صمامة الأمان لأمثاله وإلا جنوا أو انتحروا) ، وكان يعيش ويعمل ويمرح كأنه واثق من النجاح ، ثم اتفق مع أخيه استانسلاوس على البقاء بمفرده فى تريستا ، فبقى وصار فيما بعد البروفسور استانسلاوس الشهير ، ولكن مظاهر الحياة الرومانية

فى عاصمة ايطاليا الحديثة لم تقدح زناد فكر ولم تلهمه جديداً ، وكان يسخر من تمثال الظبى المرمرى المصنوع « لناثنيل هوثورن » المؤلف الأمريكى صاحب كتاب المكتوب القرمزى .

ثم أخذت الوحدة والعزلة تلحان عليه وتشعرانه بالقنوط ، وجذبته باريس من جديد فرحل اليها ، وبدأ مكاتباته مع الناشرين عن كتاب أهل دبلين من جديد واستمرت سبعة أشهر غير السنوات الغابرة من سنة ١٩٠٤ ، ويسجلون أنه ذكر عولس لأول مرة ، ولكنه لم يكشف القناع عن غير الاسم ، وهذا هو الكتاب الذى أشهره فى العالم كله بعد ذلك بخمس عشرة عاماً ، وقد ورد اسم الكتاب فى خطاب بعث به الى أخيه استانسلاوس تاريخه ١٩٠٦/٩/٣٠ .

نرجع الى حياة جويس الواقعية ، فإنه تنقل من دبلن الى باريس ، ثم عاد أدراجه الى دبلن ، ونزح منها الى زوريخ فتريستا ثم الى بولا فروما ، وكان من بدء شبابه يعانى مرضاً فى الأسنان ، وآخر فى العينين ، وتحمل عشر عمليات جراحية فى إبصاره ، واستمر على الرغم من هذه النكبات فى عمله حتى أخرج الكتب الآتية على مدى خمس وعشرين سنة ، وهى « موسيقى الحجرات » و« أخبار أهل دبلن » و« وصف حياة الفنان فى شبابه » وكان

يزمع أن يجعله مؤلفاً من آلاف الصحف ، ثم كتاب « المنفيين» ، ثم عمله الخالد وهو موضوع هذا البحث « عولس » ، وقد سبقه ديوان شعر بعنوان قصائد ، كل منها بقرش وختم كتبه بكتاب « فينجاوس ويك» (انظر صحيفة ٢٦ من عدد أكتوبر سنة ١٩٤٦ من مجلة ورلد رفيو) ، وقد دامت هذه الأعمال من سنة ١٩٠٤ الى سنة ١٩٣٨ أى جيلا كاملاً ، وتوفى بعد الكتاب بثلاث أو أربع سنوات ، وكلها كتب عظيمة الشأن غير أن سيدها ورئيسها وأفضلها وأقدرها وأبهرها وأشهرها كتاب « عولس » .

وعندما أستعرض فى ذهنى صورة المؤلف الذاتية وقوته الذهنية ازداد اعتقاداً أنه كان مسوقاً مرغماً على عمله ، وكأنه يساق بسياط يتلذذ بوقعها على بدنه ، وأنه بمثابة شخص ملبوس ومسكون ومملوك لروح من الجن تارة تعلوه هذه الروح وتدفعه وطوراً يعلوها ويركبها ويدفعها ، ولكنهما لايفترقان ولا يعصى أحدهما الآخر ولا يسعى فى الخلاص من صاحبه ، وهذا العفريت من الجن أو الروح المحركة لجويس - وهو أشبه بأفراد الجن التى ذكرت فى أساطير شعراء العرب أنها ساكنة أرض عبقر وأن لكل شاعر من فحولهم صاحباً منها - مازال يسخره ويحتال عليه تارة

بالحسنى ، وطوراً بالخشونة ، ويقلقه ويؤرقه حتى يكمل إنتاجه ، ولا يمنحه أجازة ولا يجود عليه براحة مرضية ، ولا تأخذه عليه شفقة ، كأنه يعلم بأن هذا الإنس النابغ سيعيش العمر الكافى لهذا الانتاج، حتى إذا فرغ منه ، انطفأ نور عينيه وسراج حياته ، فودع الحياة فى حفلة صاخبة يرقص فيها رقصة أشبه برقص الجن أدهشت من رآها فى عيد ميلاده الأخير ، بعد أن غنى وأنشد أغانى ايرلاندية كأنه يودع بها أسرته وحياته ووطنه .

وطالما ساءلت نفسى متجاهلا ومتصنعاً الدهشة أهذا الأدب وهذا الفن من نثر وشعر يستحق كل ما قاساه مؤلفه فى سبيله فى دنيا لاهية ساهية ناسية مشغولة عنه وعن أمثاله بالماديات والملذات والسخافات وتوافه الأمور ، معرضة عن هؤلاء الضحايا ومتربصة مترصدة لاستغلالهم عندما ينضجون ويصبحون صالحين لافتراسها؟!

فأجبت على سؤال نفسى أى نعم بلى ! وأكثر من ذلك ، لأن إنتاج هذا العبقرى وظيفة ضرورية للمجتمع ، النبوة والرسالة والشاعرية العظمى ، والخطابة والقيادة العليا ، والاختراع والاكتشاف ، كل هذه ضرورات حيوية للإنسانية ، لذا يتم إنتاج

النابغ ولو فى غفلة منه ومن عصره ومن قومه ، ويتم ازدهار إنتاجه ولو بعد جيله وزمانه ، ولكن لحسن حظ هذا الجيل أن الغافلين يتنبهون فى أوربا وفى بعض بلاد الشرق قبيل النهاية ولو بقليل أو بعدها بقليل ، والفرق بين الشرق والغرب أن تنبه الشرق كصحو السكران يتلوه الخمار ثم الخمود والنوم والنسيان، أما فى الغرب فيبقى التنبّه طويلا والاهتمام مستمراً .

إن حياة جيمس جويس نفسها تعد ملحمة فى ذاتها واختيار اسم عولس لهذا الكتاب هو نفسه فأل يحدوه التوفيق ، لأن حياة جويس أشبه بحياة عولس بطل الأوديسة ، وأحداث تلك الحياة كالتى وقعت لذلك البطل القديم ، غير أن عولس ظفر بهوميروس يرويها عنه وينمقها ويوشى أطرافها ، أما جويس فسجل منها ما استطاع تسجيله بقلمه على لسان غيره ، وجعل نصيبه نصيب فرد فى مجموع ، ولم يستأثر بالكتاب كغيره من المغرورين والمشغولين بأنفسهم ، وانما روى ماروى فى سياق الملحمة على مقتضى الحال والمقام .

وأعتقد أن ترجمة هربرت جورمن لجويس ناقصة وليدة العجلة، كأن مؤلفها شعر بدنو أجل بطله فأراد أن يسره قبل

مغادرة الدنيا ، ولكنها كافية ولا بأس بها، وقد كتبت فى حياته بقلم صديقه ، ولابد أن جويس اطلع عليها وأدنى قلمه منها بالزيادة والنقص ، لأن فيها لمحات ولمعات لا ريب فى أنها من قلم صاحب الشأن ، وقد تمت تأليفاً وطبعاً فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩٣٩ بعد عيد ميلاده بتسعة أشهر عقب نشر آخر كتبه .

ويبدو لى أن هذه الترجمة ليست الأولى والأخيرة وأن الترجمة الصحيحة الوافية يجب أن يكتبها أشخاص وهم جورمان نفسه ونورا جويس زوجته ، وازرا باوند صديقه وكاتم سره ، وبول ليون وشقيقه استانسلاوس جويس والفرد بورجان والسيده بيتش (Beach) التى نشرت كتابه عواس عشر مرات ، واستهدفت بعملها ومالها لأخطار المصادرة والإحراق والاعدام ، وساعدت بمجهودها وثروتها على نقله الى اللغة الفرنسية ، وعاش جويس على مقربة منها خمس عشرة سنة وهى سنواته الأخيرة فى باريس ، ثم الدكتور فوجت طبيب العيون الذى عالجه أخيراً وهو حفيد كارل فوجت العالم البيولوجى العالمى شهرة والسويسرى وطناً .

مما لاشك فيه أن هربرت جورمن مؤرخ حياة جويس التقى بهؤلاء الأشخاص العشرة ، واجتمع بالحاضرين منهم وراسل

الغائبين ، واستقى كل مايريد معرفته من مصادره ، وقد يكون التجأ الى عشرات غيرهم بعد أن كان مرجعه الأكبر جويس نفسه وزوجته حتى وافق على ماورد بهذه الترجمة ، ولكن هناك ناحيات خفية من حياته لم تكتب أثناء وجوده ، وربما لاتكتب أثناء حياة زوجته ، ولا عبرة بما وصف به جورمن كتابه بأنه ترجمة نهائية ليكتفى بها جمهور القراء ، فهى لاتضع حداً للبحث فى ترجمته ، وهى فى الواقع مشبعة للرجل العادى الذى لايستطيع قراءة كتبه ، ودعاية كافية وافية بعيدة المدى لمن يستطيع محاولة القراءة.

ولكن هناك أسئلة يجب الجواب عليها وفرا غ يتحتم امتلاؤه ، مثلا من النساء اللواتى عرفهن جويس فى ايرلندا والبلاد الأخرى غير زوجته وقريباته ؟ وماهى الكتب التى قرأها فى اللغات الثمانى عشرة التى كان يعرفها ؟ وفى أية فترة قرأ كلا منها ؟ وماهى التى تركت فى ذهنه أثراً أقوى من غيرها ؟ ومن هم الرجال الذين لقيهم وسعى اليهم أو سعوا اليه وكان لهم تأثير على حياته ؟ ومن الأشخاص الواقعيون الذين جعل منهم أبطال ملحمته ؟ ثم نماذج من كتابته الشخصية فى مذكراته ومكاتيبه أو مذكرات زوجته أو أخيه وطريقة عمله وتكوين أفكاره وتفصيل حياته فى باريس فى

الفترة الأخيرة ومراسلاته لأصدقائه وما تلقاه منهم ، ووصف علاقته بمعاصريه من الكتاب والأدباء والنقاد ، ومن هم أعداؤه الألداء فى ايرلندا وغيرها ؟ وكيف كانوا له ممن صورهم فى كتابه وممن لم يكترث لهم ، وطبعاً بعض هذه المسائل يدخل فيها تحليل مؤلفاته .

هذا مالم يؤن أوانه أو ماليس متيسراً لنا فى الوقت الحاضر ولا نفكر فيه بعد دراستنا لعولس ، وهو الكتاب المقصود لذاته بهذه الدراسة ولا يهمنا أن ندمج فى تلك الترجمة النموذجية التى نترقبها والدراسة الوافية لأدبه وفنه أن نسجل أقوال النقاد الذين احترقت أكبادهم غيظاً ، واصطكت أسنانهم غيرة وحسداً ولا سيما برنارد شو الذى أزوى مابين عينيه أنفة وحشمة تصنعاً باسم الفضيلة والحمية والخوف على عفة النساء والفتيات والأغرار ، فهل من الرأى السديد فى فن الأدب والنقد أن يحبط هذا العمل الجليل من أجل النساء والأغرار .

وبعد ، فإن جويس لم يكتب كتبه ولا سيما عولس من أجل النساء والأغرار ، لأنهم لايفهمونه وبعض الذين فهموه أمثال شو ولورنس ذموه وخطأوه وفندوه وإن أعجبوا به فى دخيلة أنفسهم ، ولكنهم كتموا الاستحسان وأفشوا الاستهجان وجهروا به لأسباب

كثيرة ذكرنا بعضها فى موضعها ، ومن هنا لانظن تسجيل النقد مجدياً لأنه فورة أحدثها ظهور الكتاب وطلوع جويس عليهم بهذه القوة التى لم يعهدوها فى كاتب معاصر ، فمنهم من خشى الدولة والدين فمالأهما ، ومنهم من خاف على مكانته وشهرته ، فبدأ الكاتب بالمهاجمة فنطح الصخرة حتى أدمى قرنيه.

إن فن جويس فى كتابه وأدبه ، كشف عن مواهب شتى دلت على تنوع عبقريته وأخذها من منابع كثيرة ، فقد درس طباع الرجال والنساء وفهم مادرس وتعمق فى نفسيات الذكور والإناث ووقف على أسرارها ، حتى ظهر له أن كثيراً من الصفات المحمودة فى الرجال ، تكون مذمومة فى النساء ، كالكرم والشجاعة والهمة الى المراتب العالية والأمور الشاقة والنيات النائية والمطامع المتعددة، والعلة فى ذلك كون المرأة تميل بالطبع الى الشطط ومجاوزة الحد ، ودليله فى من تميل الى العبادة والنسك ، فإنها لاتقف فى ذلك عند حد ، بل تتمادى فيه حتى تتهوس وتتخيل فتدعى ، وفى من مالت الى الهوى فإنها تترك أباها وأمها أو زوجها وولدها، وتقبل تجرى فى أثر رجل لاتعرف من صفاته شيئاً سوى كونه ذكراً حتى تلقى بنفسها فى حمأة التهور والدعارة ، فكل ماكلفت به المرأة كانت فيه

أكثر تمادياً من الرجل ، والحامل لهن على هذا الشطط والغلو إنما هو معرفتها من نفسها أنها أقوى على اللذات من الرجال ، فزيادة طاقتها لذلك زادت فى تماديها فيه ، ومنه سرى فى غيره من الأطوار والشؤون والأحوال الطارئة وفى بعض الأمور الغريزية أيضا كالكلام والضحك والحركة ، ومما قل منه فيها فى بعض الأحوال ، فإنك تراه زائداً فى البعض الآخر زيادة فوق القياس ، ومثال هذا أخلاق بطلات عولس (يوليسيز) وأكبرهن نصيباً ومظهراً مولى بلوم حليلة البطل وخليلة كثير من الرجال، وفى مناجاتها فى ختام الكتاب برهان ذلك ، وكذلك فيما كشف عن طباع نساء أخريات مثل مسز برين فى الدراسة التى تبدأ ص ٤٠٨ الى ٥٧٠ ، ومسز بلنجهام .

ولم تكن حملته على بعض القسس المترهبين بدعاً ولا افتتاناً ولا انفرد بها فيما وضعه الكتاب ووصفوه قديماً وحديثاً فى كتبهم ، فإن رئيس بعض الأديرة لايزال يحاول إذلال مرؤوسيه وإخضاعهم له ، وهم لايزالون مدمدمين عليه شاكين منه ، وبينه وبين رؤساء الأديار الأخرى من الحسد والمنافسة ، مابين وزراء الدول وأكثرهم ينال الرياسة بالتملق للأمير الحاكم أو البطريرك أو البابا .

وليس الأمر مقصوراً على هؤلاء ، فقد شهدنا أحوال التكايا والصوامع فى عهد تركيا قديماً بين الدراويش وأمثالهم ، وفى حالة جويس بذاته ، فقد وقع عليه ذعر ومسه الضر من مسلك عميد كلية الجيزويت فقد أراد أن يخضعه ويذله ويجدع أنفه ويكسر كبرياءه ويشعره بالحرج وضرورة الهوان والطاعة والتسليم ، فأبى وثبتت فى قلبه كراهيته الطائفة وبغضها ومقتها والبعد عنها والحذر منها ومقاطعتها الى آخر لحظة فى حياته ٠

(١٠)

مجمل كتاب عولس

مرجعنا في الكلام على الكتاب النسخة المطبوعة سراً ، ونشرت بباريس فى مايو سنة ١٩٣٠ وهى الطبعه الحادية عشرة .

والكتاب فى خمس وثلاثين وسبعمائة صفحة بالقطع المتوسط وليس مقسماً كتباً أو أبواباً أو فصولاً ، وليس له عناوين تهدى القارىء الى موضوعاته على ماجرت به عادة التبويب والتقسيم فى التأليف ، فوجب على القارىء أن يقرأه معتمداً على اجتهاده ، ولايوجد تناسب بين أجراء الكتاب البتة .

فأولها فى خمسين صفحة ، وبعضها فى خمسمائة صفحة ، وبعضها لايتجاوز صفحتين ، والمسرحية العظيمة فى مائة وستين صفحة تبدأ من ٤٠٨ وتنتهى فى ٥٧٠ وهى التى شبهها النقاد بالقسم الخاص بسياحة عولس بطل الأوديسة فى جزيرة الساحرة الداعرة سير سيه أو كيركيه ، وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن الكتاب منطو على ثلاثة أقسام ، الأول فى خمسين صفحة ، والثانى فى خمسمائة صفحة ، والثالث فى مائتى صفحة تقريباً .

القسم الأول : ليس مقدمة ولا تعريفاً ولا إلماماً بموضوع الكتاب ولا شخصياته ، ولكنه نوع من اللمحات واللمعات والمشهّيات والمشوقات ، وقد وصفه بعضهم بأنه طلسم الكتاب الذى وضعه المؤلف ليعوق القارىء الغبى أو العاجز أو الباحث عن السهولة واليسر فيرتد على أعقابه حتى لايزعم أنه قرأ عولس ويحتج بصعوبته وإبهامه وغموضه وانطوائه على الإلحاد ومجانبة الآداب والتعرض للسياسة وأقدار العظماء ، وفيه ذكر فريق من الأبطال وهم بك موليجان وستيفن ديدالوس ، شخص جويس نفسه ، وقد زعم بعض النقاد المقلدون الناقلون الذين لم يقرأوا الكتاب أنه اتخذ من ليوبولد بلوم أباً كان يبحث عنه بحث تليماك عن أبيه عولس ، وكلا الأمرين حديث خرافة وخرق ونزق وادعاء وتضليل ، ويكفى للتدليل على ذكر ماورد فى حق بلوم من المخزيات سواء فى سياق الكتاب أو فى المسرحية التى هو بطلها ، ولاسيما فى وصف سلوكه الشائن الشاذ مع النساء ، وعند توليته عمادة دبلن تهكماً وتتويجه ملكاً على الجزيرة سخرية وهزواً ، ثم انقلابه امرأة وولادته ثمانية أولاد ذكور ، وتقرير الأطباء فى حالة عقله وبدنه ، وسرد أمراضه الموروثة والمكسوبة ، وما بقى من المعايب التى لانتنقدها وسوّغ

ورودها لمقتضى أحوال التأليف ''بقرى .

ولا جرم أن شيئاً من هذا لا ينطبق على عولس وتليماك ، فقد كان الأول مثال الرجولة والشهامة والدهاء وإصابه الفكر وأصالة الرأى ، كما كان ابنه تليماك نموذج الابن البار والولد المطيع المحب الذى خاض غمار الحياة الأخرى وعرض نفسه لألوان العذاب فى النار بحثاً عن أبيه فى هاديس .

ولا يجوز تحليل ذلك بالفرق بين القديم والحديث ، وإنما كون جويس العظيم الجليل الجميل النبيل الفذ العلم المفرد اتخذ اسم عولس ، وذكر بعض الأساطير الإغريقية وبعض الأسماء الواردة فى كتاب هومير ، مثل سيرسيه أو كيركيه فى المسرحية ، فلا يدل على شيء فقد ذكر فى صلب الكتاب والمسرحية مئات الأسماء للأقدمين والمحدثين أمثال شكسبير وابن رشد وموسى النبى وموسى ابن ميمون وبعض أسماء الأحياء والمعاصرين الذين كان بينهم وبين المؤلف دقة ثأر أو ضغينة مثل سفراء بريطانيا وقناصلها ، فقد جعل من بعضهم شرطيين فى مدينة الظلام Night - Town ، مقر الدعارة فى دبلين .

نرجع الى القسم الأول من الكتاب ومن ورد ذكرهم فيه ،

وموضع البرج المهجور على شاطىء البحر وزمن الحوادث التى وقعت فيه الثامنة صباحاً ، وأشخاصه غير من ذكرنا ، هينز الإنجليزى ، وبائعة اللبن الفلاحة الساذجة ،و وقد تنقل الحديث بينهم حتى تناول هاملت وذكريات وطنية واسم الزعيم أرثور جريفيث ، وبعض الهرطقة والإلحاد عرضاً ، ثم وصف التلاميذ والمدرسة التى كان ستيفن ديدالوس يعلم فيها ، ووصف ناظرها وسخافته ، وانتقل البطل الراوى الى شاطىء البحر وتحدث الى نفسه على طريقته الإيحائية فى مناجاة طويلة ، ومن هذه النبذة تبدأ فكرة الكتاب بالظهور وتنجلى غوامضه وتتجلى مواهب واضعه وغزارة مادته واتساع آفاقه .

ولايرد ذكر ليوبولد بلوم إلا فى القسم الثانى وأوله ص ٥٣ ، وقد غادر منزله فى الصباح وترك زوجته فى فراشها ليشترى لها كلية سمينة لتفطر عليها ، وهى امرأة نؤوم الضحى ستسفر فصول الكتاب عن صفاتها ونشأتها وأخلاقها ورقاعتها، ويشارك ليوبولد بلوم زوجته الإفطار ويقدم اليها مكتوباً ورد بالبريد باسمها ، ولا يزيد مايتبادله وزوجته عن عشرات الكلمات ، بينا يعمل عقله الباطن فى استحضار الماضى وتكوين المستقبل واستعراض الخواطر

الصارئة ، وهذا يملأ عشرات الصفحات ويلذ للقارئ ويفيده ويثير إعجابه ويدهشه ٠

ثم يخرج بلوم مشغولاً بمكتوب ينتظره فى مكتب البريد من امرأة مجهولة قابلها مصادفة وأعطاها اسماً وعنواناً كاذبين لأنه متزوج ، ولا يخفى المؤلف أن بطل الكتاب بلوم مجرى أو نمسوى مهاجر فتهيج شجونه بقراءة المكتوب ، ثم يقصد الى صيدلى ليشترى لامرأته عطوراً وأدهاناً ، ثم يتخلص من أصحابه ليخلو بنفسه ، ويعيد تلاوة خطاب المرأة المجهولة ، ثم يفكر فى هملت ويظن أنه فتاة فى ثياب فتى لأن كل امرأة مثلته أتقنت تمثيله أكثر من الرجال ، ويذهب ذهن بلوم لاشتغاله بشهوته الى أن هملت إن لم يكن فتاة كان عنيناً لايصلح للزواج ، ولذا أهمل عروسه أوفليا ونصحها بدخول الدير فانتحرت بالغرق فى غدير ٠

ويذهب بلوم الى تشييع جنازة بادى دنجام أحد فقراء دبلين وهذا هو منظر الجنازة التى قال ناقد أو ناقدان إنه حل محل «هاديس» فى ملحمة هومير ٠

وهذا كلام بعيد ووهم وزعم وأخذ الأمور بظواهرها لأنه ليس فى الجنازة من عبرة الموت إلا انشغال المشيعين بأمورهم وحديثهم

ثم المراسم الدينية واختصار الصلاة وقلة عدد القساوسة لقلة المال المدفوع فى « دفنة » من الدرجة الثالثة ، ثم وصف الحنوطى أو رئيس الدفانين والحفارين وهؤلاء يكونون عادة مرحين أو يظهرون المرح ولا يبالون الموت لشدة اتصالهم به ، وهذه قطعة من الأدب الحديث الحى لايوجد لها مثيل (ص ٨٤ - ص ١١١) .

ثم يبدأ باب من ص ١١٢ - ص ١٤٣ فى نوع عجيب طريف من الأدب ، يمثل حياة صحيفة صباحية فى مدينة دبلن ويرفع الستار عن إدارتها وتحريرها وسياستها ومصادرها وأرباحها وخسائرها وحياة الكتاب والمنشئين فيها ، والباب نفسه مكتوب بلغة صحفية وأساليب مختلفة متباينة ليكون فى مجموعه صورة طبق الأصل للواقع شكلاً وموضوعاً حتى عنوانات النبذ التى تصدر عن الصحيفة ، مكتوبة بأحرف كبيرة تقليداً لما يتبع عادة وفعلاً فى تحرير الصحف وأنواع مقالاتها وإعلاناتها .

وتظهر شخصيات عدة لمحررين ومراسلين ومكاتبين ومتصلين بالإدارة والتحرير ، ومنهم بلوم وهو وكيل الاعلانات يتقاضى أجراً على مايجلب منها ، وفى الجريدة صفحة للوفيات بعد المواليد وحفلات الزواج وفيها عمود للأدب المنثور وآخر للشعر .

ولا يبالى جويس بذكر أسماء بعض أعيان السياسة والأدب ورجال الحكم بأسمائهم الحقيقية ليترك أثراً قوياً فى ذهن القارئين بأن مايبدعه موافق للواقع وحسب الحقيقة ، وناهيك بصعوبة التقليد فإنك تكتب صفحات جيدة متقنة إذا صنعت ذلك بقصد صحيح ونسبة صادقة ، وتعانى فى صفحة واحدة أو بضعة أسطر معاناة بالغة إذا شئت أن تقلد أو تختلق أو تلفق دون أن تنقل عن نموذج موجود ، والاختلاق والتلفيق نوع من الخلق والإبداع ومصدر الصعوبة ومرجعها تفسير الحياة بالمحاكاة المتقنة لا سردها ، والتفسير هو الفن الأدبى والسرد تاريخ لا أكثر ولا أقل .

وكل من يقرأ هذا الفصل بعد خمسين أو مائة سنة سوف يرى ويعلم ويدرك ماكانت عليه الصحافة الأيرلندية والانجليزية فى مستهل القرن العشرين ، وهذا يقوم مقام فصل مسهب فى دائرة المعارف أو مجلدات ضخمة من مجموعات هذه الصحف ، وهذا مصداق ما قلنا إن التفسير تخليد وتسجيل حياة العصر الحديث وجعل سائر شؤونه حتى البسائط فى عداد الشوامخ وطبعها بطابع الطريقة الاتباعية ، فلا يحتاج من يأتى بعده للكتابة فيها ، لأنه إمام الصناعة وشيخها ومقدمها وباقعتها . وهذا ينفى عنه ما زعمه

خصومه من « أن الكتاب لا بداية له ولا نهاية ، وأن فى الإمكان قراءته من أوله الى آخره أو من آخره الى أوله » إلى آخر ما زعموا وادعوا واختلقوا من ألوان الدجل والمخرقة التى يلجأ إليها الحاسد والحاقد أو من لم يقرأ الكتاب ، أو قرأ أوله ثم نكص على عقبيه عجزاً وحيرة وضجراً وغباء .

كذلك من قالوا بسوء نية « إن قصة عولس ليست قصة بالمعنى المألوف الذى تعوده الناس ، روعى فيها التسلسل الزمنى والتتابع المنطقى بل اختفى منها كل تقدير للزمن ، واختلطت حوادث الحاضر بالماضى » . وهذا مما يفخر به جويس ومما يفرح له مادحوه لأنه لم « يرغب فى المعنى المألوف الذى درج عليه الناس وتعودوه » بل رغب فى فتح جديد ولكن الأعداء اكتفوا باكتشاف هذه الواقعة «وحرروا بها محضرا» .

نرجع الى الفصل الخاص بالصحافة وقد قلنا إنه أدمج فيه أسماء بعض أعيان السياسة والعلم والأدب على حقيقتها ليزيد فى إقناع قراء المستقبل بصدق الصورة التى فسر بها الحياة الحديثة (ص ١٣٥) ، فذكر الأستاذ ماجنيس وامولوى و A.E العالم المتصوف والمصلح الاجتماعى الايرلندى المعاصر العالمى الشهرة

ومدام بلافتسكى الصوفية الروسية الشهيرة وأستاذة آنى بيزانت وطيلور فيتز جيبون قاضى قضاة الاستئناف وتيم هيلى خائن ايرلاندا الأكبر ومايلز وفورد وغيرهم ، وهذه عادة درج عليها جويس فى كتابه عن أهل دبلن ، فقد نسج الواقع على أنوال الخيال دون أن يفجعنا فى أحدهما ، لأن الواقع زهرة الخيال وثمرته والحياة نسيج سداه الواقع ولحمته الخيال ، صنعت منهما الطبيعة والانسان والأقدار رقعة واحدة تحير العقول ، فإنك ترى أمراً واقعاً تظنه خيالاً وترى خيالا قد يتضاءل الواقع فى جانبه .

دع عنك المصادفات التى تأتى أحياناً بالمضحك والفاجع وتمزج بينهما فيحار المشاهد والسامع والناظر بين القهقهة والبكاء ، وتلك نكات أحكمت الأقضية والأقدار صنعها وحبكت أطرافها وتاريخ العالم القديم والحديث حافل بها ، ويعجبنى من سانت جون ارفين من كبار كتاب ايرلاندا الأحياء ومؤرخ لبارنل أعظم زعمائها وساستها أنه كان يعبر عن القوة العليا الحاكمة المسيطرة على الكون بوصف «المؤلف المسرحى البارع الماكر» ، لأن الحوادث كانت تبدو وهى واقعية لاشك فيها ومن صميم تاريخ ايرلاندا وانجلترا ولا دخل لأحد من أهل الدنيا فى سيرها وتتابعها كأنها من صنع

الخيال فى مأساة محبوكة الأطراف محكمة التنسيق بديعة السياق ، أمنية مؤلفها الوصول الى غاية معينة محددة من قبل ومعدة ومجهزة وهى ضياع ذلك الرجل الذى كافح وجاهد وصبر فى سبيل تحرير وطنه حتى صارت ايرلاندا من الاستقلال قاب قوسين وكلما دنا الغرض ، نأى لابفعل غلادستون أو مدام أوشى أو مورلى أو الكنيسة الكاثوليكية أو زوج الزانية ، بل بفعل القوة الخفية التى تسير الأمور حتى تنقلب الواقعة التاريخية قصة خيالية ويصير الخيال واقعة تاريخية .

وليس هنا مجال الإسهاب فى هذا الباب من عجائب الدنيا ولكن اكتفينا بالإلماع اليه لنرد على الذين عابوا على جويس مافعل وهم جد قاصرين ، لا عن تقليده وحسب ، بل عن فهمه وهو شيخ الطريقة ورئيسها وسيدها وأستاذها وكل مايصنعه يكون قانوناً وقاعدة يقاس عليها ، ولا يقيس هو على أحد لأنه هو الشارع والمقنن للفن والمقعد لقواعده .

وفى ص ١٣٦ و ١٣٧ (فى أثناء بناء الصحيفة) أورد جويس أمراً خطيراً له علاقة بتاريخ مصر الحديثة ، وهو تلخيص خطبة طنانة رنانة ألقاها المرحوم المبرور كيرهاردى مؤسس حزب العمال

(وهو اسكتلندى الجنس) فى خاتمة ليالى المؤتمر المصرى الذى عقد فى ٤ سبتمبر ١٩٠٩ بمدينة جنيف وكانت الخطبة فى البهو الكبير بفندق شامبيل بأعلى البلد نشرتها صحف العالم فى ١٨ و ١٩ و ٢٠ و ٢١ سبتمبر ١٩٠٩ بنصوصها ولم يدخل عليها جويس إلا تعديلاً طفيفاً لايمس جوهرها وموضوعها ولكن ليجعلها تتسق وغايته وطريقته .

وقد نسبها الى جون طيلور تعقيباً على خطاب الاستاذ فيتزجيبون قال :

سيدى الرئيس سيداتى وسادتى

كان إعجابى عظيماً أثناء سماعى منذ برهة بتلك النصيحة الغالية التى أزجاها صديقى العلامة الجهبذ موجهاً فيها الحديث للشبيبة الايرلندية وقد خلب الخطيب لبى حتى تخيلت أننى انتقلت وأنا أصغى إليه الى بلاد بعيدة فى زمن سحيق متناه فى القدم ، أقصى مايكون عن عصرنا هذا ، وأننى وقفت على أرض مصر واستمعت الى خطاب أحد عظماء الكهنة ، يتحدث فيه الى نبى الله موسى فى شبابه ونضارة عمره قبل بعثته ورسالته .

(فلما وصل الخطيب الى هذه الكلمة أصنت السامعون وكأن

على رؤوسهم الطير وكفوا عن الهمس والتدخين) - وظهر لى وأحسست وشعرت أننى أسمع نبرات صوت الكاهن ترتفع الى العلا تحف بها العظمة والكبرياء والقداسة الخليقة بالمعانى التى تحتويها تلك الألفاظ . استمعت الى الألفاظ فى رنينها وجرسها ، ولكننى ألهمت معانيها إلهاماً .

[تعليق جويس : لقد ألهمت أن الطيبات الصالحات قد تفسد ، لأنه لا يفسد إلا الشىء الطيب والصالح أى المتناهى فى الطيبة والصلاح .

قاتلك الله ! هذا قول القديس أوجستين بنصه وفصه] .

الخطيب :

قال الكاهن المصرى الأعظم لموسى الفتى الإسرائيلى فى الهيكل المصرى «لماذا ترفضون أيها اليهود حضارتنا وتأبون أن تدخلوا فى ديننا وتتكلموا بلغتنا وما أنتم إلا قبيلة من رعاة رحالة ، ونحن أمة قوية ، ولا تملكون مدناً ولا بلداناً ولا ثروة . ومدننا تشبه بازدحامها وحركتها خلايا النحل ، وسفننا الموطأة ذات الطبقات الثلاث أو الأربع تخوض البحار ، محملة بأنواع البضائع وألوان الخيرات من أقصى شواطىء العالم المعروف إلى أقصاها ، وأنتم لم

تخرجوا ولم تبرزوا إلا من مخابىء الحياة البدائية وخفاياها ، ولم تنفضوا عنكم غبار الفطرة البدوية ، أما نحن فلنا حضارة وآداب وفنون ودين وكهنوت وتاريخ قديم وسياسة منظمة ودواوين مدونة وجيوش مجندة ومسلحة وعلوم ومعارف وأسرار عظمى .

[تعليق جويس : نيل . طفل . رجل . تمثال . صنم . على ضفة النيل تركع الأمهات ، تابوت من البردى . رجل حاذق مرن فى الصراع . ذو قرون من الحجر ولحيته من الحجر وقلب من الحجر].

الخطيب :

« إنكم تعبدون صنماً ، رباً محدود المكان والزمان ، خامل الذكر ، أما معابدنا فملوكية ذات جلال وجمال شامخة البنيان حافلة بالأسرار وقد اتخذها إيزيس وأوزريس وهورس وآمون رع مقراً ومسكناً . نصيبكم العبودية والمسكنة والذل . ونصيبنا الرعد والبرق والبحار . إسرائيل ضعيفة قليلة العدد ، ومصر قوية كثيرة العدد جيوشها منصورة ، وأسلحتها ماضية واسمكم فعلة وعمال مياومة، وصفتكم متعطلون ومتجولون ، أما نحن فالدنيا ترجف لذكرنا ومهابتنا تتردد أصداؤها فى أقطار العالم قاطبة .

[تعليق جويس : وتجشأ الكاهن الأكبر جشاءة الجوع ، فاعترضت كلامه ، فرفع صوته حتى تغلب عليها واخفاها] .

الخطيب :

ولكن ياسيداتى وسادتى ، لو أن موسى الفتى أصغى لخطبة الكاهن الأعظم ورضى برأيه فى الحياة وكان من هذا الرضى أن حنى موسى رأسه وثنى إرادته ووطأ روحه حيال هذا التأنيب الوقح لم يكن يستطيع أبداً أن ينقذ الشعب المختار أو ينجيهم من موطن الذل والعبودية ، وما كان ليتبع عمود السحاب فى النهار ولم يكن ليحظى بمخاطبة السيد الأعلى وسط لمع البروق وقصف الرعود بأرفع ذروة فى طور سيناء ولم يكن لينحدر بعد ذلك ونور الوحى يشع من وجهه حاملاً بين يديه ألواح الشريعة « محفورة بلسان ذلك الخارج على القانون » .

ثم صمت الخطيب ، وكأنه استطاب صمت المستمعين وتلذذ بسكوتهم كالسكوت الذى يسبق العاصفة .

[تعليق جويس : هذه هى الخطابة]

أما صلة هذه النبذة بمصر فأصلها الخطبة الطنانة التى ألقاها كيرهاردى فى فندق شامبل بمحضر ومسمع من مئات

المصـريين والأوروبيين وفـيـهم الزعـمـاء والسـاسـة والكتـاب والصحفيون.

فقد ألقى هاردى زعيم العمال فى مساء ١٨ سبتـمبر سنة ١٩٠٩ بجنيف هذه الخطبة بنصها فى صورة نصح وبشرى زفها الى شباب مصر يقصد الى أن لايطأطئوا رؤوسهم أمام المستعمرين الانجليز الذين يشبهون فى العصر الحديث دولة المصريين القدماء فى قوتهم وجبروتهم وثقتهم بأنفسهم ، وتعييرهم المصريين فى زماننا هذا بأنهم ضعفاء وفقراء وفلاحون ومرضى وجهلاء وأنصاف متمدينين وأنهم هم « الأنجلوسكسون » ذوو بأس شديد وجبروت وأساطيل وجيوش ودين عتيق وتجارة وسفن وثروات طائلة .... إلخ.

كما كانت عظمة المصريين الأقدمين ، ويقول هاردى « فلو أنكم أيها المصريون (مع أنكم أصحاب أعظم حضارة) أصغيتم الى كاهنهم الأكبر سواء أكان كرومر أو غلادستون أو ادوارد جراى (وهم عـجـول ذلك الزمن سنة ١٩٠٩) فلن تصلوا الى شىء من الحرية والاستقلال والسعادة ، ولا نجاة لكم إلا فى الاقتداء بالخطة التى سلكها موسى للخلاص بشعبه قديماً » .

وضرب المثل على لسان كيرهاردى للمصريين المجتمعين فى

جنيف فى مؤتمر سياسى يطالبون بحقوقهم والواقعة المروية وقعت فى وطنهم من قديم ، أعظم أثراً وأنسب موضعاً وموضوعاً وظرفاً وملابسة من توجيه هذا النصح لشباب ايرلاندا ، لأن الخطبة ألقاها كيرهاردى فعلاً على شبان المصريين وهو وحده صاحب الفكرة ، وناقلها الى جويس صديقاه توم كيتل وهازلتون عضوا البرلمان من الحزب الوطنى الايرلندى وكانا حاضرين هذا الاحتفال بجنيف وسمعا الى خطاب هاردى ورأياه وكان توم كيتل صديق جويس وذكره فى كتاب يوليسيز ، وكان مرموقاً وموموقاً ومنتظراً أن يخلف بارنل شهيد ايرلندا وضحية انجلترا لولا أن عاجلته المنية وهو يحارب في صفوف الانجليز عن الحرية فى الحرب الأولى .

ولايسعنا أن نختم هذه الكلمة دون أن نذكر ماجاء فى القرآن عن هذا الموضوع بنصه مما يدل على أزلية البحث وأبديته ، وأن جيمس جويس لم يكن لاعباً ولا لاهياً ولا مضطرباً ولا مخبولاً ولا متجنياً على الدين والآداب ، بل كان بطلاً واعياً وعبقرياً ناضجاً ينشد الحقيقة وهو ضالة العظماء أمثاله ويلتقطها أنّى وجدها .

قال سبحانه وتعالى فى سورة الشعراء :

« قال ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين .

وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين قال فعلتها إذن وأنا من الضالين ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكماً وجعلنى من المرسلين وتلك نعمة تمنُّها علىَّ أن عَّبدت بنى إسرائيل » ١٨ -٢٢ الشعراء .

وقال فى سورة القصص :

« إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم إنه كان من المفسدين ونريد أن نمّن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون » ٤ - ٦ القصص .

ففى الآية الأولى مراجع لحديث الكاهن الأعظم وموسى الفتى ولكنه جاء فى كتابنا المنزل على لسان فرعون ووقعه أعظم لأن موسى نشأ فى بيت فرعون وتربى بأمره وتحت نظره ، ووقعها أعظم لأن فرعون يذكره بجريمته ليزيد فى إذلاله ، وفى الآية رد موسى على فرعون وليس كلام الكاهن حواراً بينه وبين موسى ليظهر رأيه، وفى الآية الثانية وصف مظالم الفراعنة لشعب موسى وتبشير للضعفاء والمساكين (الفعلة والمتعطلين) بأنهم يكونون أئمة وارثين

متمكنين من الأرض ، وعقوبة فرعون على مافعل بهؤلاء الضعفاء .

ومن صفحة ١٤٤ ينفرد بلوم بنفسه بعد أن خرج من إدارة الجريدة الصباحية ويستسلم لخواطره سائراً على قدميه سبهللاً ومتخلياً عن عنان روحه وعقله ، فيمر بمصنع الحلوى المتعهد بالتوريد لبلاط ملك بريطانيا القديم ، فيذكر اللوزنج وأعين النساء التى تشبهه ، فيقابله شاب من جمعية الشبان المسيحيين ، ولاندرى ما الذى أذكر بلوم بالدماء ، ولعله الأحرف الثلاثة الأولى من اسمه فيرد على خاطره دم الحمل ودم الضحايا ، وحاجة الرب لدم الضحايا وإهراق الدم عند الميلاد من الأم ومن العذراء عند الزفاف، وذبح الخراف عند وضع أساس المبانى ، والتبشير بالنبى اليجاه وقرب ظهوره ، والدكتور جون اسكندر داوى معيد عهد صهيون فى الهيكل .

ويلمح وجه أخت ديدالوس (سيمون ديدالوس والد ستيفن) وهى أخت جويس فى الحقيقة ، جاءت تنتظر أباها ، لعله يبيع بعض المتاع ليواجه نفقات البيت ، فقد كثرت الأسرة ونما عددها خمسة عشر طفلاً فى كل عام يولد لهم مولود جديد ، ومنذ ذهبت الأم وتفككت روابط العيلة تهدم البيت .

ثم نظر الى ماء البحر فإذا طيور الماء تهوى ، فألقى إليها بشيء لا تأكله فلم تخدع فوصف إدراكها وغريزتها وعدم انخداعها والانسان قد يخدع والسمك يخدع والجرذان تخدع والأسود تخدع حتى الذئاب والثعالب تقع فى الأفخاخ ، إلا طيور البحر فإنها لاتخدع ، ومن هنا تذكر أن كل حيوان يحتفظ بطعم غذائه فيتذوقه آكله، إلا السمك الذى يتربى فى الماء الملح ، فإن لحمه لايكون ملحاً بل غريضاً .

ثم انتقل ذهنه الى عمله ، وهو الترويج للبضائع بالإعلان والترويج عند التجار للإعلان ، ثم وصف حياة عمال المجارى ، كيف يمحو مايكتب محواً تاماً ، لابد له من دواء جديد ظهر فى قنينتين يمحو كل ما كتب محواً تاماً مطلقاً ، أداة صالحة للمزورين ولكنها تباع باسم صاحبها كانسيل .

وخطر له اجتماع الماسون فى محافلهم ، والماسونية هى اليهودية هى اليهود هى صهيون ألفاظها ومراسمها رموزها ودرجاتها ، وقد توطنت فى اسكتلاندا والملوك ماسون ، إن الإنجليز هم اليهود واليهود هم الإنجليز ، ثم التقى بمسز بيرين ، إحدى صواحب زوجته فقطعت عليه تيار خواطره فسألته عن زوجته ،

وسألت عن سبب لبسه الحداد ، فتداركها وقال كنت فى تشييع جنازة صاحبى دنجام ، لقد مات فجأة ، وتكلمت هى عن زوجها واشتغاله بقانون القذف ، وطاب لها أن تتكلم عن زوجها فقالت إنه تيقظ بعد نصف الليل وأيقظنى لأنه رأى رؤيا مرعبة، وأنه رأى الواحد الأسبانى صاعداً سلالم البيت ، وفى الصباح جاءه التفسير، وهو هذا الخطاب المفتوح وفيه فضيحة زوجى فعزم أن يقاضى صاحبه ويطلب تعويضاً قدره ١٠ آلاف جنيه ، وأن زوجها سجن يوماً من الأيام ، وأخذت تلك الزوجة تطيل الحديث وتذكر A.E ذلك المصلح الاجتماعى العظيم (وهو الاستاذ جورج رسل) وقد سعدت بلقائه والتحدث إليه .

من فضلك أخبرنى يابلوم ما نوع عطر زوجتك ؟ وأخبرنى من خلق الدنيا (لاحظ سرعة الانتقال تدرك سرعة الخواطر وكيف تتولد هذه الأسئلة فى العقل وتثب عليك وأنت لاتفكر فيها) إن محاولاتى الأدبية نالت رضا مستر جورج رسل ، لا وقت عندى لتسريح شعرى وترجيله وتصفيفه كما يصنع النساء ، لأنى أشرب الشاى العكر وبيدى ديوان شعر مسكينة مسز بيورفوا زوجها مسيحى متوديست (متزمت متحرج) ، والتحرج فى الدين جنون وهوس لا

يأكل إلا كعك الزعفران مغموساً باللبن والصودا وأمامه ساعة تدق الثـوانى لأنه يمضغ اثنتين وثلاثين مـضـغـة (بعـدد الأسنان) فى الدقـيقـة الواحدة ، ولكنه مسـتند الى قـريب له فى حكومـة دبلين وترضع أولادها عاماً بعد عام .

إنى لا آخذ إلا قطعة سكر واحدة فى فنجان الشاى ، وانتقلت مسـز بيـرن الى الولادة العـسـرة (وسـيـأتى وصـفـهـا بالتـفـصـيل والمستشفى والأطباء والمرضات فى ص ٣٦٧ ومابعـدها وهو من أبلغ ماكتب فى اللغات الأوروبية) أما مسز ثورنتون الداية فلا يعلى عليها مع شيخوختها ، يالها من روح طيبة صالحة ولكن النساء يهملن دفع أجور الولادة أشهراً . الجمهور ناكر للجميل والأطباء إنسانيون .

وتخلص بلوم من مسز بيرن ، وسار فى طريقه يتبع خواطره، فـمـر بباب البـرلمان الايرلندى وبجنود يسـيـرون على خطوة الأوز ، وتمثال توماس مور ، وجوزيف شمبرلين نال درجته من كلية ترنيتى واسـتـثـمـر مـاله ، حـرب البوير ، هـتـاف ثلاثا « لدى ويت » القـائد المظفر سنشنق شمبرلين على شجرة تفـاح ، من هو الذى أشعل نار الحـرب ؟ وباع السـلاح للبوير ليـغتنى ؟ . آه استـقـلال ايرلاندا –

الحركة الوطنية - الجمعيات السرية - جيمس ستيفن شيخهم وصاحب الفكرة اللامعة - شُعب ذات عشرة أعضاء - كل عضو لايعرف صاحبه ، وقد ساعدته بنت تركناى من ريتشموند ، فنزل فى فندق بكنجهام بالاس تحت أعين أعدائه وأنوفهم ولم يعرفوه . جاريبالدى لابد أن تفتنك أخبار هؤلاء الأبطال ، بارنل ، ارثور جريفيث وهو حصيف وعميق التفكير ، يحسن التدبير ولكنه لايؤثر فى الجماهير .

ثم ذبلت ابتسامة بلوم ، وغيم على الشمس سحاب كثيف حتى حجبها ، وعربات الترام تذهب وتجىء غادية رائحة ، صاخبة بعجلاتها - كلمات لانفع فيها - الأشياء تسير على وتيرة واحدة لاتغيير ولا تبديل - ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم وليلة بعد ليلة وشرانم من الشرطة تخرج للنوبة وتعود - وهذان الوغدان من أفرادها يتسكعان ، وجثة دنجام نقلت فى عربة الموتى ومينا بيورفوا راقدة فى فراشها ببطن منتفخة ، تتألم وتعض الثياب فى انتظار مولود جديد ، فى كل ثانية يولد طفل فى أى مكان من العالم ، أحسب العدد ، ونفس تموت فى كل ثانية ، وقد مضى خمس دقائق مذ كنت أطعم طيور البحر ، ثلاثمائة ابتلعتهم الأرض ، وثلثمائة

تنفسوا وصاحوا وغسلت أيدى الدايات أبدانهم من دماء المشيمة وتمزيق أرحام أمهاتهم ، كلهم يغسلون بدم الحمل الذى يصيح «ماء ماء» زحمة تملأ البلد قادمة وزحمة تملأ البلد ذاهبة . الى أين؟ فى الطريق فى البيوت ... صفوف من البيوت - شوارع أميال بل فراسخ من الأفاريز والطوارات والأرصفة . آجر وأحجار وأيد مختلفة ومتعددة ، هذا المالك ، وذلك المالك الأغنى (لاند لورد) لا يموت أحدهما لأن من مات من جنسهم يخلفه آخر بسرعة فائقة ، لأنه كان ينتظر نعليه الفارغين ليثب فيهما بقدميه الحافيتين . يدفعون الذهب ثمناً للأرض والبيت ، ومايزال عندهم ذهب كثير ، إنهم يحصلون على الذهب بالاحتيال والخديعة ، بأية طريقة ماعدا الطريقة الشريفة الوحيدة التى لايقربونها لأنها لاتجلب الذهب ، أكوام من الذهب مكدسة فى المدن تستجد وتختفى جيلاً بعد جيل ، أهرام من الرمال بنيت على الخبز والبصل ، سخرة عبيد الفرعون ، كما شاد رقيق الصين حائطها الكبير، سور الصين ، تصور الرقيق، وكذلك بنيت بابل بأيدى العبيد ، وما تزال منها أحجار كبيرة جاثمة وبروج مستديرة وبقايا وأنقاض وضواحى منبطحة فى الوادى، وبيوت أخرى كالعراهين (عش الغراب) بنيت فى لحظة عين بالهواء ،

بالنسيم ليقضى فيها صاحبها سواد الليل . لا أحد يعد شيئاً .

هذه أسوأ ساعة فى النهار ، ساعة الغسق قبيل الغروب تهبط الحيوية وينزل الظلام ، راكدة وقاتمة - أبغض هذه الساعة . أشعر كأننى قد أُكلتُ ثم لفظتُ من فم آكلى ، أكلنى الزمن ثم تقيأنى .

تحررت الشمس من الغمامة ، عاد النور ، بيت الراعى . مدير الكلية ، نافذة ولتر ساكسون ، بجوارها مرّجون هوارد بارنل ، شقيق شارلس ستيوارت بارنل شقيقه الأكبر ، ها هو الأخ الشقيق ، صور البطل الراحل ، قد تفكر فى شخص مئات المرات ولا تراه ، هذه مصادفة ، وجهه يذكر بالأرواح التى تظهر بعد موت ذويها ، يسير كأنه فى سبات عميق ، لا أحد يعرفه ، لابد أنه ذاهب الى اجتماع مجلس البلدية ، لم يضع على صدره شعار الرياسة منذ وليها ، وكان سلفه شارلى بولجر على جواد أصهب ، وعلى رأسه قبعة عالية ، منتفخ الأوداج حليق الشعر معطّر ، مزين مزوق ، يعطى المنصب حقه .

أنظر الى مشية الأخ الشقيق ، مشية الرجل الغارق فى حزن عميق ، الواله المحسور الثاكل اليتيم ، قد أكله الهم والأسى لقد أكل بيضه فاسدة ، جفون زرقاء منتفخة ، كأنه شبح من عالم الخفاء ،

إننى أتألم شقيق الرجل العظيم يبدو جميلا على جواد المدينة ، الحصان الرسمى ، لعله ذاهب ليلعب طابقاً من الشطرنج قبل الاجتماع كان أخوه يستعمل الرجال رهائن ، آلات للغرض الأسمى وسائل للغاية المرجوة ، دعهم جميعاً يذهبوا فى البوتقة ، ولا يجرؤ أحدهم أن ينتقده بكلمة ، كلهم يعرفونه حق المعرفة ، ولكن لا شجاعة لهم لأن دماءهم تتجمد فى عروقهم إذا نظر إلى أحدهم ، هذا هو السحر ، الاسم . كل منهم ملموس . كان بارنل يأكل قشر البرتقال فى البستان ، لما دخل سيمون ديدالوس البرلمان (هو والد جويس) كان يقول سيخرج بارنل من قبره ليجرنى من ذراعى خارجاً .

آه . جورج رسل وابنته على دراجة مزدوجة ، رأس ضخم ووجه ملتح ، لحية ودراجة وفتاة ، وهذه مصادفة ثانية إن الحوادث المقبلة تلقى ظلالها قبل وقوعها ، ألم تقل لى مسز بيرن إن محاولاتها الأدبية نالت رضاه .. منذ لحظة ..

A.E. ما معنى هذين الحرفين اللذين يرمز بهما لشخصه ؟ مع أنهما ليسا من اسمه ولا لقبه ، ربما كان بداية اسمين آخرين البرت ادوارد ، ارثور ادمون !!

ماذا كان يقول ايقوسيه عن أطراف الدنيا ؟ قرن الحشرة ؟ ملمسها ؟ نقطة حساسة فى العالم . قرن حشرة . أخطبوط ، شىء غامض علم سرى . تصوف – رمزية – هذا ما كان يقوله لابنته هو يتكلم وهى تصغى إليه ، كأنها تأكل حديثه أو تشربه ، هى كاتمة أسراره ، إنها تعينه فى إنتاجه الأدبى ، وما زال بلوم يصغى ويتسقط الكلمات من فم الكاتب العظيم ، إنه لا يأكل إلا الخضر والفاكهة ، لايذوق شواء أبداً ، إذا فعلت مثله فإن أعين تلك البقرة ستتابعك بنظرة حنان وعرفان الجميل لآخر الدنيا والى ما ورائها الى الأبد . يقال إن الامتناع عن اللحم أنفع وأجدى على صحة الانسان ، الهواء والماء لقد جربتهما فأعاننى على الحركة والفكر طول اليوم ، ولكننى أحلم طول الليل ، لم يسمون الطعام الذى قدموه لى شواء البندق ؟ يقولون فيجيناريان ونطاريان وفروطاريان. (أكل خضر . أكل بندق . أكل فاكهة) – فيخدعوك بأنك تأكل اللحم مادام الاسمان متشابهين ، نطستيك بفستيك ، جهل سخافة ! إنهم يطهون الطعام بالصودا فتسهر طول الليل جوارب الفتاة مدلاة على كواحلها ، إنى أبغض هذا ، بعيد عن الذوق السليم ، هؤلاء الأدباء يعيشون فى الأثير ، يحلمون وهم أيقاظ يتنقلون فى السحاب ،

يتبعون الرموز ، إنهم عباد الجمال فلن أدهش إذا كان هذا اللون من الطعام (الخضر والفاكهة والحليب) تولد الموجات الشعرية فى الدماغ ، فإنك إن عصرت عَرَق الشرطى الأيرلندى من قميصه فلا يخرج إلا رائحة الصلصة واليخنى والتوابل ، فلا تملك أن تعصر من مخه شطراً من بيت شعر ، وأنا لا أعرف الشعر أيضا ولا كيف يجىء ، لابد من حالة ذهنية خاصة ومزاج خاص .

ومر بلوم بمستودع المنسيات من أمتعة المسافرين ، ما أعجب ماينساه الناس من حوائجهم وقد تكون أهمها ؟ نقودهم وحليهم المرأة تنسى حقيبة يدها ، والرجل ساعته وحافظة نقوده ، أو أوراقه – فيم تشتغل أذهانهم ويستغرقهم حتى يتخلوا عن أعز وأغلى ما يحرصون عليه ؟

ومر بالمكان الذى كان فيه مغنى الموسيقى الوترية ، أسسه «بات كنسلا » قبل أن يبنى « هويتبريد » مطعمه « حساء للولد » .

وكان بلوم صبياً وتذكر أنه رأى يومئذ ثلاث طالبات من كلية بورتى ، لابسات سراويلات حمر تحت القمصان الطويلة ، كيف يمضى الزمن ؟ وما أسرع مروره ! كأنه يطير على أجنحة ! . الشراب والشاربون يضحكون ويمزحون ، ويقربون الكؤوس من

أنفاسـهم ، يتلذذون برائحتها قبل أن يتجـرعوها ، ضـحك ومزاح ونكات وقـهقـهة وغمز بالأعين ، ودخـان الطباق يعقد قباباً فى مغنى الموسيقى الوترية نجاح بات كنسلا بات مضـموناً ، أين هو الآن ؟ لعله سـائل يسـتـجدى فى مكان مـا ، ذلك العود ، ذلك الجنك الذى أطربنا بأنغـامه وحـرض شـهيتنا للطعام ، أين صـاحبـه وضاربه وقبعتـه البيضاء وعينه الساجية وشاربه ؟ لقد كنت حينئذ سعيداً ، هل كنت سعيداً ، أم كنت أسعد من قبلها ؟ أم أنا أسعد الآن حالا؟ كنت فى الثامنة والعشرين وكانت هى فى الثالثة والعشرين (يقصد ماريون بلوم زوجـته) عندما غادرنا لومبارد ستريت ، لقد تغيرت الأشياء بعد موت رودى (ابنه الذى مات طفلا) لايمكننى أن أستعيد الزمن كأنك تقبض على الريح أو الماء ، هل تعود بنفسك الى الماضى وكـأنك تعيش كـأنك تبدأ من جديد ، أتود ذلك ، ألست سـعيداً فى بيتك؟ أيها الولد الشقى المتلاهى .

ثم يجىء وصف مطعم حديث إن الحرب والسلم ترجعان الى هضم الطعـام عند الذى يعلنهما ، الأديان والدنادى والأوز فى عيد الميلاد . ومذابح الأبرياء ، كل واشرب وامرح وسوف تمتلىء عنابر المستشفيات وغرفها وأبهاؤها بالجرحى والقتلى ، الله خلق الطعام

والشيطان خلق الطهاة ، إن الأسماك البلهاء لا تتعلم شيئاً فى ألف عام ، إن خيرات الدنيا أكثر مما يحتاج إليه الناس ، ولكن الصيادين يردون الى البحر نصف مايصيدون من الأسماك وذوات الأصداف «البطلينوس» ليرفعوا أثمان النصف الآخر كما يفعل الزراع والتجار فى أمريكا فإنهم يحرقون البن والقطن خشية هبوط السعر لتوافر الطلب ، وهذا سبب غلاء البطارخ ، وكشك ألماز ، وكل الألطاف وأطايب الطعام ، كالجواهر غلاؤها ناشىء عن ندرتها ، الجميلات واللذائذ والأنبذة النادرة ، ولو كان الكافيار الروسى رخيصاً ما اشتراه أحد الناس ، يجرون وراء الغلاء يخدعون أنفسهم بجودته ، إذ لم يكن جيداً ما غلا ! .

والذى يشتريه « الإليت » خاصة الخاصة ، اللآلىء قشدة القشدة ، وزبدة الزبدة ، يطلبون أطقمه خاصة ليثبتوا أنهم خاصة الخاصة ، وقلب البصلة وحشاشة الخسة ، رئيس الطباخين قبعته بيضاء كرئيس الكنيس ، زبانية ، سدنة هيكل البطون ، عبادة الكرش ، دين وصلاة للصحون والأطباق والألوان ، دجاجة بصلصة، بونابرت وكرب (كرنب) مجعد على طريقة دوقة يارما ، وبراغيث البحر تطهى حية ، وسمك يشوى وهو يلعب ليكون ألذ وأطعم فى

الأفواه .

سينما الحياة بأفراحها وأحزانها مسرحها الباطنى الذى يعكس المسرح الواعى وهو الذى يغذيه بالخواطر والدوافع والحوافز، حياة الانسان بالأقوال والأفعال بدون رقيب أو حاجز ، تحليل نفسانى يشهده القارىء من وراء غشاء شفاف ، نموذج ومناهج للعقول التى نلقى أصحابها ونعاشرهم ، كما ترى الأسماك سابحة فى حرز من الزجاج أو البلور ، تراها ترعى وتتلامس ، وهى لاتشعر أنك ترقب وترى ، وفى هذه الأثناء يحط الانسان أعباء الحياة عن كاهله ، ويتخلص من أحمالها وأثقالها مادام يفضى بها الى نفسه .

وقد وضع جويس عن كاهله حمل الحياة بعد أن عرضها وحللها على لسان بلوم وعشرات الأشخاص فى كتابه ، وحشد الحياة بأفراحها وملذاتها وأسرارها ومفاجآتها وفواجعها وغموضها وفضائحها وحسناتها وسيئاتها ، ورفع أقنعة النفاق عن أوجه الأبطال .

ومن صفحة ١٧٦ الى ٢٠٠ ، يتناول الحديث عن شكسبير وحياته الخاصة وأسرار تلك الحياة وشذوذه الخلقى وقد لمح له بعض

النقاد فيما كتبه عن أغنياته (سونيت) وعلاقته بزوجته ، وخيانتها الزوجية المزعومة وعدم حزنها على موته ، بله فرحها بموته واختصاصه إياها بالسرير ، وأن همليت لم يكن سوى شكسبير نفسه، وأن لهفته وحيرته وتردده خاصة بحياته الزوجية ، وسبب انشغال جويس بحياة شكسبير راجع الى أنه التقى فى سويسرا بصاحب نظرية لورد رتلاند ، وأنه هو واضع المسرحيات التى نسبت لشكسبير ، فأراد جويس أن يفنده ويدحضه ويلزمه الحجة بإيجاد أسباب قوية لكل مسرحية وإثبات علاقتها بحياة المؤلف نفسه، أو مقتضيات حياة شكسبير نفسه ، مما لم يكن لدوق أو لورد رتلند صلة به .

ومن ٢٠٢ – ٢٢٥ كلام عن القساوسة والكهنة والاعترافات والغفران وأسرار النساء وسلطة الكهنوت على المتدينين .

ومن ٢٢٦ – ٢٤٥ كلام عن الكتب المحظورة لمخالفتها للحياء.

ومن ٢٤٥ – ٢٧٦ عود الى أخ بارنيل ووصف موكب حاكم ايرلاندا وذكر باتريك ألويسيس دنجام يتيم بدى دنجام الذى دفن أبوه فى هذا اليوم ، ثم ذكر مدموازيل دوس وهى شخصية شاب

جعله جويس فتاة وكان تلميذه فى باريس وأقرضه أجر السفر من باريس الى دبلين ليكون على مقربة من أمه المريضة ، وذكر بويلان عشيق ماريون زوجة ليوبولدبلوم ووصف ديدالوس (والد المؤلف) فى سكره وصحوه ، ثم استيفاء أخبار الآنسة دوس ووصف حياتها .

ومن ٢٨٠ الى ٣٣٠ فصل خاص بوصف مستر رمبولد قنصل بريطانيا بزوريخ ، وكان عدواً لدوداً لجويس ، وهنا نقده وتقريعه والتشنيع عليه وهجاؤه والسخرية منه ونسبته الى الحلاقة تارة والى صناعة الجلادين ، فقد صار جلاداً مأجوراً يتولى تنفيذ حكم الإعدام ويبقر البطون مبالغة فى تنفيذ العقوبة ، بعد أن تقوم بعض المخبولات من النسوة بتلقى الإفرازات التى تسيل منهم بحسب مايقرره الطب ، وقد جعلها مؤلف ألمانى منبتاً لشجرة المندراجور المسمومة الملعونة في الأساطير و« دفاتر النسوان » ، وقد لقحت بها امرأة فولدت بنتاً مفرطة فى الجمال والرشاقة والجاذبية وانحلال الأخلاق ، كأن دمها خالط دم الشيطان .

وفى ص ٢٩٢ إحدى معجزات الأدب الحى الحديث وهو وصف إعدام مذنب وقد أسهب المؤلف وتوسع وأطال وأبدع وأعجز ، ونقل أحاديث الجماهير من الحاكم العام الى أحقر أفراد السوقة

رجالاً ونساء ، وكان مصرع المذنب فى دبلين طبعاً وتهمته أنه قتل عروسه قبل الزفاف (ص ٢٩٦) لسوء ظن أو خلاف طارئ كما يحدث فى كل البلاد وكل العصور ، والناس الذاهبون الى مثل هذه « الحفلات » العامة المثيرة للشعور يتغازلون ويتقارضون الثناء ، ويقضون حاجتهم ويلصقون بالنساء ، ويتواعدون ويتغامزون ، ويضحكون ويتبادلون النكات ويأكلون مما تزودوا به واتخذوه معهم لفترة اجتماعهم وانتظارهم فى تلك السوق المقبرية ، ولا يبالون ولا يتعظون بالمأساة فهى فى نظرهم فرجة عامة ، كانت تمنحها الحكومات للجماهير فى القرن التاسع عشر وما تزال فرنسا عليها فى هذا القرن كما كان الرومان يقدمون للشعب حفلات المصارعة وفيها تسيل الدماء ويقتل المغلوب ، ورجال الحكومة يتخذون أبهتهم واستعدادهم بكامل مظاهرهم ، وفى وسط هذه المعمعة يحار ابن دنجام لعجزه وأمه وأخوته اليتامى عن صرف « بوليسة » التأمين على حياة أبيه ، حادثه صغيرة من ألوف مثلها فى ظل الحادثة الكبرى .

والى هنا ينتهى النهار نهار الخميس ١٦ يونيو سنة ١٩٠٤ بمدينة دبلين ، وقد استغرق ٣٣٠ صفحة وهو نصف الكتاب .

ومن ص ٣٣١ يبدأ المساء ، ويبدأ بمناظر الأطفال والبنات على شاطىء البحر، وتدخل فى الحديث جرتى ماكدويل ووصفها والإعجاب بحسنها وأخلاقها · لون من الهوى العذرى وتمجيد الحب الطاهر البرىء وذكر أهلها ، وهذا الجزء من الكتاب يشبه كتاب زولا « الرؤيا » التى أهداها الى كريمة ماشيت ناشر كتب زولا، وصديقه الذى أعانه على طبع كتبه وإذاعتها وترويجها ، وكانت تحدياً من زولا لشانئيه وناقديه الذين زعموا أنه عاجز عن معالجة قصة فيها عفاف وطهر ونظافة خلقية لشدة ما انغمس فى ألوان كتبه التى عالجت الرذائل والمفاسد والجرائم والمظالم السائدة فى أواخر القرن التاسع عشر ، وهذا أنقى جزء فى الكتاب فى نظر الأتقياء والمتزمتين ، وقد تجلت فيه مهارة جويس ونظافة عقله ، وبياض قلبه ونصوع فنه ·

وفى بعض الأخبار أن جويس تعرف بعروسه التى عقد عليها فى ٤ يونيو ١٩٠٤ ، ولعل لهذا الحادث السعيد أثراً فى كتابة هذا الفصل ، وقد جمع جويس بين الغزل البرىء الطاهر وبين محادثة توأمين جميلين بريئين ، فهذه صفحات ملائكية ، وكان (ريجى وايلى) رجل أحلام تلك الفتانة ، تحبه وتتمنى زواجه ، وفى هذا

المنظر ثلاث فتيات سيسي كافرى وايدى بوردمان والبطلة أو عروس الكتاب جرتى ماكدويل نفسها وبين جاكى وجرتى منظر غرام (ص ٣٤٩) ، ولا نعرف إلا فى النهاية أن تلك الحسناء العجيبة الحسن ، عرجاء تهكم القدر ونقص الجمال مهما بلغ .

ومن ص ٣٥١ يعود بلوم الى الظهور بخواطره ومناجاته فى معايب النساء وذكر الطمث الذى يعاودهن مشاهرة ويعطل أزواجهن وما اتخذه اليهود فى شريعتهم فلا يقربون النساء فى تلك الفترة احتفاظاً بالنسل ، ويتحدث بلوم عن جرتى نفسها (ص ٣٥٢ - ٣٦٣) ، وهى مناجاة عجيبة خليقة بمناجاة زوجته وهى التى بزت الأولين والآخرين ، وبالجملة فإن الخمس وثلاثين صفحة من ٣٣١ الى ٣٦٥ تعد فى نظرى من أجمل ماجاء فى الكتاب .

ومن ٣٦٦ - ٤٠٧ الفصل الخاص بالولادة العسرة وهو آية فى البيان والعلم والإلمام بالحياة ، وقد انفرد جويس بأسلوب ومنهج جديدين ، وهو الذى خلا من أوله الى آخره من ترقيم أو تحديد أو بداية تعرف أو نهاية توصف ، صفحات من أجمل وأبلغ ماكتب كأنها مخطوطة بينان فحول الكتاب فى القرن السادس عشر وما بعده، فلو أن رابليه ومونتنى ورشفوكو وباسكال وفولتير قد اجتمعوا

وتعاونوا « على استحالة هذه الفكرة » ، واجتمع إليهم كبار كتاب انجلترا أمثال تشارلس لام وثاكرين وديكنز ما تمكنوا من بلوغ ما بلغه جويس الذى جمع بين العلم والأدب والواقع والحقيقة والخيال ، وقد بلغ من اللغة وامتلاك زمامها بما لم يجاره أحد من هؤلاء مهما علا كعبه لمن عرف اللغة الانجليزية وعرف أعمال هؤلاء الكتاب كلهم.

ومن ٤٠٨ - ٥٧٠ تلك المسرحية العجيبة التى حشد فيها معظم أبطال الكتاب حتى بعض الملوك الذين ماتوا ، ومكان المسرحية الدرامية مدينة الليل "Nighttown" أو الحى الملعون فى دبلين حيث السهر والخمر واللهو الأثيم ومايتبعها ولا سيما فى منزل مسز بيلاكوهين ، وبطل الدرامة ليوبولد بلوم نفسه، ونعدها مركز الكتاب وقمته وسمته من حيث الفن المسرحى ومظهر جديد لإعجازه، يبدو فيها بلوم متسكعاً ثم مخموراً ثم مغازلاً ثم مهيناً ذليلاً فقد تحمل أعباء القبض عليه ، « يقبض عليه الشرطيان وهما القنصلان المكروهان من صميم قلب جويس » ثم يقدمانه للمحاكمة ، وتتوارد النساء اللواتى أخطأ الرجل فى حقهن ، ويعرضن أعماله على المحلفين ، ويحضر أطباء لتشخيص أمراضه العقلية والبدنية ،

ويتغير المنظر وإذا بلوم ينتخب عمدة البلد ، ويخطب ويخطب له ويتغنى بمدحه ويهتف باسمه ويكاد الجمهور يؤلهه ويحملونه على الأكتاف ويخلعون عليه الثوب القرمزى ، ويسمونه ملك ايرلاندا غير المتوج ، ثم ينقلبون عليه ويعود الى بيلا كوهين ، فتنقلب هى رجلا وينقلب امرأة وتعذبه وتنكل به ، وتضع على ظهره سرجاً وتعلوه كالمطية وتؤذيه فى بدنه وترغمه على أن يلبس ويتكلم ويشير بيديه ويتحرك ويخفض من صوته ويغض من بصره كالنساء الخليلات ، «وهذا المنظر وورود اسم سيرسيه أوكيركيه هو الذى دفع بالنقاد أن يقولوا بتقليد جويس للأوديسة لأن فى كتاب هومير جزيرة سيرسيه التى تسكنها امرأة تفتن الرجال ، ثم تسحرهم خنانيص ».

ثم يعود بلوم رجلا ويخرج من بيت بيلاكوهين ويلتقى بستيفن ديدالوس (جويس) ويقعان فريسة للشرطيين والحراس فى الساعات الأخيرة من الليل ، ولكن ينجيهما كورني كيلهر ، رئيس الدفانين فى المقبرة التى دفن فيها بادى دنجام ، ينقذهما من مخالب الشرطة بدعابته وبدورانه وحذقه ومعرفة أخلاق رجال البوليس ونفسيتهم ، ولكنه يعجز عن تفسير وجوده وهو الرجل المتعظ المهتم بالدفن والصلاة فى تلك البقعة الموبوءة بعد نصف الليل .

وإن الذين زعموا أن كتاب جويس تقليد للأوديسة لاعذر لهم إلا جهلهم بالكتاب نفسه ، فلا شك فى أن إطلاق اسم عولس على الكتاب قد أدخل فى وهمهم أنه نسجه على منواله ، فأخذوا يتصيدون المشابهات القريبة والبعيدة ليؤيدوا رأيهم، وكان يغنيهم أن يقرأوا الكتاب نفسه أو على الأقل جزءاً منه :

فأولا - زعموا أن منظر الجنازة والدفن بعد وفاة دنجام يحل محل هاديس فى الأوديسة ، مع أن تشييع الجنازة والدفن والصلاة على الميت مناظر ظاهرة للموت ، بيننا أن هاديس هى الدار الآخرة عند الإغريق ، فيها الثواب والعقاب فى مكان ، وفيها أشباح العظماء وأرواحهم ، وقد وصل إليها تليماخوس ابن عولس يبحث عن أبيه وخرج منها ، وهى رمز لأن تليماخوس خاض غمار الموت ليلقى أباه، حياً أو ميتاً وهذا منتهى الوفاء والشجاعة منه ، وأى شىء من هذا فى منظر دفن دنجام غير عدم اكتراث المشيعين والقسيس والدفانين وحافرى القبور ومدير المقبرة نفسه لقلة مال المتوفى وبؤس الأرملة وأولادها ؟

وثانيا - زعموا أن ماريون بلوم المدعوة مولى تدليلا ، تمثل بنلوب قرينة عولس ، وبنلوب أميرة طاهرة تقية نقية عفيفة وفية ،

انتظرت زوجها عشر سنوات أنشأت أثناءها ابنهما تليماك أفضل تنشئة ولم تعارض فى رحلة ولدها للبحث عن والده وتحايلت مع وحدتها على الراغبين فى زواجها طوال تلك المدة ، حتى عاد زوجها وولدها وقضيا عليهم . وهى تلك التى غزلت خلال الأيام فى عشر سنين ، ونقضت غزلها خلال الليالى التماساً للفرج ، فأية صلة أو علاقة أو مشابهة بين هذه السيدة الجليلة وبين مولى بلوم الخليلة الفاسقة الفاجرة المستهترة ذات العشاق الذين لا عدد لهم ، وهى مغنية محترفة ، وقد فضحت نفسها فى مناجاتها الطويلة فى ختام الكتاب .

وأين الابن فى قصة بلوم ؟ لم يكن سوى طفل اسمه رودى مات بعد الأسابيع الأولى من حياته ، وهذه الوفاة المبكرة أقنعت بلوم بأنه لا يصلح للزواج والنسل ، فهجر زوجته فى الفراش ، وهذا الهجر أعانها على تهتكها واندفاعها فى سبيل السوء فأطاعت هواها .

وثالثاً - زعموا أن ليوبولد اتخذ من ستيفن ديدالوس ولداً (مثل تليماك) بينما كان والد ستيفن على قيد الحياة وهو سيمون ديدالوس يعيش ويروح ويغدو فى نفس البلد ولم يرحل فى حرب ولم

يكن بطلاً ولا داهية كما كان عولس ، وكان سكيراً عربيداً وهما عيبان لا يؤديان الى المخاطرة والمغامرة والغيبة ليبحث الابن عن أبيه فيجده فى شخص ذلك المنحط الفاسد الفاسق الشاذ المعيب الذى جمع الى معايب أهل جنسه الغريب معايب الحضارة الحديثة فى بلاد مستعمرة ، وهو ليوبولد بلوم .

وليس فى الكتاب من أوله الى آخره مايدل على تلك العلاقة أو شبهها ، ولو كان ستيفن يعد بلوم أباً فكيف نكل به وفضحه وأقذره وسود صحائفه وأثقل كاهله بالنقائص من أول الكتاب الى آخره وجعله مسخ الأجيال ومهزلتها وأضحوكتها وألعوبتها وسخريتها ؟ ولو شاء جويس أن ينتقم من أبيه الذى ينسب اليه حقاً ، وقد ذكره (سيمون ديدالوس) لفعل به شيئاً مما فعله بليو بولد بلوم . وكان بلوم الثاكل يذكر طفله المتوفى كثيراً فى مناسبات شتى ، لأنه درج على تتبع خواطره كما ذكر المؤلف فى مواطن كثيرة من الكتاب وكما وصفه ، فلما كانت الصفحة الأخيرة والمنظر الأخير من الدرامة كان ستيفن ديدالوس طريح الأرض من أثر لكمة أصابته من يد الشرطى رمبولد ، وبجانبه ليوبولد بلوم يواسيه ويستنهضه ليخلصه من مخالب المعتدى عليه وستيفن رجل فى الثلاثين من

عـمـره، وليـوبولد بلوم سكران لايكاد يبين أو يرى أو يـعـقل ، وهذا الذى جعل ستيفن يدمدم ويهذى من شدة الألم والكدر والخيبة لفقد العون.

فيحاول بلوم على عجزه حمله وإنهاضه ، ثم ينظر الى وجهه فتتبعث فى ذهنه المخبول خواطر عليل فيحدث نفسه قـائلا « إن الوجه يذكرنى بوجه أمه المسكينه ، فى الغابة الظليلة ... الصدر العـميق الأبيض ، فرجسون أظن أن فتاة قد أخذت بيدى ويضع فتيات . وهذا خير مايحدث له (يدمدم) أقسم سأهتف . وأخفى ولن أظهر جزءاً أو أجزاء ، فناً أو فنوناً فى رمال البحر الخشنة ، على طول سلك يرقى فى الماء ، من الشـاطىء ، حيث يبدأ « المد والجزر » ثم ينهض بلوم ويضع سبابته على شفتيه علامة الصمت ، ويتخذ وضع أستاذ مـاسونى يحفظ السر ، وعلى الجدار المقابل المظلم يبدو شبح بطىء لطفل من أبناء الجن سنة ١١ سنة . طفل غرير أبله متردد متحول ، وقد ارتدى ثياب كلية إيتون لأولاد الأعيان ، وله حذاء من الزجاج وخوذة من البرنز وفى يده كتاب يقرأه من اليمين الى الشمال (كأنه عربى أو عبرى) بصوت غير مسموع ويبتسم ثم يقبل الصفحة التى يقرأ فيها ، فيصعق بلوم صعقة

الدهشة وينادى بصوت خافت : رودى ! ، فيحدج الطفل فى وجهه بعينين لا تريان شيئاً ويستمر فى قراءته ثم يقبل الصفحة ويبتسم ، وله وجه دقيق ضارب الى الأرجوانى وأزرة ثيابه من الماس والياقوت وفى يده اليمنى عود من العاج له ربطة من البنفسج وتتدلى من جنب صدريته قطعة من فراء حمل بيضاء .

هذه هى النبذة التى تحكك بها بعض النقاد الأدعياء ممن لم يقرأوا الكتاب بل يتصفحوه وزعموا أنه يمثل لقاء ستيفن بأبيه بلوم، أو تليماك وعولس ! وبنوا عليها قولهم إن ستيفن ديدالوس كان يبحث عن أبيه حتى عثر عليه فى بيت سيرسيه شخصاً « هلفوتا » منحلاً متهالكاً مخموراً منكلاً به وممثلا به قد اتخذته بعض النساء مطية ألا فليخجلوا ! إنه هذيان سكير عربيد فى آخر الليل ، ولكن بلوم هذا لم يفقد عاطفة الأبوة فتذكر طفله كما يحدث للسكارى ، ذلك الطفل الذى قضى بعد الأسابيع ومازال أمه فى النفاس ، ولم يشب عن الطوق ولم يبلغ الحادية عشرة حتى ولا الشهر الحادى عشر !

أما قوله إن وجه ستيفن يشبه وجه أمه المسكينه فهو يقصد الى وجه أم ستيفن نفسه ، وجه ماريون أو مولى لأن بلوم عرف

أسرة ديدالوس وعرف سيمون ديدالوس وزوجته « أم جيمس جويس» وليس هناك مايدعو الى وصف زوجته الحية التى تسعى بأنها مسكينة ، وهى التى تسقيه العلقم بدعارتها وتهتكها .. حلم سكران . وشبح تراءى لمخمور كأنه من أرواح الجن ، لا من أبناء البشر .

ولكن فن جويس وخياله الخصب وقدرته على التمثيل والتصوير وفكرته الرمزية وتحليل النفس هى التى خلقت تلك الصورة الفاتنة ، وما أعجب قدرة المخرج المقسوم له المجد إذا استطاع أن يخرج شريطاً مصوراً ناطقاً من تلك الدراسة الخالدة!!

هذا أحق وأخلق بتفكير الناقدين من جريهم وراء الأوهام التي لا أساس لها ولا علاقة لها بالمقاصد البعيدة الغور للفنان العبقرى .

وبعد أن ينهض ستيفن ويسير متكئاً على عصاه فى صحبة بلوم يقصدان إلى مكان لشراء فطير محلى بالسكر يسد جوعتهما فيلقاهما فى سواد الليل وفى تلك الناحية القصية المقصودة من الهواة والغواة والباحثين عن اللذات المحرمة فى قبور الأحياء جون كورلى وهو صديق قديم لستيفن قعد به الدهر وأحوجه للقوت

الضرورى والفراش فلا يجدهما ولا يجد عملاً ، وقد درج على الإدمان فيخلو بستيفن ويشكو له عذره ، فيقرضه نصف كرون .

وقد أعاد هذا الحادث الى ذهن جويس حياة البوهيم وفلاكة المفلوكين وحالته بعد أن غادر بيت أبيه ولم يكن يجد قوتاً ولا فراشاً ولا صدراً حنوناً بعد صدر أمه وحب أخوته .

ثم يلتقيان (ستيفن وليوبولد بلوم) بموليجان (بك مليجان) – وهو طالب الطب، صديق ستيفن من الساعة الأولى فى هذا اليوم على سطح البرج فيتحدثون فى مقهى ويعثرون على بحار (مورفى) عاش سبع سنين بعيداً عن وطنه وبيته وزوجته ، فيشبهه جويس بالسندباد البحرى ويدور الحديث على مورفى مدة طويلة ، وحتى هذه الواقعة الطارئة لا تمت الى الأوديسة بسبب ، سوى اغتراب البحار ولا عجب فيها لأن الأيرلنديين كالإنجليز أمة بحارة وقد يغيب الملاح أو القبطان عن وطنه سنوات فى عمله ولا يوصف بأنه سندباد أو عولس ! وقد عاد البحار مورفى بأخبار ونوادر مما شهد ورأى وسمع وفيها بعض الغرابة مما قد لايصدقه كل مستمع مثل لعبة الورقة التى تبدو خارقة للعادة فى زمن جويس ولكنها صارت شيئاً عادياً معروفاً وهى اختراع يابانى ، بيانها أوراق صغيرة فى حجم

الفولة أو القمحة ذات ألوان مختلفة تضعها فى الماء فتنفتح عن أزهار وثمار وتصاوير وحيوان وحشرات .... إلخ (ضع ورقة فى الكباية تطلع فلاية) كما كان ينادى عليها الباعة المتجولة .

فهذه بدت فى أول أمرها - غريبة للمستمعين لحديث البحار مورفى وظنوها تحفة أو خرافة ، ثم يكشف البحار عن الوشم الذى اصطنعه على بدنه فإذا هو متحف متجول ولا سيما الخلط بين صور النساء العاريات وبين آيات الإنجيل على ظهره وصدره وذراعيه والنقوش الملونة مكتوبة بلغات شتى وألوان مختلفة مما يجعل جسمه بدعة ثم يستطردون بسبب حضور الطبيب (موليجان) للكلام على الأمراض السرية والكشف عن النساء والبغاء المباح والمحظور ، ثم يعودون الى البحار مورفى .

وفى ص ٥٩٦ يرفع القناع عن جنسية مولى بلوم وأنها يهودية إسبانية مولودة فى جبل طارق ، وهذا سر كلامها عن جبل طارق فى آخر الكتاب وتفريطها فى عذريتها ولما تبلغ الحلم .

وفى ص ٥٩٩ سر عجيب يدل على اطلاع جويس على أدق أسرار السياسة الدولية وأخفاها كذلك السر الذى جهر به فى ص ٣٢ وحلم يتحقق حالاً فيها وأعانت الأقدار على تمامه .

ووقعت أشياء بعد نشر الكتاب سنة ١٩٢٢ يقيناً تدل على صدق نظر جويس وصحة نبوءاته ٠

وفى ص ٦٠٧ اعتقاد عوام الشعب الأيرلندى أن زعيمه بارنل لم يمت وأن اختفاءه كان دسيسة من الإنجليز أو حيلة منه ، وأنه مايزال على قيد الحياة سوف يعود الى بلاده مكللاً بالفخر متوجاً بالعظمة القومية ، والمقصود فى الحقيقة أن أيرلاندا فى سنة ١٩١٤ كانت تعتقد أنها ستنال حقوقها وحريتها وكان بارنل رمزاً لها وقد تحققت آمالهم على أيدى أتباع الزعيم وأنصاره بعد وفاته ٠

وهذا يشبه مايظنه الألمان بعد الهزيمة فى هتلر وما ظنه أتباع بعض العظماء بعد موتهم ، وقد زعموا مثل هذا الزعم فى كتشنر ونقولا الثانى القيصر الظالم فى روسيا ومثلهم فى ذلك العقيدة الإمامية ، فمازالوا ينتظرون الإمام الثانى عشر أو المهدى المنتظر ! ٠

قلنا قد صحت كهانة الشعب الأيرلندى ، لأن حلمهم ببارنل وتعلقهم به لم يكن لأجل شخصه ، ولكن لأجل حريتهم وقد تحققت على أيدى رجال غيره من أتباعه أمثال جريفيث (وقد قضى نحبه وسط الجهاد) وديفاليرا ٠

ولا خلاف ولا فرق وقد حدث فى مصر فى سنة ١٩٤٧ أن تحققت آمال مصطفى كامل التى تمناها فى سنة ١٩٠٧ ، لأن حياة الأمم لا تتعلق بفرد أو أفراد أو حزب أو أحزاب ، إنما كل فرد وكل حزب يتم قسماً من الواجب عليه نحو وطنه ومصطفى كامل صنع ماقسم له أن يصنع ، وزرع شجرة طيبة ومباركة وخلفه ممن أحسن أو أساء ، وتقلبت الدنيا ولكن لابد لهذا الحلم المقدس أن يتحقق فيكون تحقيق هذا الحلم كاملاً بمثابة بعث مصطفى كامل وعودته الى الحياة متوجاً بالفخار والخلود معترفاً له بالجميل وكأنه نجا من الدسيسة التى أخفته أمداً عن الأنظار .

ومازال أصحابنا بالمقهى وما هو بالمقهى ، بل مخبأ أو موئل أو خيمة أو قباء معدة لإسعاف الحوذية والمارة من المتأخرين ليلا ليتبلغوا بلقمة خبز وزبد أو جرعة ساخنة من قهوة أو شاى ، فيدور الحديث (ص ٦٠٧ - ٦١٠) على بارنل وإن تكن وطنية جويس لا تبلغ حرارتها درجة عالية (لأن شعبه لم يصنع له شيئاً ولم يمد له يداً ، ولم يبذل له جهداً وهو فى أحرج الأوقات فهو ليس مديناً لقومه بشىء) ، إلا أنه يعجب بالعظماء وأهل المروءة والنخوة والأخلاق العالية ممن يقفون حياتهم على المصلحة العامة ، ثم يتلوه حديث عن

الموسيقى ، وهو الموضوع الذى يحبه جويس لأنه يغنى ويوقع على أدوات الموسيقى كلها ، وله صوت جميل وكذلك أخوته وأولاده، خلة ورثها عن أمه ٠

وفى ص ٦٢٤ يشرح طريقة عمله فى التأليف ، وما استودعه كناشته منذ كان فى باريس حوالى سنة ١٩٠١ ، وفى هذا الفصل فن جديد وصنعة جديدة ومنهج مستحدث وطريقة طريفة كتلوين الشخصيات ، فهو يعرفها بوسيلة غير مباشرة وهى معرفة شخص آخر ، وفى ص ٦٤٧ أغان عن قتل أهل إحدى الملل أبناء ملة أخرى لينتفعوا بدماء القتلى فى أعيادهم ، وهى لا ريب أسطورة ، ثم كلام فى الفلك وفى تشبيه النساء بالكواكب والقمر وكلام فى علاقة الجنسين ، ومناجاة ماريون بلوم الشهيرة وهى ختام الكتاب ٠

(١١)

بين « عولس » لجويس والأوديسه لهوميروس

يتحتم على من يريد أن يقف على حقيقة هذا الكتاب «عولس» أن يلم إلماماً تاماً بحياة المؤلف ونشأته وما كابده ، فإن أمرين ظاهرين لكل مطلع فى الوهلة الأولى ، الأمر الأول : رغبته فى تسجيل حياة العصر الحديث ، والأمر الثانى التجاؤه الى منهج المناجاة الباطنة « Monologue Interieure » ، وهذان الأمران نتيجة مباشرة لحياة جيمس جويس الشخصية ، أى أن فنه نشأ عن حياته ونبت فى أغوار نفسه ولذا كان الوقوف عليها بمثابة المفتاح لهذا الكتاب . ولا يمكن أبداً فى هذه الحالة بالذات أن يكون الكتاب مفتاحاً لحياة المؤلف كما نشاهده فى معظم كتب أناتول فرانس أو مارسيل بروست ، فإن هذين الكاتبين بالذات قد أفرغا قسماً كبيراً من ترجمة حالهما فى كتبهما .

ويلاحظ فى كتاب جيمس جويس وحدة المنهج واختلاف الأساليب ، ولم يجىء هذا الاختلاف فى الأساليب مصادفة وإنما

جاء لإتخاذه طريقة فنية مبتكرة وهو إخضاع اللغة لموضوع الفصل الذى يكتبه ، ومثله فى ذلك مثل الموسيقار المؤلف Gompositour أو الذى يطلقون عليه فى اللغة العربية صفة الملحن ، فإن الملحن الممتاز هو الذى يجعل نغم الموسيقى مطابقاً لمعانى الألفاظ التى يراد التوقيع لخدمتها كما هو المشاهد فى أوبرات فاجنر ، وهذا هو سر نجاح ذلك المؤلف الموسيقى العظيم وكل من اتبع طريقته ، لأنه بينما يوجد الانسجام فى الموسيقى أصلاً فيجب إيجاد هذا الانسجام نفسه بين الألفاظ التى تنشد ويتغنى بها وبين مجموع أنغام الموسيقى نفسها ، فإن منظراً يمثل عاصفة هوجاء واضطراباً فى أنفس أشخاص المنظر لا تصحبه موسيقى ناعمة أو هادئة كالتى تصحب منظر غزل فى ضوء القمر ، ويمكن أيضاً التوضيح بالاستشهاد بموسيقى ديبوسى فى قطعة المرايا Mirours وقطعة حديقة تحت المطر من وضع تشايكوفسكى ٠

ولذا فإن جويس الذى ورث المواهب الموسيقية عن أمه وكان هو نفسه موسيقياً قد أضاف بفنه الى مواهبه هذا المظهر ، فيجعل لكل فصل من كتابه أسلوباً ينسجم والمعانى التى يعبر عنها ، ونضرب لذلك مثلا الفصل الذى عقده لوصف مستشفى الولادة

والفصل الذى جعله للهوى العذرى ، والفصل الذى وصف فيه منظر تنفيذ حكم الإعدام وهكذا ، فإن هذه الفصول كلها وإن كانت مكتوبة بقلم واحد وقد تكون قد دبجت فى أوقات متقاربة وإن يكن نفس الكاتب واحداً ، إلا أن الأساليب مختلفة ، والاختلاف ظاهر أولاً فى اختيار الألفاظ وتنسيق جرسها والعناية بوقع أنغامها فى الأذن ، وثانياً فى تركيب الجمل ، وثالثاً فى طريقة الجلاء الذهنى الذى ينقله المؤلف الى القارىء على طريقته ، فيكون بمثابة مهندس الرى الذى يتصرف فى الماء بحسب حاجة الأرض وموسم الزراعة وغزارة الماء ومقدار المطلوب منه .

وبالجملة فإن جويس أثبت أن المؤلف فى حاجة الى مواهب كثيرة ليصل الى الدرجة الأولى فى تطبيق فنه وجعله موافقاً للأهداف التى يرمى إليها ، ومثل هذا المؤلف ينبغى له أن يتمتع بالحرية المطلقة ، ويجب عليه أن يكون على علم غزير باللغة بل باللغات ، ولذا فأنت تشعر أحياناً أثناء قراءة فصول هذا الكتاب أن مؤلفه يسكرك بفيض مواهبه وغزارة ألفاظه ويغمرك ويغرقك تحت وابل متتابع هطال من الكلمات المختارة للمعانى التى يريدها ، فإنه ليس صائغاً وجوهرياً ومثالاً ومصوراً وشاعراً وحسب ، بل هو غنى

جداً فى كل المواد اللازمة ، لإتقان كل صنعة من هذه الصناعات ، وغنى جداً بالأدوات اللازمة لإتقانها .

وقد صهر المؤلف كل تلك المواهب وكل تلك المواد في بوتقة واحدة ، وأضاف إليها روحه وعقله وعواطفه وآلامه وتاريخ حياته وحياة وطنه وأحداث عصره وأحاسيس الشعوب المختلفة التى مازجها واختلط بها أثناء الحرب العالمية الأولى وقبل ذلك بعشر سنوات ، ومؤثرات الأوساط المتباينة وأحداث العصر وأخبار الرجال والنساء العظماء والمطمورين من الجنسين ، صهر ذلك كله فى قالب واحد وهو كتابه .

ويبدو للقارىء لأول وهلة صدق هذا الاستنتاج من الفصل الذى عقده فى وصف جنازة دنجام ، وبلغ القمة فى المسرحية المنطوية على عجائب الفن حتى أنها تفوق وصف السوق الكونية التى نظمها جوته فى رواية فاوست .

ولم يكن من المستطاع لهذا المؤلف أن يغفل الدين والسياسة والأخلاق وعلاقة الجنسين فى هذا المعرض الكونى ، ولم يكن من المستطاع أيضا أن يخضع للقوانين أو المقاييس العرفية والعادية ، فإن له قانوناً خاصاً به وميزاناً ومقياساً يستلهمها ، كما أنه ألزم

نفسه بلوغ الذروة فى التعبير الصادق غاية الصدق والقوى غاية القوة حتى صار فنه خالداً ، ولا يمكن القول بأن هذا العمل جاء مصادفة أو بغير وعى من المؤلف كما يزعم بعض النقاد جهلاً ، فإن الوعى ملازم له فى كل لفظ وفى كل جملة ، حتى عندما يغفل الترقيم وعلامات الاستفهام والنقط والفواصل إنما فعل ذلك كله قصداً لغاية معلومة .

وليس ينبنى على أنه اختار منهج الحوار الباطنى أو المناجاة الداخلة على أنه هو نفسه كان بغير وعى ، فهذا منتهى الخرق فى الرأى من الناقد الذى ادعى أن كتاب جيمس جويس يقرأ من أوله الى آخره أو من آخره الى أوله ، فتكون النتيجة واحدة فى زعم ذلك الناقد الدعى ، وهذا الرأى المنسوب الى ينج أحد أصحاب فرويد - وهم أدلر وأتباعه - خطأ فى عقلية ينج وطعن فى علمه ، لأن جيمس جويس ليس مريضاً ولم يكن كتابه وثيقة معروضة للفحص بوصفها إنتاج مريض ليستطيع المحلل النفسانى أن يبنى عليها عناصر تشخيصه ، ومجرد التفكير فى هذا الرأى يدل على مرض ينج نفسه، فإن كتاب جويس ليس وثيقة مرضية أو إنتاج رجل مريض يعالج بالتحليل النفسى الذى هو خرافة هذا العصر وأسطورته

وإحدى وسائل الاحتيال والنصب فيه ، بل هو وثيقة إنسانية وعمل فنى باهر سليم وصاحبه أسلم كتاب أهل عصره ، بل وغيره من العصور .

أما الجانب الذى وصفوه بأنه مخالف للآداب ، يقصدون أنه فاحش ، فهذا الوصف مردود عليهم وهو صدى لنغمة إنجليزية عتيقة موروثة من العصر الفكتورى السحيق البائد المنافق ، فقد سبق لهؤلاء المتنطعين المرائين المتسترين وراء دعوى الفضيلة الكاذبة، سواءاً فى بريطانياً أم فى الولايات المتحدة ، أن هاجموا شاعرين عظيمين آخرين وذلك فى سنة ١٨٧٠ وما تلاها ، وهذان الشاعران هما Swinburne سوينبرن وهويت مان اللذان نظما دواوين أتلانتا وروز موند والملكة الأم وورق الحشيش وقد اتبع كل منهما فى نظمه آراء المدرسة الشعرية المعاصرة له « البريرافايليت » التى أسسها فى انجلترا روزيتى واختط فيها خطة جديدة فى الشعر والتصوير ، ولم يكن سوينبرن مقلداً بل كان مبتكراً ، ولكن صادف ابتكاره توافق الخواطر فى الطريقة ، ولا سيما فى ديوانه «القصائد والأغانى» فإن فيه ثورة على الأفكار المكتسبة بالتقليد والتى خضع لها المجتمع خضوعاً أعمى ، وزعم النقاد أنه ادعى

بالرغبة فى القضاء على الربوبية ومحو ذكرى الألوهية ولا سيما فى قصيدته « أنّا كتوريا » ، وأنه وصف الدين المسيحى بانه جالب الأحزان والدموع الى الجنس البشرى ، وأنه فى قصيدة نشيد الثناء على الزهرة جمع بين التيار اللاديني وبين الشهوات الغامضة المهتاجة ، وجعل الفرح بالحياة قرين الحرية فى الحب ، وامتدح إلهة العشق وجنون « سافو » و« فرانجلولتّا » و« هرمافروديد » ، وكلها قصائد تدل على تلبس العقل بالجنسيات ، ورغبة الشاعر فى التحرر من مركبات النقص وعقد النفس التى أصابته فى شبابه وذلك كله قبل الاختراع العقيم الذى ساقه فرويد وأتباعه للدنيا .

ولكن هؤلاء النقاد الإنجليز المتفيهقين نسوا أنه لم يكن عصر روزيتى وسوينبرن وحدهما بل كان أيضا عصر بودلير فى فرنسا وتيوفيل جوتييه وارتور ريمبو ، وقد نظموا دواوين لا عدد لها ، لا يعد تحرر سوينبرن فى جانبها شيئاً خطيراً ، بل نسى الانجليز أنفسهم أن بيرون قد تحرر قبل هؤلاء بثلاثين عاماً وهجم بفنه الجديد وقصائده الرنانة على الحصون العتيقة والقلاع البالية ، وأصيبت فى زمنه انجلترا بحمى الفضيلة حتى أرغموه على الهجرة، ومرجع هذا كله ضيق العقل البيوريتانى « نسبة الى الشيعة

المتشددة المتحرجة المتزمتة » .

ومصدر هذا كله النفاق السكسونى ، وثورة الأدب والفن عند بعض الكتاب والشعراء على الاندفاع المادى الذى سكن عقول الانجليز وأغرقهم فى بحر مظلم من المال والصناعات والحروب الاستعمارية وتقديس التقاليد ، فكانت ثورة الأدباء صرخة من الأعماق ضد هذه المطامع والمظالم والمفارقات فى الحياة الاجتماعية وسيادة بعض الطبقات القليلة على معظم الطبقات الأخرى ، وسيادة المظالم باسم العلم الحديث وهو علم مادى هدم المعتقدات وقضى على العواطف وخلق أسباباً جديدة للتفاوت بين البشر وبين الطبقات الانسانية الاجتماعية ، وأن ذلك العلم بكل قوته وأسلحته وأمواله المغتصبة وذلك النهم الذى لايشبع صاحبه والمطامع التى لا حد لها، لم تُغْنِ الانسان شيئا ولم تُغْنِ الروح بل تركت الروح الإنسانية فى حالة قحط وظمأ وجدب بلغت غاية اليأس والقنوط ، فنظم جيمس تومسن ديوان « المدينة ذات الظلام المرعب » فأحدثت فى سنة ١٨٧٩ دوياً مهولاً ، وأعقبها كتاب « هل الحياة جديرة بأن تعاش » بقلم و.هـ . ملك .

وكان فتز جيرولد قد فرغ من نظم رباعيات الخيام

بالانجليزية ، فلفت الأنظار اليه وإلى تلك المسائل الروحية المعنوية الأزلية التى عالجها الشرق من قديم.

فصار سوينبرن مركز الدائرة وهدف المنافقين واتخذه كثير من الكتاب السخفاء الذين لا شأن لهم وسيلة للدفاع عن الفضيلة ليشتهروا على حسابه ، فكان رده القاطع الحاسم فى مجلة «هوتن» حيث قال الحجة الكبرى التى يعتمد عليها هؤلاء النقاد ، هى أن يسألوك هل يجوز أن تقرأ أم لبنتها العذراء هذا الكتاب أو تلك القصيدة بصوت عال دون أن يعتريها أو يعتريهما الخجل ؟ فإن أجبت سلباً ، فقد وقعت فى فريق المنبوذين أعداء الفضيلة وأنصار الرذيلة ، وهذه حيلة دنيئة من هؤلاء النقاد الدجالين يقصد منها الى تهديد الكتاب والشعراء بالأوهام والإرهاب والتخويف ليرغموا على العمل والإنتاج بقيود معينة وشروط خاضعة لرغبات هؤلاء النقاد ، وغايتها فى النهاية كبح جماح العقل البشرى وإخضاع الكتاب والشعراء لنُظُم الاستغلال المادى .

والمفاد من هذا العرض الوجيز لتلك المسألة أنها لم تثر فى عهد جويس وحده بل إنها نغمة قديمة دقوها على طنبور بال ودف مخروق ، ووقعوا بها على عود تمزقت أوتاره ، وصفقوا بأصناج

محطمة صماء قد تسمع ولكنها لاتطرب .

وزاد نصيب جويس من ذلك البلاء ، أنه إرلندى من أمة مغلوبة على أمرها ، وثائرة على ظالميها ، وأنه كاثوليكى مرتد وأنه فقير لا جاه له ، وليس حوله شرذمة من الملقين والأتباع وأنه هاجر من وطنه فى عنفوان شبابه وألف كتابه فى الغربة وعاش فى زمن تطاحنت فيه المبادىء والمذاهب ، وكاد القديم أن يلفظ آخر أنفاسه ، ولكن مازالت بعض الدول الظالمة متحكمة فى أقدار العالم ، متخذة الغدر والخداع والدسائس وسيلة وسلاحاً لها وعلى رأسها انجلترا العجوز البالية الفانية التى لاتريد أن تلقى بسلاحها المغلول من يديها المرتجفتين ، فتجمعت كل هذه المصائب على رأس جويس فى أوائل العقد الثالث من القرن العشرين ، ولكنه لم يبال بها وصمد لها وتغلب فى النهاية عليها ، وجاء حكم المحاكم الأمريكية فى سنة ١٩٣٣ قاطعاً لهذه الألسن ، وواضعاً حداً حاسماً للمؤامرة السوداء التى كانت غايتها حرمان جويس من ثمرات جهوده واستغلال كتابه تحت ستار مصادرته فى أقطار العالم بأيدى أشخاص اتخذوا قانون المصادرة وسيلة من ناحية ، وعبثوا بقوانين حرية النشر من ناحية أخرى ، سواءاً فى بريطانيا ومستعمراتها أم فى الولايات

المتحدة .

ليس كتاب عولس قصة بالمعنى المعروف المتواطىء عليه ، لأنه ليس فيها مشكلة أو معضلة أو حيلة كالتى تتخذ عقدة للقصص يحلها المؤلف بالتدريج ، وليس فيها أعمال مادية وواقعات درامية كالتى تتخذ نسيجاً للقصة وهى نوع من الدوافع والحوافز التى تحرك الأشخاص Action ، وليس فيها غموض ولا خفاء ولا سر يراد اكتشافه ، كما يتخذ فى القصص الذى غايته كشف الجرائم أو رفع الستار عن أسرار حياة البطولة ، وليس فيها موضوع غرامى سداه العشق ولحمته الهيام بين بطل وفتاة أحلامه ، يقصدان الى الزواج ويبحثان عن السعادة الموهومة، وهذا سر قول النقاد الجاهلين أن ليس لها أول يعرف أو آخر يوصف ، لأن هذا الكتاب بمثابة مجرى نهر الحياة ، الذى ليس له أول ولا آخر ، لأن نهر الحياة ليس كأنهار الدنيا التى لها منبع ومصب ، وإنما هو تيار جارف أبدى ، ليس فيه توقف ولا غرق ولا شرق ، ولا مد ولا جزر ، ولاتكاد تستبين فى نهر الحياة أشخاصاً لهم أدوار معينة أو أقسام مقسومة ، وقد يكفى أن تسمع الاسم أو ترى الوجه أو تقرأ التلميح فتستعرض بذهنك حياة رجل بأكملها بل حياة رجال، أو أمة ، وحتى

الشخصيات الممتازة فى الكتاب ، أمثال شخصية بلوم وزوجته ، وستيفن ديدالوس وبك موليجان ، وعشرات غيرهم ليس لهم أدوار معينة ولا أقسام مقسومة ، ولكن لهم دلالات على شخصياتهم وألوان تتكرر رؤيتها وعرضها على ألسنتهم وألسنة المتكلمين عنهم ، لأن قصد المؤلف هو إظهار الروح والنفس والعقل ، لا إظهار الشخصيات والأخلاق والطباع ، وإنما تأتى هذه الأشياء تبعاً للمقصد الأول الأسمى للمؤلف وخطته الموضوعة التى انطوت عليها نفسه ثم أخذ ينشرها تدريجاً ٠

وهذا دليل جديد على الفرق العظيم بين عولس لجويس وبين الأوديسة لهوميروس ، فإن أوديسة هوميروس قصة منظومة شعراً ولكن لها بداية ونهاية ، بدايتها انصراف بطلها يوليسيز من حرب طروادة ، ووسطها تيه هذا البطل البحّار فى طريق عودته الى وطنه، وختامها بلوغه هذا الوطن ووصوله مع ابنه تليماك سالماً وفرحه بلقاء زوجته بنلوب والانتقام من أعدائه ٠ وفى هذه الملحمة واقعات وحوادث ومناظر تجثم على صدر القارىء وتقبض على خناقه وتضيق أنفاسه حتى يصل الى نهايتها ، كأنها قصة جنائية غامضة يراد الوقوف على سرها ، أو سرد أسرار خطيرة يرفع الستار عنها

تدريجاً ، مثل جزيرة سيرسيه ومنظر هاديس ، وما وقع فيه الأب والابن من الأخطار ووسائل نجاتهما ، فضلا عن الهدف الإنسانى Interest Human الذى يتجلى فى الملحمة الإغريقية ، وهو بحث ابن شجاع عن أبيه ، ووفاء زوجة فاضلة لزوجها وبيتها ، ثم اتخاذ عولس من دهائه وفطنته أسلحة لمحاربة أعدائه والتغلب على مايصادفه من المصاعب ، وحيلة الزوجة (تلك التى نقضت غزلها) لمطاولة الطامعين فى زواجها ومماطلتهم .

كل هذه العناصر القصصية التى استمر المؤلف الناظم فى سردها عشر سنوات تدل على أن ملحمة هومير قصة سافرة صيغت تبعاً لقواعد الفن القصصى، ولكن ليس هكذا عولس التى كتبها جويس ، ولم يكن مقلداً ولا سارقاً ولا ناسجاً على منوال هومير ، لأن الفرق الجوهرى بين كتابه وكتاب هومير ، أن حوادث كتاب هومير تتم فى عشر سنوات ، وحوادث كتاب جويس تتم فى ثمانى عشرة ساعة ، أى فى أقل من يوم واحد .

وحوادث الأوديسه تقع فى جزر لا عدد لها وشواطىء بحار وأدغال وعالم غير أرضى لا ندرى إن كان نعيما أم جحيماً ، وهو هاديس ، أما موطن عولس لجويس فهو مدينة دبلن ، بعض

شوارعها وبعض مساكنها وشواطئها ، وحتى واحد من أحيائها وهى مدينة عصرية ، وتاريخ يوم محدد بالساعة والشهر والفصل، وليس فيها استعانة بقوة خفية أو سرية أو سحرية ، كما هى الحال فى كتاب هومير، فقد كانت الأرواح والملائكة وبعض الأرباب عوناً له ولابنه ، وهذا باب لم يكن فى طاقة جويس أن يطرقه فى القرن العشرين فى بلاد تقدس المادة وتنكر الأديان وتجحد ما وراء الطبيعة ولا تسلم إلا بمظاهر الحياة الدنيا ولا تؤمن بالروح وحيرتها بين الخير والشر ، وتتخذ القوة وسيلة لهضم الحقوق ، وتتبع الأهواء وتعبد المال ، وتسترق الأفراد والجماعات ، فوجب على جيمس جويس أن تكون ملحمته مطابقة هذه العناصر والحقائق والمنازع والأغراض ليكون ابن دهره وكتابه كتاب زمانه .

وبينما كان هومير يتخذ من الأساطير أو الأخيلة أو الخرافات أشخاصاً يحركهم وينطقهم بما يشاء ، كان جويس مضطراً أن يحضر الى الوجود الأدبى أشخاصاً من المعاصرين المعروفين حتى بأسمائهم وألقابهم وأوصافهم وتاريخهم ، وأن يدمج بضعة أفراد فى شخص واحد ليكون علماً على حالة نفسية أو خلق شائع أو عيب وراثى أو رذيلة بغيضة ، وأن يضع جميع هؤلاء - وهم يعدون

بالعشرات – فى إطار متقن محبوك الأطراف .

وإذن ماذا تكون تلك الملحمة ؟ الملحمة الجويسية تسجيل هرقلى – أى بالغ القوة فى العمل والقصد والنفاذ – للحياة الواقعية فى العصر الحديث على صورة تمثل العصر وأهله بصفة نهائية ، لاينقصها شيء ولا تحتاج الى تمام بعد الذى أراده المؤلف ، وهى بصورة موضوعية (Objective) لا علاقة للمؤلف بها ، ومستقلة عن تأثيره كل الاستقلال ، ولا يروى فيها شيئاً من أخباره ، ولا يصف عنصراً من عناصر أخلاقه ، ولا يسخر مادتها لوصف حياته ، ولا يفرض على نفسه أو على القراء فرضاً ليستمعوا الى أحزانه وأفراحه ، كما فعل كتاب القرنين التاسع عشر والعشرين ماعدا قلة متمايزة منهم أمثال زولا وبلزاك وفلوبير .

بدأ جويس يفكر فى كتابه فى سنة ١٩٠٦ وبدأ يكتبه فى سنة ١٩١٤ وانتهى منه فى سنة ١٩٢١ ، ولكنه مع ذلك لم يذكر فيه تلك الحرب التى عاش أثناءها وقبلها وبعدها بعيداً عن وطنه ، وما ذلك إلا خضوعاً لقانون الفن ومطابقة أدبه للواقع ، فإن كتابه جعل لتسجيل وتخليد يوم الخميس ١٦ يونيه سنة ١٩٠٤ فى مدينة دبلن من الساعة الثامنة صباحاً الى الساعة الثانية بعد منتصف الليل ،

ولم تكن حوادث هذا اليوم وحدها كافية لملأ ٧٠٠ صفحة ، ولكن أضيف إليها ذكريات وواقعات سابقة وشخصيات معاصرة وأخبار وواقعات وأسفار وآراء وعواطف وتواريخ ونضال وكفاح وكلها مستخرجة من الحياة الواقعية التى توصف حيناً على ماهى عليه ، وحيناً تبلغ درجة التسامى ، ويحافظ المؤلف على استقلال كتابه استقلالاً مطلقاً فلا يتدخل فيه ولا يحول تياراته ولا يؤثر فى أشخاصه ولا يندمج مع بعضهم حتى يصير عملاً قائماً بذاته .

ويزيد فى قدر الكتاب أن مؤلفه عانى وضعه وهو يئن تحت أثقال لايعرفها إلا من كابد أمثالها وقد أشرنا الى بعضها ، فلا ضرورة للرجوع إليها ، إنما نقول إن كل تلك المتاعب - دموع العين وعرق الجبين ودماء القلب - كانت كلها بمثابة أشواك الورد التى أعانت وساعدت على ازدهاره .

ولم يكن جويس فى وقت من أوقات حياته من التاسعة التى أدرك فيها حقيقة الحياة كما أسلفنا الى الستين التى قضى فيها نحبه - عليل الجسم أو سقيم الروح أو مختل المشاعر أو مريضاً بأى داء عضوى عضال ، فيما عدا عينيه وأضراسه ، وهذه لا تخل توازن العقل ، ولم يعرف عنه من العيوب الخلقية شىء كما يعرف

عن كثير من الشعراء والمؤلفين أكثر من أنه كان يدخن ويتحدث على الطعام ، وقد تزوج مبكراً ، ويغني ويرقص أغاني وطنه ورقص أهل عصره ، ويشرب على المائدة نوعاً من النبيذ الأبيض الخفيف الأثر ، ولم يكن منغمساً في رذيلة من الرذائل كالمخدرات أو المقامرة ، وإنما كان استمتاعه بتلك الملذات المباحة البريئة وإفراطه حيناً في الغناء أو التدخين من قبيل الترفيه والتسرية عن النفس ، وهذه أبواب للهرب الذهني تعدها الطبيعة للنوابغ لينجوا من الجنون أو الانتحار السريع أو البطيء أو الوقوع في مخالب الأمراض المزمنة ، كما كان مرحاً طروباً ميالاً للمجون ، وهذه بمثابة صمامات الأمان عند أمثاله ، كما كان المرحوم أحمد فارس الشدياق ، ولكن على مرح جويس وعبثه البريء في حياته الخاصة ، فإنك لاتجد أثراً من ذلك في كتابه ، فإنه الجد كل الجد ، والوقار والحزن المكتم ، والقضاء والقدر الجاثمان على صدر الانسان ، والأحداث التي تتربص به ، والمجهول الذي يتهدده ، والأمر الواقع الذي يضطر للخضوع له ، فلم يتسرب من خلق جويس شعاع الى كتابه ، ولم تنشع نقطة من مزاجه الى عدله ، وهذه قدرة في الأخلاق تفوق بها على الكثرة الساحقة من الكتاب والشعراء وأهل الفنون أمثال

أسلافه بودلير وفرلين وبروست ورابليه وغيرهم .

سألوا لماذا اتخذ جويس شخصية ليوبولد بلوم بطلاً لكتابه ، مع أنه أشد الأبطال خيبة وأقل الرجال ذكورة وأضعف الناس نكاية وأكثرهم استسلاماً لإرادة زوجته المرذولة ماريون بلوم وهى امرأة ثقيلة الوزن ، ثقيلة الظل مظلمة الروح ، فارغة القلب والعقل ؟

قيل لأن بلوم يهودى ، واليهود رمز للارتحال والتنقل من حال الى حال والطمع فيما بين أيدى الناس والشح والمتاجرة بالنساء وتحليل الإباحية فى المجتمع والتحرر من قيود الفضيلة والارتماء فى أحضان سواها ، ولذا وقع اختيار جويس على هذا النغل ليكون بطلاً أى ليكون أكثر الناس ذكراً وكلاماً وواقعات فى الكتاب، لا لأنه يمثل اليهودى التائه أو اليهودى المستعمر أو الدساس أو الجاسوس أو الخائن ، بل لأنه يمثل العصر الحديث ، ولذا كانت شخصيته مزيجاً من شخصيات شتى ، ولم يراع جويس أحاسيس رجال ونساء من اليهود أعانوه وخدموه فى غربته ، مثل عزرا باوند وغيره، ولكن هؤلاء كانوا يهوداً متحررين من قيود ملتهم ، كما كان ليوبولد بلوم نفسه فلم يكن لا هو ولا أحد منهم متمسكاً بالعقيدة الإسرائيلية أو بشعائر الملة .

ولكن عشرات الأشخاص الذين حشدهم جويس فى كتابه ، كثير منهم يعرفون بأسمائهم ، وكثير منهم معروفون ، ويرمز إليهم بأسماء مصطنعة ، وكثير أخرون خلقهم جويس وأبدعهم وخلع عليهم ماينطبق على الأخلاق التى يريد أن يكونوا أعلاماً عليها .

ومعظم شخصيات الملحمة جمعهم جويس فى المسرحية ليكونوا بمثابة أشخاص فى استعراض ، فإن تلك المسرحية التى أشرنا إليها إشارة عابرة ، تقع حوادثها ويدور حوارها ليلاً فى نايت تون بدبلن من قبل نصف الليل الى الساعة الثانية صباحاً «وحدة الزمان والمكان والعمل والأشخاص » .

ومما يلفت النظر فيها ، وصف المناظر وحالة الأشخاص الناطقين والمتحركين بإرادة المؤلف ، وهو قسم مهم من التأليف بجانب الحوار ، وفى تلك المسرحية التى يعد إنجازها إعجازاً فنياً وأدبياً ، جمع جويس المسرات والرذائل والغباء والغفلة ، ورجال الشرطة والجواسيس والبغاء والسكارى والسياسة ، وبعض العظماء والمشاهير والأرواح وملائكة الرحمة وشياطين العذاب والغيرة ، والديوثين والقوادين ، والمتسولين والمحاكم والمحلفين والموتى والأيامى واليتامى والذكريات المجسمة والمعاصرة الناطقة ، وعقوبة

المذنبين والاقتصاص منهم وتأنيب الضمير ، والحقيقة والخيال ، والشعر والفلسفة والتاريخ .

وبالجملة جعل من هذه البؤرة صورة مصغرة لمهازل الدنيا ومآسيها ، فهى كوميديا إنسانية من نوع جديد ابتكره هذا الرجل وصاغه وأبدعه فى مئة وستين صفحة ويقصر البيان عن الإلمام ببيانها ، ولكن كل المواهب الفنية والأدبية قد واتت صاحبها على نسق واحد ونظام واحد وإنتاج مدهش حتى أن قارئها لتعروه لذة أثناء تلاوتها وأثناء إعادتها تحل محلها هزة طرب ودهشة عند تذكرها مهما طال الزمن على التلاوة الأولى ، فهى عمل خالد ووقفة فى تاريخ الفن تلفت الدهر إليها .

وأول مايدهش القارىء خلق الجو الملائم للمسرحية أو إيجاد اللون المحلى وهو تعبير ضئيل للإلمام بالفكرة ، فهناك ظلام وأشخاص مرضى ، وإبهام وقمامات فى الطرق ، وأشباح ومقعدون زمنى ، وأصوات رهيبة ، وأنات وهنات ، وصرخات وأشعة مظلمة ، وضباب وموسيقى حزينة ، وصيحات البغايا ، وسعال المرضى ، وعربدة السكارى ، وتدخل الشرطة ، وطلاب الطب وعلماء الروحيات .

ويبدو بلوم ، وهو مركز الدائرة وقطب القصة التى تتضاءل حيالها أعجب أشرطة السينما الناطقة والصامتة وأغربها ، يبدو بلوم جانساً خلال تلك البقعة النجسة وهو يترنح من الشراب ، ويدركه شبح أبيه المتوفى (رودلف) ، فيعاتبه ويؤنبه على سوء مسلكه، ويخيل السكر لبلوم أنه يرى أشباحاً - أشباح جرتى إحدى معشوقاته ، وزوجته وأباه وأمه ، وهو يفطن الى أن قدميه حملتاه الى موطن المعصية ومقرها ، وتبدو له مسز برين (معشوقته الأخرى) ، وتتحدث إليه طويلا عن زوجته .

وقد اتخذ المؤلف طريقة لتغير الشخصيات تبعاً لتغير الحوادث المسرحية وطروئها وهو تغيير الملابس ، وقد جعل جويس نثر المسرحية وهو من أعلي ماكتب ممتزجاً بنوع جديد من الشعر على طريقة الأغانى ، وجعل حديثاً ناطقاً على ألسنة الكلاب ، فإن مثل هذه المواطن لا تخلو من الكلاب الضالة المسعورة والعقورة والعضاضة والكلبة سواء أكانت من الحيوان أو من البشر ، وأضاف الى الشرطة حراس الليل ، وهم رقباء الآداب العامة وحفظة الأمن فى ذلك المكان .

وأول تغيير يطرأ على بلوم أنه يصير فون بلوم باشا ، وأظن

أن أحد اليهود نال هذا اللقب وأعدم بعد المحاكمة فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، ثم يتولى بلوم الدفاع عن نفسه بوصفه جندياً محارباً ، ثم توجه اليه بعض النساء تهمة الاعتداء عليهن بفعل فاضح ، فيسوقه الحراس والشرطة الى مكان المحاكمة ، ويهاجمه بوفواه أو بيور فواه ويهدم دفاعه من أساسه ، وتتهمه خادمته «ديسكول» وتؤدى شهادة إثبات ضده ، فيدافع عن نفسه وينبرى محام للمرافعة عنه ، فيذكر أنه مريض العقل والجسم وأنه غير مسئول بسبب جنسه وصناعته ، فتنتدب المحكمة طبيباً شرعياً لفحصه ، فيقدم تقريره ضده ، وتتعاقب النساء على اتهامه ، فيصدر حكم المحكمة بإعدامه ، ويوصف بأنه يهوذا الأسخريوطى ، ويتقدم الشرطى رمبولد، وقد صار جلاداً لقطع رقبته ، وتطلب المحكمة شاهد نفى ، فيظهر شبح بادى دنجام ، دفين اليوم ويقرر أن بلوم كان يشيع جنازته وأنه ليس كما زعم شهود الإثبات من مقترفى الجرائم بالديناميت أو متجراً بالرقيق الأبيض ، ويؤيد الشبح فى شهادته شخص حارس القبور الذى شاهد بلوم فى القرافة أو المقبرة عصر هذا النهار ، ثم تبدو « زو » وهى فى صورة ظبى أو ظبية وتغازله وتستدرجه ، ويظهر ولتر رالى عشيق الملكة

اليزابث ، وقد جلب معه البطاطس والطباق من أمريكا ، ويكون ظهور هذا الشخص بداية تبدل حظ بلوم ، فينتخب رئيسا لبلدية دبلن ويتحمس له الشعب ويعتبرونه منقذ الوطن ، بل مصلح العالم بل زعيم الانسانية ، ثم يتوجونه ملكاً ، فيطلق امرأته ويختار لنفسه وزيراً ، وينقلب عليه الشعب ، فيتملقهم ويرشوهم بالمال والذهب والهدايا ، فينشقون عليه ، ويصيرون أحزابا ، وتحترق مدينة دبلن ، ويقتص بلوم من خصومه ، فيقتلهم ويوصف عهده بأنه العهد الفردوسى .

ويجن النساء حبّابه حتى ينتحرن تحت أقدامه ، ثم ينقلب بلوم امرأة ويلد ثمانية أولاد ذكور ، ويعينون فى أعلى المناصب ، ثم يأتى بالمعجزات ويصير نبى دهره ورسول عصره وتصطنع له الأنساب حتى يصلوا به الى الأنبياء الأقدمين ، ثم ينتهى حلم حياته وتستدرجه « زو » (الغزال أو الظبى) الى غرفة الموسيقى ، ثم يظهر المسيخ الدجال ، وتنتهى الدنيا ، ويأتى النبى اليجاه Elijeh ويتكلم ويتلوه فيراج ، ويصف نفسه بأنه الكاشف عن أسرار الرهبان والناشر لفضائحهم والمنقذ للعذارى من كنيسة روما ، ثم تتكلم الماديات بعد الأشباح ، فتنطق المروحة ، وتظهر بلا كوهين زعيمة

البغاء فى عصرها ولها حوافر فرس أو حمار ، ثم تنقلب رجلا وتتخذ اسم « بلو » وتغير ثيابها ، وتظهر بمظهر الوحشية فى الطعام والشراب والكلام ، فينقلب بلوم امرأة ويزحف على بطنه ، ويبكى ويفر من بين يديها ، وهى أى بلا كوهين التى صارت « بلو » تحتم أن تضع على ظهره سرجاً أو بردعة لتركبه، ويرى بلوم فى تجسده الجديد بصفته امرأة سائر معاصيه السالفة ومعايب أخلاقه.

وتبدو كل من « زو » و« كتى » و« فلرى» » خاضعات مطيعات لبلو « وهذا القسم من المسرحية الذى دعى بعض النقاد الى تشبيه هذه الفئة من النساء فى بيتهن فى جزيرة سيرسيه ، ولو أن سيرسيه الأصيلة لم تأمر رجالها الذين سخطتهم حلاليف أن يخضعوا لمعصية سدوم وعمورة ، كما فعلت بلاكوهين بعد أن صارت رجلا » ، ثم يرى بلوم ماضيه الكريه مع النساء ، وهذا نوع من العذاب (١) يذوقه عن يد « بلا » التى تتقاضاه ثمن الذنوب فى

---

(١) هذه الفكرة قد انتحلها كتاب الفلسفة الوجودية فى سنة ١٩٤٥ فى كتبهم وقصصهم ولا سيما مسرحية « الجدار » .

شبابه ، وهو عذاب أليم ، ومايزال بلو « الرجل المتقمص » يعذب بلوم حتى يقتله فتذهب روحه الى كوكب آخر غير الأرض ، فتتلقاه بنات الغاب « نمف » ، وتطن فى آذانه أصوات النساء من بيت بلا كوهين وتظهر أشباحهن ثم يدخل عليه « لينش » وقد تحول بلوم فى تلك الحياة الآخرة ديوثاً لبويلن عشيق امرأته ماريون بلوم .

ثم يتلو منظر لم يسبق له مثيل فى أى أدب عالمى مستور أو مكشوف إلا فيما يلمحه القارىء فيما كتبه بيير لويس تقليداً للشعر الإغريقى القديم ، ولا سيما أدب سافو ، ولم يبلغ الانحطاط الخلقى فى الجسد والروح ما بلغه من ليوبولد بلوم ، ولم يبلغ كاتب من النثر والشعر ما بلغه جيمس جويس ، ولكن قدرة الكاتب الناثر ، وجمال التعبير يتغلبان على ثورة القارىء وهذا نادر ، وقد يكون جيمس جويس قد انفرد به دون كتاب العالم ، ويكون القارىء قد وصل الى حالة من السكر الحلال تنسيه كل اعتبار سوى الإعجاب بهذا الجبار الذى أوتى إعجازاً وقدرة فى البلاغة خارقة ، وهذا فى نظرنا ما حدا القاضى الأمريكى جون ولزى الذى أصدر حكمه فى عام ١٩٣٣ بأن ماورد فى الكتاب من الخواطر لا يؤثر فى أخلاق الشخص بل يزيده تقديراً للأدب والفن فتحدث معركة طاحنة بين

الإعجاب بالكاتب وبين النفور من بعض ماكتب ، وهو نفور منشأه الدهشة والذعر الروحي وينتهي الأمر بزوال الملامة وبقاء الإعجاب ، ولذا فإن النقاد الكاشحين يعذرون إذا هو لم يتحملوا بلاء تلك المعركة ، وتوهموا جمهور القراء الذين لايتحملونها لأنها جرعة قوية من الدواء الذى يمازجه السم الزعاف وأثره يتبع بنية القارىء وقوة تحمله ومناعته ومقاومته ٠

نرجع الى المسألة الأولى وهي أن هذا الكتاب لم يجعل لكل قارىء وقارئة ، وليس مقرراً للمطالعة أو الدرس لتلاميذ المدارس أو فتيات التطريز أو التدبير المنزلي، وانما هو موضوع لفحول القراء لإتمام تعليمهم واطلاعهم على نواح من الآداب لم يطلعوا عليها ، كما كانت بعض أوبرات فاجنر مسابقة بين فطاحل الموسيقى ، يأتى كل منهم فيها بالمعجب والمطرب ٠

ولذا فإن قراء من هذا القبيل الذين تشبه أذهانهم معدة النعامة تهضم الصخر والحديد وتأكل الحجر النارى والفولاذ المحمى وتستسيغها أمثال أرنولد بنيت و هـ ٠ ج ٠ ولز وأزرا باوند وسيموندز وهم ذوو الأقدار الحقة فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وعلى طرازهم مارسيل بروست وأندريه

جيد وتوماس مان فلم تأخذهم رعدة الحياء ولا نعرة الدفاع عن الفضيلة ، لأن للفضيلة أسلوباً بل أساليب أخرى غير أسلوب الأدب والفن .

وفى نظرنا أن كل أدب عال ، يغذى الروح ويرفع العقل ويفسح فى آفاق الذهن ، وهذا الكتاب من الأدب العالى إن لم يكن أعلاه .

ولسنا بحاجة لأن نقول فى مجال الدفاع عنه « لا حياء فى العلم ولا حياء فى الدين ولا حياء فى الأدب والفن » ، ولاسيما أن كبار الكتاب القدامى من العرب لم يتبرقعوا ولم يتقنعوا ولم يتشبهوا بالنساء عند الكتابة ، والأمثال حاضرة فى نثر الجاحظ ، وفى كتاب الأغانى وفى شعر أبى نواس وابن الرومى ، وقد حذف المحدثون قصيدة « لم ينصف الناس ضبه » من ديوان المتنبى ، وهذا ليس من حقهم ، ثم إن الحذف لم يمنعه من أنه نظمها وأنشدها ورواها عنه الرواة ، كذلك الأسفار المحذوفة من التوراة مطبوعة على حدة ، يقرأها كل من يبذل فى ثمنها دراهم معدودة .

وقد تمكن المنافقون والمتفيهقون من القبض على أوسكار وايلد وحاكموه باختياره ، لأن فرصة الفرار كانت سانحة له ولكنه أبى أن

يفـر من مـواجـهـة القـضـاء الإنجليـزى ، وهو غـريب عنه بجنسه الايرلندى وعقيدته الكاثوليكية ، ثم إن عمله لا يقل عن عمل سقراط إذ عرضوا عليه الهرب وأعدوا له وسائله فأبى ، ولا فرق بين الحكم الظالم الذى صدر فى أثينا قبل المسيح على الفيلسوف الحر الذى اتهموه بإفساد عقول الشباب ، وبين الحكم الذى صدر فى لندن بعد المسيح بتسعة عشر قرناً ، وقد حاسبوا الكاتب على فعل نسبوه اليه ولم يحاسبوه على ما كتب .

وإن البـدن ليـقـشـعـر من العـقـوبة التى وقـعت لأوسكار وايلد وكانت سـبباً فى القضاء على حياته ، ويقشعر مرة ثانية إذا فكر فيما كان يصيب جيمس جويس لو أن الأقدار القاسية ألقت به فى براثن هؤلاء المتـعصبين الطغاة القساة الغلاظ ، ولكن الدرس كان حـاضـراً فى ذهنه ، فـقـد فـر من بلادهم وبلاد بلادهم وبلاد بلاد بلادهم ، وكان بمنأى عنهم ، فلا تمتد اليه يدهم أبداً مهما طالت ، ولا يحيق به مكرهم مهما كان سيئاً ، كان الدرس حاضراً فى ذهنه وكان جويس عاقلاً حذوراً فاتعظ بما حدث لغيره ، فهرب مبكراً ، واتخـذ وطناً غيـر وطنهم وأرضـاً غيـر أرضـهم، وتمكن أن يقـول مايشاء وفوق مايشاء ، فليندب العاجزون عن الهجرة حظوظهم .

لو ظفر الطغاة بجيمس جويس حياً لشووه شيّاً على السفود، ولسلخوا جلده كما سلخ المتعصبون جلود الشهداء ، دع عنك الصلب وتقطيع الأوصال والإحراق وتذرية الرماد في الرياح باسم الفضيلة والدين والدفاع عن آداب المجتمع ·

إن هذا الكاتب الكبير سجل على ورق مساوىء العصر الحديث ، ورد الى القوم بضاعتهم ، ليروا بأنفسهم مقدار الكراهية والغثيان والصغار التي تصيبهم عند رؤيتها بل رؤية صورتها ، كمن يربط القاتل الى جثة المقتول ويكتفي بهذا العقاب عن القصاص ، ربط جويس معاصي العصر في أعناق أبناء العصر فشموا رائحتها، وذاقوا مرارتها وتعذبوا بالنظر إليها ، فثاروا على الكاتب، وهو لم يفعل شيئاً أكثر من أن قال لهم : هذه أعمالكم وأقوالكم وأداؤكم · فأسدى اليهم جميلا ولكنهم لم يبلغوا الرشد العقلي ليقدروا هذا الجميل الذي أسدى ، ولو شاء جويس أن يبذل جهوده وأدبه وفنه في كتاب في الوعظ والإرشاد والدعوة السافرة للفضيلة لألهوه وعبدوه ، ولكن الذي يؤله ويعبد أفراد قلائل ، هم الذين احترفوا القراءة والحكم على الكتب وهم يعلمون أن الوعظ والإرشاد في هذا الزمن يولد ميتاً ، ولكن جويس اختار ما يصلح للزمن وينفع

الناس ويرقى الأذهان ويخدم الخاصة ، ولم يكتب للعامة والدهماء والسواد الأعظم ، فإنهم لايفهمونه ولا يعون أدبه ولا يقدرونه، ولم يكن هذا الاختيار كله من صنع جويس ، بل فيه نصيب دفعته اليه الوراثة والوطن والجنس واللغة والمواهب وظروف الحياة وسير الحوادث وهذه كلها عناصر أصيلة فى تكوين الشخصية .

وهذا القسم الأخير أورده فى المسرحية عند استحضار شبح والده وذكر وفاة أمه بالسرطان ووصف موتها وآلامها ، وحياة الطلاب بباريس ، وقد عاش بينهم ردحاً من الزمن ، وحياة الطلاب ولا سيما طلاب الطب فى كارتييه لاتان ، وكانت فترة من أسوأ فترات حياته وأسودها، حياة تركت في نفسه جرحاً لا يلتئم ، وأذكرتنا بقول سترن وهو ينظر الى سجين فى الباستيل « رأيت الحديد يخترق روحه » .

ويمزج جويس تلك الذكريات بندم الابن على عصيان إرادة الأم ورفض توسلها إذ طلبت اليه وهى فى حشرجة الموت أن يركع بجانبها ويصلى لروحها ، وفى وسط هذه المعمعمة يتكلم أصحاب التيجان ، ويعود « كار » الشرطى البغيض ويتجلى بجهله وسوء فهمه ، وتحترق دبلين حريقاً ثانياً كما حرقت رومة أو قرطاجنة كأن

قلب المؤلف لا يرتاح وباله لايهـدأ إلا إذا رأى النار تلتـهم الظالم والظالم والمظلوم . ويعتدى « كار » رجل الشرطة على « ستيفن ديدالوس » بالطعن واللكم ليسكت لسانه ويخنق حريته ويقتل فكره ، وهو رمز مفهوم مادام بين ذى سلطان انجليزى وشخصية من شعب مظلوم ، أو مغلوب على أمره .

وقد رأينا فى موضع أخر كيف تنهى هذه المسرحية بنهاية الهذيان الفكرى الذى أصاب ليوبولد بلوم نتيجة الخمر ، حتى يرى شبح الطفل رودى فى رؤيا خاطفة من صنع خياله العليل .

وبعد إفاقته تستمر الحوادث ، ويرجع المؤلف الى ما انقطع ، كأن المسرحية نزوة عقلية اعترضت سياق الكتاب ، هكذا يبدو فى ظاهر الأمر ولكن الحقيقة أن المسرحية أسلوب فذ لم يكن غيره يصلح للتعبير عن فكر المؤلف وإرادته .

(١٢)

خاتمـــــة

قـال جـويس فى خطابه الى أخيـه المؤرخ ١٩٠٦/٩/٣٠ عن ليـوبولد بلـوم إن أصله « مـسـتـر هنتر » من أهل دبلن ، ولكنه ليس وحده الذى احتـاج اليه جويس لتكوين تلك الشخصية العجيبة ، وقد أشرك معه جويس رجلين آخرين فتكون تلك الشخصية مكونة من :

(١) هنتر الايرلندى من دبلن

(٢) رجل إغريقى عرفه فى تريستا

(٣) رجل مجرى عاشره فى زوريخ

ويضـاف الى هؤلاء ايتور شميتز الذى سيأتى ذكره .

ونصيب هنتر أن يمثل الايرلندى المتوسط الحال أثناء حياته ، وطوافـه طـوال اليـوم بمدينة دبلين ، وخـواطره وشـهـواته وأحـاديثـه وواقـعـاته مع أصـدقـائه وتسـجيل تأمـلاته ومشـاعـره ، وهذه أمـور بالطبع لايقـدر عليـها إلا رجل ايرلندى صـميـم يعرف البلد وأهلها وتاريخها وماضيها وحاضرها وسياستها واجتماعها ، فصار هذا

الجزء منَ الكتاب نصيب بلوم البطل فى القصة .

وسرد سياحته الخطرة ومقابلاته مع بنات البحر وبنات الغاب وبنات الهوى ورجال الأعمال ورجال الصحافة ، وغوصه للأعماق فى كل طبقة وكل دائرة وكل بيئة وخوضه غمار البحر المظلم والتقائه بالجبابرة العور والمردة من الإنس والجن ، وتملصه من المضايق وتغلبه على عواصف الحياة حتى صارت حياته فى تلك الفترة (١٦ يونيو ١٩٠٤) أسطورة وخرافة وتاريخاً للهائم على وجهه وسط المجتمع باحثاً عن هدوء البال ونعومة العيش فلا يجدهما ، ووسيلة للعثور على نفسه والتعرف بها ليتوجه توجيهاً صحيحاً وسط زوابع الزمن الفظيع الهاتك المهين .

ويبدو أن جويس كان معجباً بعولس بطل الأوديسة ، ذلك الإغريقى القديم الماكر الحاذق الذى خبل عقول أعدائه بخطط العقل التى غلبت خطط الحرب ، ولا مرجع لها إلا المنطق السليم وسعة الحيلة وحسن التدبير .

ولم تكن فكرة التشابه بين بطل كتابه وبين بطل الأوديسة بالأمر الذى يقبله جويس أو يقبل عليه ، ولكنها فكرة طرأت عليه أثناء نظره فى حالة نفسه أثناء إقامته فى رومة فكانت بذرة زرعها

العقل فنمت وازدهرت ، ولعلها فكرة كشفت لجويس عن خطته هو نفسه فى الحياة بسبب ضعفه حيال قوى خصومه والزمن .

وما أشبه تلك الفكرة التى غرست فى ذهن العبقرى بالحمل عند المرأة ! حمل أليم ، حضانة طويلة ، يتخللها طرح وإباء ورفض وامتعاض وانتظار مرير وصبر لحلول الروح فى الجنين ، يتلوها أوجاع المخاض وغمرات الوضع ، ثم يجىء الميلاد فيولد الطفل كاملا - هدية من الإله - ولكنه كمال لايمكن تحليله وتفسيره .

لقد حدث الحمل فى خريف سنة ١٩٠٦ ، واستمر خمس عشرة سنة ، وهى تلك الفترة قرأ جويس كتب الفلسفة والأدب القديم والحديث ، ومن الأدب الحديث مؤلفات « وايلد » و « جورج مور » (وهو ايرلندى) و « هويتمان » و « جيسنج » ولكن أفكار هذا الأخير فى الإشتراكية صدته عنه وحاول قراءة « أرثور موريسون » و«توماس هاردى» و «ثاكرى» ، ولم يفد شيئاً من القصة الإنجليزية .

وأعجب بأوروبا الحديثة من وضع « فيرورو » ، ومؤلفات موباسان ، ولكن عهد ادوارد السابع خنقه وضيق أنفاسه ، لأنه كان تكملة غير طبيعية لعهد فكتوريا الكئيب المحزن .

وكـان فى كل مطالعـاته ودراسـاته يبـحث عن المؤلف المدرك الفاهـم تمام الفهم الواعى تمام الوعى بحيث يستطيع أن ينقل لذهن القارىء الشىء المرغوب نقله على الوجه الأكمل والذى يستوفى صفة الانفعالات والأحاسيس فيما وراء المرئيات التى تلابس موقفاً من المواقف الإنسانية أو العالمية والكونية ٠

وشـهد أثناء إقامـته فى رومـة المؤتمر الدولى الاشـتـراكى فلم يرقـه وشـعـر بالبـغض الشـديد نحـو كـارل مـاركس ، فـأسـاء الظن بنفسه، وكذا اتجه لقراءة كتب الفلاسفة والمصلحين ذوى النزعة الاشتراكية ليصحح نظره فقرأ موست ومالاتستا وسترنر وباكونين وكروبوتكين وركلو وسبنسر ، ولم يقرأ من كتاب رأس المال لماركس إلا الجملة الأولى منه ثم تركه ٠ ولكنه خرج من كل قراءاته مؤمناً بوحشية العالم المتحضر وقساوة المدنية المادية الحديثة وفظاعتها ومساوئها الظاهرة والخفية، واقتنع بظلام مستقبلها وسوء عاقبتها ، وأبغض السياسة لأنها متعبة ومضجرة وتدور حول مصالح المشتغلين بها ومنافع بعض الطبقات ، فهى لعبة خطرة تعود بالمصلحة على محترفيها ومتقنيها الذين شبههم بكبار المقامرين فى مونتكارلو يظهرون قفاز المخمل ويخفون الخناجر ٠

واشتاق الى دبلين وأحب أن يقف على أخبارها فجذبته المدينة، وشهد حركة « الشين فين » التى أسسها جريفيث ، فمال جويس الى جانبهم من سنة ١٩٠٥ لأنه اعتقد أنها حركة منتجة وقد صح تنبؤه واعتقاده فآتت هذه الحركة ثمرتها باستقلال ايرلندا فى سنة ١٩٢١ ، وما كان جريفيث يخشى شيئاً سوى خشيته وقوف الكنيسة فى سبيل حركته كما حاولت أن تقف فى وجه بارنل دفاعاً عن الحكم القائم وعن ملاك الأراضى ٠

ولكن جويس لم ينضم الى القائلين بإحياء اللغة الايرلندية القديمة وعلى رأسهم بيتس ، لأنه اعتقد أن إحياء لغة قديمة يعزل ايرلاندا عن العالم ، وكل هذه الخواطر التى ساورته فى روما مع بعده عن ايرلاندا سببت له القلق والاضطراب ، فشعر بالضياع والمنفى والضيق والحرج والكرب وألحت عليه الذكريات القديمة ، فبدأ يشعر أنه يعيش فى فضاء كفراغ الفاكوم ٠

ولما مثلت مسرحية « الفتى اللعوب فى غرب أوروبا » فى دبلن وفيها شبه مأساة - قتل الولد لوالده - تأثر لها وتأثرت لها كل ايرلندا ، وأثارت مشاعرهم ، وغضب النظارة فى دبلن لمنظر القبلة ولورود بعض ألفاظ ضد الدين ، فدفعه هذا الغضب المصطنع للدين

والفضيلة الى الإغراق فى مسرحيته « مدينة الظلام » نايت تاون .

وهذه المعركة الأدبية فى ايرلاندا بشأن حرية المسرح دفعته الى الهجرة من روما ، فعاد الى تريستا وعاد الى مدارس برلتز ليعلم الانجليزية للأفراد ، ولم يفاتح أحداً بدخيلة نفسه ، لأن المفاتحة تضعف الإرادة وتحل العزيمة ، كان يبغض الاشتغال بالتعليم فى سبيل الرزق ولكن لم تكن له وسيلة أخرى ، ولم يستصف أحداً غير الأديب « ايتور شميتز » الذى ألف كتابين ونشرهما باسم مستعار أحدهما « ايتالو سفيفو » ، فأظهر جويس نفسه لهذا الرجل وأقنعه بالعودة الى الأدب بعد اليأس ، وعثر جويس فى طبيعة شميتز الهادئة اللاصقة بالحقائق البعيدة عن العواطف على سند مادى مشهود لإكمال شخصية بلوم التى مازالت فى سديم عقله صورة مبهمة غامضة ولكنه لم يكن بعد قد اختار لبطل قصته اسم ليوبولد بلوم، ويمكن أن يُضم شميتز الى الشخصيات الثلاث التى كونته ، وهم هنتر الايرلندى والرجل اليونانى من أهل تريستا والمجرى الذى لقيه فى زوريخ .

وفى سنة ١٩٠٧ نشر جويس كتابه « موسيقى الحجرات » ، ولكنه خاب ولم يجد سوقاً نافقة ، فأعانه ارثور سيموندز الكاتب

الشهير مؤرخ عهد الإحياء ، فانبرى سيموندز لتقريظ الكتاب والدفاع عنه ، وكذلك أشاد بذكره صديقه القديم ورفيق صباه فى جامعة دبلن « توماس كيتل » ، فلما قرأ التقريظين رقص فى الشارع مع اثنين من سعاة البريد أثناء عاصفة مطر هوجاء فأصيب بحمى ولزم الفراش ، حمى الفرح ؟ أم حمى المطر ؟ .

وفى أغسطس سنة ١٩٠٩ سافر فى رحلة قصيرة الى دبلن ومعه زوجته وولداه بعد غيبة خمس سنين وجمع مالاً كثيراً ليقيم مشروع دار صور متحركة ، ولكنه فشل واحتالوا عليه وفقد ماله فغادروا ايرلاندا ومعه أخته هيلانه ، وتراكم عليه الغم والغضب واصطلح الفقر وسوء الطالع فخاصم أخاه ستانسلاوس لأهون الأسباب « وما أشبه هذا الأديب العظيم فى خيبته عندما طلب المال بالطرق المرذولة بسلفيه الصالحين بلزاك وولتر سكوت ! » .

وفى سنة ١٩١١ استأذن الملك جورج الخامس فى ذكر والده ادوارد السابع باسمه وسماته وصفاته فى قصة أهل دبلن ، فأجابه الملك بلسان كاتم أسراراه أن الملك لا يملك أن يبدى رأيه فى هذه المسألة بحكم الدستور ، فغضب من جديد واعتقد أنه فريسة مؤامرة كبرى من أعداء الحق والحرية ، وظن أن أبناء وطنه تواطؤا عليه

حتى أفقدوه مائة وخمسين ألف فرنك فى مشروع السينما ، فعاد ثانية الى دبلن بكل أفراد أسرته ، وبينما كان يجوس خلال القبور للموعظة أو لزيارة قبر أمه ، وجد قبراً عليه اسم J. Joyce وهو اسمه ولقبه ، وأعاد الكرة لنشر كتابه قصة أهل دبلن التى طالت واستمر من سنة ١٩٠٣ الى سنة ١٩١١ ، وحجة الناشرين أنهم ينشرون مخزيات الناس ولا يطبعون المعايب للقراء ، فزاد غيظه من القوم ، وكانت سنة ١٩١٣ من أسوأ الأعوام .

وفى سنة ١٩١٤ انتهى من صورة الفنان الشاب كما أسلفنا وبدأ كتاب عولس ، وبعد نشر هذا الكتاب الأول مد إزرا باوند يده لمعونته فى لندن فى غيبته ، وهو صديق عرفه فى باريس ، بدأ جويس يكتب عولس ويخرجه من حيز الفكر الى حيز العمل والتدوين، وكان فى تلك الفترة يعتقد أن كتب اليونان الأقدمين أعظم من هملت ودون كيشوت ودانتى وجوته ، وجذبه التصوف ، وقد خيب وطنه أماله فيه فاعتبر أوروبا والداً له « لا ليوبولد بلوم كما زعم الجهال » ، وإن كان هناك شبه بين كتابه وبين الكتاب اليونانى القديم ، فهو الأخلق بأن يكون عولس نفسه ، لا تليماك ابنه لأنه هو الذى كابد الأسفار وتحمل مشقات النفى والهجرة ، وقد صحبته تلك

الفكرة من سنة ١٩٠٦ ولم يبدأ بتنفيذها إلا سنة ١٩١٤ ، فإن كان هو عولس الحديث فدبلن وطنه هى محيط البحر الأبيض الذى تاه فيه عولس القديم .

وخطة عولس أن يكون كتاباً كونياً يطوى بين دفتيه كل شىء فى العالم ، أى أن يجمع الحياة فى كتاب ، كتاب يفسر الحياة فى العصر الحديث ، ولا سيما بعد أن رأى عمق الهوة التى تفصله عن قومه الذين نشأ فيهم ، هوة فى التفكير والشعور ، وقد يكون الرجال الذين أثروا فى ذهنه حقاً بعد الأقدمين ، إيبسن النورويجى وفيريرو الإيطالى ، وكلاهما يبغض العصر الحديث ويمقته ويطلب تحرير العقول والعواطف .

ومنذ أعلنت الحرب صار جويس أسير حرب فى تريستا ، ولكنه تمكن من الإفراج عن نفسه بكلمة الشرف ليذهب الى زوريخ ، فسافر اليها فى أول صيف ١٩١٥ ، ولكن زوريخ التى أعجب بها وأحبها فى أول هجرته أبغضها عند عودته إليها ، فقد كانت تعج بالغرباء واللاجئين والجواسيس والمشبوهين من كل دولة ، وأصبحت موطناً دولياً للعناصر المريبة من كل قطر ، وكان قد قطع شوطاً فى القسم الأول من كتابه فى تريستا ، فلما أراد دخول البلد اعترضه

رجال الجمارك وظنوا كتابه نوعاً جديداً من الشفرة السرية لغموضه وغرابة أسلوبه وجهلهم بالأدب والفن ولا سيما الجديد الطريف ، فواصل عمله فى كتابه فى زوريخ .

وكانت طريقة عمله أن يكتب مايعنّ له على قصاصات من الورق ، فى كل مكان وزمان من النهار أو الليل ، ويودع المكتوب جيوب ثيابه ، وكان يعمل على طريقة الشعراء ، فلا يضع على الورق إلا ما تمت صياغته فى ذهنه ، لم يكتب كالناثر بل كالناظم ، فلم يدون إلا ما فرغ من صبه فى القالب الملائم ، وكان بحثه غير مقصور على الألفاظ أو جرسها بقدر اهتمامه بواقعة أو كلمة أو سمات خلقية يضعها فى موضعها على لسان أشخاصه أو فى كلام عنهم ، ولا يتخلى أبداً عن أدوات عمله فعاش للكتاب وجعله طعامه وشرابه وشغله وتفكيره ، وأهمل كل ما عداه ولم يشتغل بشىء غيره، ولم يكن من السهل أن يكترث له أحد وهو فى الطور الأول من أطوار التنفيذ .

وقد جمعته مصادفات الأسفار ببعض الكتاب فى زوريخ ومنهم بلايبترو Bleibtru صاحب نظرية دوق رتلند « أى الذى قال إن هذا الدوق هو مؤلف المسرحيات المنسوبة الى شكسبير » ،

وشيكرليه الكاتب الألزاسى ، وستيفن زفايج الكاتب اليهودى المنتحر فى أمـريكا الجنوبيـة أثناء الحـرب العـالميـة الثـانيـة وهو على قـمـة الشـهـرة ، وروما ن رولاند المنفى من وطنه وغيرهم ممن يبغضون الحرب التى لم تنته الى نتيجة حاسمة ولم تعد على العالم بخير لعجز القادة عن الإدراك والمنطق ومجافاة روح العدل الإنسانى والحقوق والحريات التى كانوا يلوحون بها وفشل الهيئات الدولية التى عينوها للاحتكام ·

واتصل به هـ· ج ·ويلز وامتدح كتابه « صورة الفنان » ، والتقى بأغبياء وأدعياء ومتهوسين ودجالين ومحتالين وهواة تمثيل وهواة تأليف ومحترفين فى اقتناص الأموال واستغلال المواهب ، وأراد فريق منهم أن يستغل مواهبه ، وكان الجنس الرقيق أميل إليه والى معونته لجاذبيته فى شخصه ·

ولم يخلص جويس نهائياً من هم الارتزاق بمهنة التعليم والتدريس إلا فى سنة ١٩١٧ ، أى بعد أن مارسها وعول عليها فى قوته وقوت أولاده ثلاث عشرة سنة، ولم يكن حب النساء إياه مقصوراً على اللواتى عرفنه فى ايرلاندا وأوربا ، بل امتدت تلك الجاذبية الى ما وراء المحيط ، وتطوعت سيدات وأبكار غنيات

وأديبات لمعونته فى نشر كتابه ومده بالمال ، وحاول أن يكون فرقة تمثيلية فى زوريخ من الهواة والهاويات ، فاحتكت به السلطة القنصلية من رجال الانجليز ، فأبغض منهم كار ورمبولد ومثل بهما فى كتابه وجعل منهما شرطيين غبيين وأحدهما جلاداً وحلاقاً .

وفى سنة ١٩٢٠ رحل جويس من زوريخ الى باريس وجميع أسرته فاستقبله إزرا باوند استقبالا حافلاً بالتكريم ، وكان قسم من كتابه قد نشر فى أمريكا ، ولم يكن الكتاب كله قد تم لأنه أنجزه سنة ١٩٢١ ، ولكن مانشر منه فى أمريكا أذاع صيته ونشر شهرته ورفع ذكره وألهج الألسنة باسمه وصار أسطورة أدبية فى الأدب العالمى وهو مايزال فى المهد ، صار كتاب جويس أسطورة وتقليداً ومنهجاً ونموذجاً ولغزاً .

كان جويس طويلاً نحيفاً أبيض الشعر وهو فى الأربعين من عمره وقوراً ، يضع على عينيه نظارة ، محباً للمرح وعطوفاً على أسرته وصديقاً وفياً ، وقد قاضاه فى أمريكا جورج سميز رئيس جمعية محاربة الرذيلة ، بسبب الأجزاء التى نشرت من كتابه فى الولايات المتحدة فى « المجلة الصغيرة » . وفى سنة ١٩٢١ حكم على صاحبتى المجلة بالغرامة وحكم بمصادرة الكتاب ، ومن هنا

بدأت مأساة المصادرة والإحراق في أمريكا وبريطانيا ، ولم يبال جويس وكان أصحابه يصفونه فى هذه الفترة بأنه مزيج عجيب من وقار مؤدب ومرح خيالى ، أى أنه كان وقوراً طيب العشرة وطروباً مثالياً .

ولما تم الكتاب قامت بطبعه فى ديجو (فرنسا) سنة ١٩٢٢ الآنسة بيتش "Beach" ، وأهدت الى جويس النسخة المطبوعة الأولى يوم ٢ فبراير سنة ١٩٢٢ وهو عيد ميلاده .

ولم يبق الكثير من سرد أخباره ، فقد عانى ماعانى الى سنة ١٩٣٣ ، عندما أصدر القاضى الأمريكى حكمه بإطلاق الكتاب وإباحة طبعه ونشره ورفع الحجر عنه وحق مؤلفه فى استثماره .

وتوفى جويس سنة ١٩٤١ فى الستين من عمره بعد أن علا نجمه وتألق مجده، وأسدى ما أسدى الى الحق والحرية والعدل والأدب والفن واللغة ، وإن له عند الله يداً لأنه أتم رسالته ولم يبدد مواهبه ولم يضيع ميراثه ، ورضى بالذل والفقر والأسر لتحقيق غايته التى أرادها الله له ، فدخل فى عداد عباده الراضين المراعين حق الله فى عبقرية الكائن الإنسانى ، ولم يثر إلا على مظالم دهره، ولم يفقد ثقته بالله ، وفقد بصره فى سبيل عمله ولم يعرف الخنا

ولا الفساد لأنه اعتصم بالزواج فى فجر شبابه ، ولم يخن أمانة ، ولم يربح مالاً حراماً ، ولم يسع الى شهرة باطلة، ولم يضرب لأحد مثلاً سيئاً ، وعرف الخير وأحبه ، وعرف الشر فأبغضه ، وأقام للأخلاق والحرية صرحاً وأقام البيان ، وقد آتاه الله الفصاحة والبلاغة وكنوز اللغة فكان أميناً عليها ، وبر بوعده عندما قال إنه سيخلق فناً جديداً وعندما قال إنه سيؤلف كتاباً يشغل الدنيا .

وكان باراً بأهله وبأولاده وبوطنه ، وبالجملة كان جيمس جويس علماً من أعلام عهد الإحياء ، عاش فى معظم عمره غريباً حقيقة ومجازاً ، ومجهولاً من معاصريه الذين لم يعرفوا قدره إلا فى الندرى ، وهذا يزيده فى نظر التاريخ رفعة وقدراً .

محمد لطفى جمعه

الفهرس

رقم الإيداع
٩٨ / ٧٨٤٣

I.S.B.N.
977-232-145-9



مطبعة السلام الحديثة

١٠ش عبد السلام منسى
المتفرع من الشهيد أحمد حمدى
مدكور – فيصـل
ت : ٥٨٣١٩٣٠